صلح الحسن عليه السلام

غدير عز.. ولغز جهاد

تأليف

الشيخ أحمد محمد إسماعيل

دار الولاء

بيروت - لبنان



صلح الحسَن عليه السلام

غدير عز.. ولغز جهاد



لبنان - بيروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس: 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - ص.ب. 307/25
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com - daralwalaa@yahoo.com



ISBN 978-614-2420-119-0

اسم الكتاب: صلح الحسَن عليه السلام غدير عز.. ولغز جهاد

المؤلـــــف: الشيخ أحمد محمد إسماعيل

الناشـــــر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع

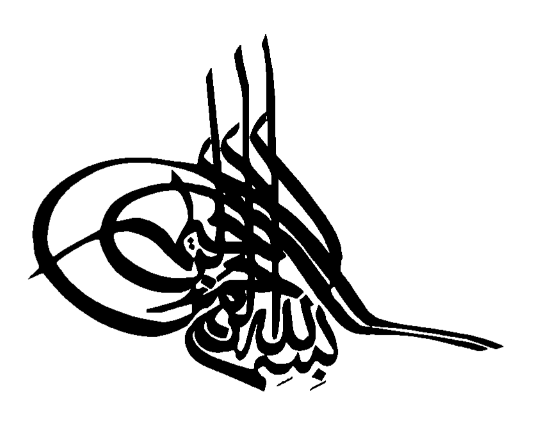
الطبعـــــة: الأولى ـ بيروت ٢٠١٤م ـ ١٤٣٥هـ

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر**

صلح الحسَن عليه السلام
غدير عز.. ولغز جهاد

تأليف
الشيخ أحمد محمد إسماعيل

دار الولاء
بيروت - لبنان





الإهـداء

إليك يا رمز السخاء.. شلّال العطاء.. ضمير الشهداء..

إعصار غضب السماء.. خلاصة سر الأنبياء..

إليك يا خُلُقَ النبي.. وعدل علي.. وحكمة الحسن..

وشهادة الحسين..

وثأر كل مقتول ومسموم

إليك يا بلسم الجرح الموغل في وجع الأمة والأئمة..

يا رحمة محمد.. وغضب محمد.. يا قائم آل محمد..

أهدي كتابي كتأشيرة الانتماء إلى مدرسة العترة

الطاهرة وصية جدك المصطفى ﷺ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على من بُعث رحمة للعالمين، محمد بن عبدالله ﷺ وعلى آله الطيبين الطاهرين.

عذراً يا ريحانة المصطفى،

أفتتح مقدّمتي المتواضعة بالإعتذار من مولاي الحسن المجتبى عليه السلام لخوضي عالم العظمة والعظماء، وتقحّمي عُلا قرّة عين المصطفى، وتكبّدي عناء المتصعّد لعالم أجهله بالمطلق، وما يشفع لي جرأتي أني محبّ متيّم، عاشق كالفراشة المأخوذة بنور الشمعة، فهي في أوج سرورها وحبورها إذا كانت تحوم حول الضوء والنور، وإن قتلها طواف عشقها، وصرعها هيام سحرها.

عذراً أيها الإمام لهذا السبر لبحرك، ولهذا اليراع المتوهّم بأنه سيرفع عنك المظلومية، ولثقافتي الظاهرية. وعلمي الذي هو أشبه بجهل وهو يدخل عالم المكابرة حين يدّعي بأنه يكشف النقاب عن سيرتك ويغوص في أعماق سرّك، وأنت سيدي علمك علم الباطن، ونحن لا شأن لنا بتلكم المعادلة الإلهية، ولا نفقه أبجديتها.

عذراً سيدي يا مظلوم العترة الطاهرة حيث يشكّل كتابي هذا

دفاعاً وبعضاً من أجوبة على شبهات مثارة وهذا بحدّ ذاته مفردة من مفردات مظلوميتك حين يتصدّى واحد مثلي ليدافع عن واحد مثلك مولاي أيها الحُسن والحَسَن.

أعذرني يا فلذة كبد الزهراء لدخولي رحاب واديك المقدّس وأنا لا زلت لم أخلع نعليّ، حيث تثقلني الرواسب والتقاليد والأعراف الجاهلية والعصبية، إذ ليس المقصود من خلع النعل إلا إزالة كل ما من شأنه أن يعيق الحركة باتجاه معدن العظمة الإلهية.

إقبل مني يا ثمرة قلب المرتضى هذا اللواذ بك وأنا بعدُ لم أتذوقْ طعم مناجاتك مع حبيبك ومعشوقك «حبيب قلوب الصادقين» كما يعبّر أمير المؤمنين عليه السلام والدك وأسوتك في المظلومية، وهو القائل لك «**وَجَدتُك بعضي، بل وجدتُك كُلّي، حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني، وكأنّ الموتَ لو أتاك أتاني**»[1].

واعذر تطفّلي على عالمكم، وأنا على غير وضوء روحي وصفاء قلبي ما يعيقه عن العروج إلى عالمكم الأقدس.

أأدخل يا ريحانة الرسول ويا قطعة قلب الأمير، فما يصيبك يصيبه. فأنت بعضه، وكلّه.. بل أن كل الغدر الذي لاقيت، كان يؤذي ليس قلب أبيك أمير المؤمنين فحسب، وإنما أفئدة أهل بيت العصمة والسلسلة الطاهرة.

وقد قال فيك جدّك المصطفى كلاماً يُدين فيه كارهك، فكيف قاتلك؟ حتى أنه صلى الله عليه وآله لم يترك مناسبة إلاّ وتحدّث بها عنك، وليس من شأن النبي أن يجامل على حساب الوحي، فأنت الذي حملك

---

(١) نهج البلاغة، ص٣٩١، من وصية له لوالده الحسن عليه السلام.

قدرك أن تواجه عصراً قاسياً ومسلمين مزاجيين مزايدين منتقدين معترضين لحدٍ تصل فيه لوقت يقال لك حتى من قبل الذين يفشون السلام، فيعبّرون عنك بمُذلّ المؤمنين ونسوا أنك لهم رمز وعنوان وإنك دليل العدل الإلهي، إلا أن الجهل والإعراض والإنكار لحقكم ومنزلتكم عند الله ورسوله.

قاتل الله الجهل الذي كان سبباً في بُعد الجَهَلة عن نبي الإسلام محمد بن عبدالله ﷺ، والذي حَبَس أمير المؤمنين عليه السلام، خمسة وعشرون عاماً في بيته، والذي كان له وقع على قلب إمامنا أكثر من تلك السهام التي صُوِّبت إلى جثمانه الشريف يوم استشهاده عليه السلام، قاتل الله الغباء، فهو لسان إبليس الذي لا يعرف الضوابط والمقاييس، فهو يتَّهم ميزان الحق وشاقول مدماك الإستقامة ويُلقي التهم جزافاً، ويحصد الأشراف، ويرفع الأشرار، بينما يُجعل الإمام الحسن عليه السلام في دائرة الاتهام، وفي مرمى مراميهم الخبيثة، وقد صدق الشاعر حين قال:

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً

تجاهلت حتى ظُنّ أني جاهل[1]

وإلى أمثال هؤلاء أشار أمير المؤمنين عليه السلام «إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهّالاً، ويموتون ضلالاً، ليس فيهم سلعة أبور[2] من

---

(١) أبو العلاء المعري.

(٢) أبور: أفسد، وبار الشيء أي فسد، وبارت السلعة أي كسدت ولم تنفق، والمراد بقول أمير المؤمنين عليه السلام: إن العمل بالقرآن كاسد لا يقبله الناس ولا يتعاطون معه على أنه المرجعية والمصدر.

الكتاب إذا تُلي حق تلاوته، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر»[١].

قاتل الله الحماقة التي يملّ أهلها ويضجر أربابها من المنّ والسلوى فيبحثون في الأرض عن فومها وعدسها وقثائها.

وهكذا هم الذين لبسوا الإسلام على طريقة «وَلُبِسَ الإسلامُ لبسَ الفرو مقلوباً»[٢]، فلم يُسلِّموا الأمر لله ولرسوله، ولم يسترقوا سمع الأولياء، ولم يدخلوا في خضمّ الدين الذي يخرجهم من الظلمات والدياجير، بل التزموا ببعض قشوره فصاروا كمُحتطبي ليل، لم يستضيئوا بنور ولم يسترشدوا بهدىً، إنما أتوه لمصلحة دنيوية رخيصة، فهم يضعون شروطاً للإنتماء، وكلما تضررت مصالحهم ولم تلق المصلحة العليا إعجابهم كل ما تمرّدوا على الدين وأهله، وانقلبوا على أعقابهم، وكل ما قُدّمت لهم الأدلة على باطلهم وانحرافهم عن الجادة سخروا عن الحق، وها هو أمير المؤمنين عليه السلام يختصر الكثير من الكلمات وهو يعطي بذلك دستوراً لمعرفة معاني الدين فيقول عليه السلام: «الإسلام هو التسليم»[٣].

وعلى أي حال فالمشاكل التي واجهت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته، هي نفسها التي تواجه العظماء الذين يولدون في زمنٍ لا يعرف معاصروهم ولا الذين سيلحقون، ما هم عليه من الفضل،

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ١٧.

(٢) نهج البلاغة، من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام في الملاحم، شرح د. صبحي الصالح، خطبة ١٠٧.

(٣) بحار الأنوار، ج٦٨ ص٣٠٩.

فيُقاس التبر بالتراب، والثريا بالثرى، فيُظلَمون وتتوجه إليهم أصابع الاتهام وتستهدفهم حملات شرسة تسعى للنيل من مقاماتهم العالية والرفيعة، وتمرّ السنوات والعقود والقرون وتبقى شخصياتهم مجهولة لدى أهل الأرض، ويتطلب الأمر جهداً وعملاً مميزين، لتبقى الصورة على رونقها فلا تطالها يد التحريف، ولا يُسمِّمها التزييف..

فإلى تلك السيرة لإمامنا الحسن عليه السلام، وإلى تلك الحقبة الزمنية التي توجع وتفجع قلب قارئها، فكيف بمن عاشها وعاصرها وتجرّع مرارتها وغصّاتها واحدة تلو الأخرى؟ بل إن القارئ لا يتحمَّل كل هذا الألم، فكيف بمن واكبها لحظة بلحظة وذاق أهوالها عند كل تفصيل؟



الفصل الأول

من هو الإمام الحسن عليه السلام؟

* بطاقة تعريف بثاني الأئمة عليهم السلام.
* آية مباركة.
* الولادة الميمونة.
* عناية السماء.
* الإمام الحسن في القرآن الكريم ـ آية التطهير، آية المباهلة، آية المودة، آيات الأبرار.
* المجتبى على لسان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.
* لو عرفت الأمةُ الأئمة عليهم السلام!
* الإمام عليه السلام في ميدان العلم.
* كلمة لله والتاريخ.



* بطاقة تعريف بثاني الأئمة عليهم السلام

هو الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي أبو محمد الهاشمي[1].

أمه: السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

جدّه: رسول الله محمد بن عبد الله، خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله.

أخوه: سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام.

من صفاته عليه السلام: أنه كان أبيض اللون، مشرب بحمرة، أدعج العينين[2]، سهل الخدين، كثّ اللحية[3]، جعد الشعر ذا وفرة[4]، ليس بالطويل ولا بالقصير، ومن أحسن الناس وجهاً.

روى الصدوق بإسناده عن المفضل عن عمر قال: قال الإمام

(١) الحافظ ابن عساكر في كتاب تاريخ دمشق، ص٥، بيروت.
(٢) الأدعج هو شديد سواد العين مع سعتها.
(٣) كث اللحية وهو صاحب الشعر الكثير والقصير.
(٤) هو الشعر المجتمع على الرأس أو الشعر المتدلي الواصل إلى الأذنين.

الصادق عليه السلام: حدثني أبي عليه السلام عن أبيه عليه السلام: «إن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام كان أعبد الناس في زمانه، وأزهدهم، وأفضلهم، وكان إذا حجّ حجّ ماشياً، وربما مشى حافياً، وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر الممر على الصراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقة يُغشى عليه منها، وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائصه بين يدي ربّه عزّ وجل، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم، ويسأل الله الجنة، ويعوذ بالله من النار. وكان عليه السلام لا يقرأ من كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلا قال: لبيك لبيك. ولم يُر في شيء من أحواله إلاّ ذاكراً الله سبحانه، وكان أصدق الناس لهجةً، وأفصحهم منطقاً»[١].

وُلد الإمام عليه السلام في ليلة النصف من شهر رمضان المبارك، في السنة الثالثة للهجرة في المدينة المنورة.

كانت ملامحه وصفاته تحاكي ملامح جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله. فكان كرسول الله صلى الله عليه وآله في أخلاقه وصفاته، وكان حسن المعاشرة مع الناس سخياً كريماً عفوّاً. قضى شطراً من حياته عليه السلام أثناء طفولته مع جدّه صلى الله عليه وآله. وكان يغدق عليه من عطفه وحنانه، لكن تلك الحالة لم تدم طويلاً عندما رحل النبي صلى الله عليه وآله وكان للحسن عليه السلام من العمر سبع سنين وستة أشهر. وقد شاهد بأمّ عينه إقصاء أبيه عن موقعه الإلهي، وهو يواكب صبره لحظة بلحظة ويعيش ألم الرسالة بكل التفاصيل والجزئيات وهي لا تحتمل لشدتها وصعوبتها.

---

(١) الصدوق، الآمالي، ص١٥٠، طبعة بيروت.

استشهد الإمام المجتبى عليه السلام في الثامن والعشرين من شهر صفر في السنة الخمسين للهجرة النبوية الشريفة في المدينة المنورة ودفن في البقيع.

* آية مباركة

لولادة ابن القرآن الناطق في الشهر المبارك. بعض الإشارات والدلالات، وهي باختصار توجز قصة نزول القرآن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[1] وتلقي بضوئها على استشهاد أمير المؤمنين في شهر الله، فتكون المعادلة التالية:

إن القرآن الكريم نزل في شهر رمضان، والقرآن الناطق صعدت روحه إلى بارئها في شهر رمضان.

وما بين القرآن الصامت والناطق علاقة راسخة واندماج وامتزاج وأواصر، لحدٍ لا يُستطاع الفصل بينهما، وهذا ما أشار إليه الإمام الخميني (قده) حينما أكد في وصيته الخالدة «إن كل ما ألمّ بأي من الثقلين بعد الوجود المقدس لرسول الله صلى الله عليه وآله، قد أصاب الثقل الآخر، وإن هجر أيّ منهما هجر الآخر، حتى يرد هذان المهجوران الحوض على رسول الله صلى الله عليه وآله»[2].

وهذا الكلام مستفاد من أحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ومن حديث الثقلين الذي نُقل بعبارات مختلفة وكما قيل:

---

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) الوصية الخالدة، الإمام الخميني (قده)، ص١٠، الدار الإسلامية.

عـبـاراتـنـا شـتـى وحـسـنـك واحـد
وكـلّ إلـى ذاك الـجـمـال يـشـيـر

فقد جاء في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكّر ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحثّ على كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»[١].

وجاء في صحيح الترمذي عن جابر بن عبد الله قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجّته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء[*] يخطب فسمعته يقول: «يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[٢].

وجاء في مسند أحمد بن حنبل عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي تارك فيكم خليفتين: كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض «أو ما بين السماء إلى الأرض»، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[٣].

---

(١) صحيح مسلم، ج٤، ص١٨٧٣، ح٢٤٠٨، طبعة بيروت.

(*) وهي الناقة التي أقصاها صاحبها عن العمل والخدمة ولم يرسلها للمرعى، وذلك لمكانتها. وقد كانت القصواء ناقته المفضّلة، لقوتها وسرعتها وطبعها الأصيل.

(٢) صحيح الترمذي، ج٥، ص٦٦٢، طبعة بيروت.

(٣) أحمد بن حنبل، المسند ج٥، ص١٨٢، طبعة بيروت.

والثقل[١] هو كل نفيس خطير ومصون، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله قال في حديث له: «لو كان العقل رجلاً لكان الحسن»[٢]. وعلى ضوء ذلك فالإمام عليه السلام هو مفردة قرآنية وآية من آيات كتاب الله المجيد، وهو عليه السلام العقل والمنطق ولغة السماء، وهو عليه السلام من أهل الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً[٣]، وهو أشبه الناس برسول الله خلقاً وخُلقاً[٤]، وهو من أجود الناس وأكرم بني هاشم بعد أبيه، وقد طلّق الدنيا مراراً وحجّ خمساً وعشرين حجّة[٥].

* الولادة الميمونة

لما وُلد إمامنا الحسن عليه السلام ووصل خبر ولادته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله غمرت قلبه الفرحة وظهرت عليه علامات الارتياح فأسرع إلى بيت الطهر، بيت فاطمة ونادى يا أسماء أين ولدي[*]؟ فأسرعت أسماء إلى الوليد وهو ملفوف بخرقة صفراء فأخذه منها وقال: «ألم أعهد إليكم أن لا تلفوا المولود في خرقة صفراء»[٦]،

---

(١) قيل سميا بالثقلين لأن العمل بهما ثقيل، وفي تفاسير أخرى الثقل هو الشيء الثمين والأمانة النفيسة.

(٢) فرائد السمطين، ج٢، ص٦٨.

(٣) نور الأبصار، ص١٢٣؛ صحيح مسلم، ج٧ ص١٣٠؛ أسد الغابة، ج٢ ص١٢.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ج٢ ص٤٣١؛ البخاري، ج١٤ ص١٣٧ كتاب بدء الخلق.

(٥) شذرات الذهب، ج١ ص٥٦؛ تاريخ الإسلام الذهبي، ج٤ ص٣٧.

(*) وواضح أن إطلاق تعبير ولدي، وفي رواية أخرى (يا أسماء هاتي ابني) من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله على الإمام الحسن عليه السلام منذ اليوم الأول لولادته الشريفة لها من الدلالات والإشارات ما لا يخفى على عاقل، واللبيب من الإشارة يفهم!

(٦) عذراً يا رسول الله لهذه الأمة، حيث نهيت أن يلفّ ولدك الحسن في خرقة صفراء، =

وأذّن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى، فكان أول صوت مرّ على سمع السبط، وتغلغل في أعماق نفسه وقلبه صوت جدّه العظيم: الله أكبر... لا إله إلا الله. هذه الكلمات النورانية القصيرة في تراكيبها، الكبيرة في معانيها كانت بحق قصيدة الإمام في حياته، بل أنشودته الدائمة ديمومة حياته.

* عناية السماء

سأل المصطفى عليّاً المرتضى.. هل سمَّيت ولدك الميمون؟ فأجابه عليه السلام على الفور: ما كنت لأسبقك يا رسول الله، فيتوقف النبي للحظات وإذ بالوحي يقول لأمينه المؤتمن: «سمّه حسناً يا رسول الله»[(١)].

أما سبب تسميته بالحسن. فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «سُمي الحسن عليه السلام حسناً لأنه بإحسان الله قامت السماوات والأرض، والحسن مشتق من الإحسان، والحسين تصغير الحسن»[(٢)].

وكان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله شديد الاهتمام به، حتى أنه صلى الله عليه وآله كان يحمله على رقبته، وذات يوم لقيه رجل وهو على تلك الحالة، فقال الرجل: نِعمَ المركب ركبت يا غلام، فأجاب الرسول وهو أعظم

=لا أدري أيها الحبيب المصطفى أي مظلومية عاشها حفيدك وريحانتك؟ فكل حياة الحسن عليه السلام كانت محطات من المظلومية، أقل قليلها أن يُلف في خرقة صفراء، وهو المحروم من أن يضطجع جثمانه قرب المرقد المطهر لك!.

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر للسيد هاشم معروف الحسني، ج١ ص٥١٢.

(٢) مائة منقبة ـ منقبة ٣/ ٣٩٨؛ وفي البحار: ٤٣/ ٢٥٢، ح٣؛ وهناك نصوص أخرى قريبة جداً من تلك المعاني والكلمات والخبر مروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

مخلوق في الدنيا، وشهادته هي أرقى وأميز شهادة يشهد بها إنسان فقال ﷺ: «ونعم الراكب هو»[(١)]. وهو سيد شباب أهل الجنة بإجماع المحدّثين والرواة ولا ينكر هذا إلا جاحد أو مكابر.

وطالما حدّثنا التاريخ المنصف الذي لم يدونه أمراء البلاط وعلماء السوء، أن الحسن كان يصعد على ظهر رسول الله، فيطيل هذا الوجود المقدّس سجوده النوراني، فإذا فرغ النبي من صلاته، يسأله المصلون عن سبب إطالته للسجود، فكان يجيبهم بثقة عالية تنم عن مدى مقام الحسن عند رسول الله ﷺ فيقول: «إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله»[(٢)].

ولقد أجاد السيد إسماعيل الحميري حين نظم قصيدة طويلة نقتطف منها بعضاً من الأبيات، والتي قال فيها:

أتى حسن والحسين النبي
وقد جلسا حجره يلعبان

---

(١) الصواعق المحرقة، ص٨٢.

(٢) ترجمة ريحانة رسول الله ﷺ، تاريخ دمشق، للحافظ الكبير ابن عساكر، ص٩١؛ وفي المصدر نفسه، عن أبي عبدالله بن شداد عن أبيه، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء أو الظهر أو العصر وهو حامل حسناً أو حسيناً فتقدّم النبي ﷺ فوضعه، ثم كبر في الصلاة فسجد بين ظُهري صلاته سجدة أطالها فقال أبي: فرفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو وساجد، فرجعت في سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر وأنه يُوحى إليك، قال: كلّ ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله؛ في المصدر نفسه: عن أبي الزبير عن جابر قال: دخلت على النبي ﷺ وعلى ظهره الحسن والحسين وهو يقول: «نعم الجَمل جملكما، ونِعم العدلان أنتما»، ص٩٣.

فـــفـــدّاهـــمـــا ثـــم حـــيّـــاهـــمـــا
وكـــانـــا لـــديـــه بـــذاك الـــمـــكـــان
فـــراحـــا وتـــحـــتـــهـــمـــا عـــاتـــقـــاه
فـــنـــعـــم الـــمـــطـــيـــة والـــراكـــبـــان
ولـــيـــدان أمّـــهـــمـــا بـــرّة
حـــصـــان مـــطـــهّـــرة لـــلـــحـــســـان
وشـــيـــخـــهـــمـــا ابـــن أبـــي طـــالـــب
فـــنـــعـــم الـــولـــيـــدان والـــوالـــدان
خـــلـــيـــلـــي لا تـــرجـــيـــا واعـــلـــمـــا
بـــأن الـــهـــدى غـــيـــر مـــا تـــزعـــمـــان(١)

ورسول الله ﷺ إلى الإنسانية جمعاء محمد بن عبدالله ﷺ بهذا العمل العبادي كان يلفت أنظار كل من يمت بصلة إلى الإسلام ويدّعي الارتباط برسول الله ﷺ أن الحسن عليه السلام له مقامه العالي عند الله، وما يقوم به النبي ﷺ إنما هو الإسلام يجسده في وجوده وعمله وتقريره وإمضائه، فهو لا ينطق عن الهوى كما يقول عزّ من قائل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾(٢) ولا يقول ويتقوّل عن الله ما لم يقله الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾(٣).

(١) ترجمة ريحانة رسول الله ﷺ، الإمام الحسن ـ من تاريخ دمشق لابن عساكر، ص٩٤.
(٢) النجم: ٣ ـ ٤.
(٣) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.

ورب سائل يقول: ألهذا الحدّ يكون تهديد الله لرسوله الذي يمتدح فيه أخلاقه فيقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(١) أليس في الأمر الكثير من الأخذ والعذاب وتقطيع نياط القلب؟ هذا إذا اختلق عن الله وافترى عنه، رغم أن الله اطّلع على قلوب العباد. فلم يرَ مثل قلب النبي مستودعاً للأسرار وساطعاً بالأنوار، لكن لِما هذا الوعيد؟ والجواب وبإيجاز: إن دين الله لا يقبل التحريف، ولا بدّ من إيصاله للناس كما هو، بعيداً عن الهوى والعصبية والمزاجية، والله تعالى يعرف أن الرسول الأكرم لا يمكن أن يتقوَّل عن الوحي ما لم تقله السماء، لكنه سبحانه يريد إخبار العالم كله أن الحبيب المصطفى قد بلّغ الرسالة كاملة دون أي شائبة، أو علاقة خاصة على حساب الدين والمبدأ.

والله اللطيف الخبير، يريد بهذا أن يقول للناس: إن كلمات النبي.. وصاياه.. مدحه وثناءه.. قربه وبُعده.. إنما هي أخبار الوحي ورسالة السماء وقد مَقَت وَكَرِه لعبده المؤمن أن يكون الأب والابن والأخ والزوجة، أحب إليه من الله ورسوله فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٢) فكيف يكون حال الرسول الأكرم ﷺ الذي كان يقول ﷺ: «إن لنا

(١) القلم: ٤.

(٢) التوبة: ٢٤.

مع الله حالات لا يسعها ملك مقرّب ولا نبي مرسل»[(١)] فإذا كان المؤمن لا يكون كذلك إلا بعد أن يؤثر المصلحة العليا على مصالحه الشخصية، على ماله وولده، على تجارته ومساكنه، على أمه وأبيه، فالحال هكذا مع الرسول صلى الله عليه وآله الذي كان يلحّ بالطلب والرجاء بين يدي ربه «اللهمّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»، فهل يعقل أن يخرج النبي عن الإطار المقرر، وعن المسلك والمسار الرباني، والمنهج والسلوك المنضبط بالكامل حتى على مستوى حبه وبغضه؟.

هذا كله يؤكد على ضرورة إلقاء الضوء وتسليطه على بعض كلمات الرسول صلى الله عليه وآله بحق ولده الحسن عليه السلام بشكل خاص، وإن كانت الكلمات النبوية كانت دائمة الإحاطة بحق أهل البيت كلهم عليهم السلام.

* الإمام الحسن عليه السلام في القرآن الكريم

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[(٢)].

مما لا شك فيه أن الإمام المجتبى عليه السلام هو واحد من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وهو من تلك الثلة المباركة الطاهرة الذين يشكّلون

---

(١) الحكومة الإسلامية، الإمام الخميني، ص٥٢، ط. المكتبة الإسلامية الكبرى.
(٢) الأنبياء: ٧٣.

صفوة البشرية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن الأمناء على تبليغ الرسالة وتجسيدها واقعاً عملياً مترجماً في أفعالهم وأقوالهم.

وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي امتدحتهم بالتلميح تارة وبالتصريح أخرى، نذكر بعضاً من تلك الآيات التي توضح وبجلاء مقامهم عند الله سبحانه.

ـ آية التطهير:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]، لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ووضع عليهم كساءً وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطّهرهم تطهيراً»[2] فاختصاص النبي صلى الله عليه وآله آية التطهير بالخمسة الطاهرين وعدم إذنه من دخول غيرهم في هذه الفضيلة والمنقبة، فيه من الدلالة على منزلة أصحاب الكساء ومدى اهتمام الله بهم (سلام الله عليهم)، وقد قال العلامة المجلسي: «ذهب أصحابنا وكثير من الجمهور إلى أنها نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لا يشاركهم فيها غيرهم»[3].

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير: اختلفت الأقوال في أهل البيت، والأولى أن يقال: هم أولاده وأزواجه، والحسن والحسين

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) تفسير جامع البيان للطبري، ج٢٢ ص٥.

(٣) بحار الأنوار، ج٣٥ ص٢٢٥.

منهم، وعلي منهم، لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بيت النبي صلى الله عليه وآله وملازمته للنبي[١].

وقال ابن حجر في صواعقه: إن أكثر المفسّرين على أن الآية (آية التطهير) نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام لتذكير ضمير عنكم[٢].

وقال العلامة التستري في إحقاق الحق: أجمع المفسّرون وروى الجمهور كأحمد بن حنبل وغيره، أن الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ....﴾ نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام[٣].

وفي ينابيع المودة والبحار عن مسلم في صحيحه، وابن الأثير في جامع الأصول، في حرف الفاء، وصاحب المشكاة في الفصل الأول من باب فضائل أهل البيت عليهم السلام عن عائشة، قالت: خرج النبي صلى الله عليه وآله ذات غداة عليه مرط[*] مرجّل[**] من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله فيه، ثم جاء الحسين فأدخله فيه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها فيه، ثم جاء علي فأدخله فيه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٤].

---

(١) التفسير الكبير، ج٦ ص٦١٥.

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر العسقلاني، ص١٤١، طبع مصر.

(٣) الإحقاق، ج٢ ص٥٠٢؛ وفي تعليقه الإحقاق يقول المرجع آية الله النجفي المرعشي رحمه الله: لا يخفى أن شمول الآية الكريمة لعلي وفاطمة والحسين عليه السلام متفق عليه بين الفريقين، وإنما الخلاف من العامة فهو في دخول زوجاته صلى الله عليه وآله تمسكاً بروايات ضعيفة الإسناد غير ظاهرة الدلالة.

(*) المرط: يكون من صوف أو من خز أو من غيره وهو ثوب غير مخيط.

(**) المرجل: هو الذي نقش فيه صور ورسوم الرجال، والمرجل هو برد من برود اليمن.

(٤) ينابيع المودة، ص٢٢٩؛ وفي البحار، ج٣٥ ص٣٢٦.

وفي البحار: لما أجمع الحسن بن علي عليه السلام على صلح معاوية خرج حتى لقيه، فلمّا اجتمعا قام معاوية خطيباً، ثمّ قام الحسن عليه السلام فخطب إلى أن قال: «وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ...﴾ الآية، فلما نزلت آية التطهير جمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله أنا وأخي وأمي وأبي فجلّلنا ونفسه في كساءٍ لأُمّ سلمة، خيبري، وذلك في حجرتها وفي يومها، فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، وهؤلاء أهلي وعترتي، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فقالت أُمّ سلمة (رض): أدخل معهم، يا رسول الله؟ قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: يرحمك الله، أنت على خير وإلى خير، وما أرضاني عنك ولكنها خاصة لي ولهم. ثم مكث رسول الله بعد ذلك بقية عمره حتى قبضه الله إليه، يأتينا في كل يوم عند طلوع الفجر فيقول: «الصلاة يرحمكم الله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[١].

ـ آية المباهلة:

قَدِمَ في السنة العاشرة للهجرة النبوية، وفد من بلدة نجران وكان أهلها نصارى وفدوا على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالمدينة، وكانوا ثلاثين وقيل ستين راكباً، وعلى رأسهم أبو حارثة أسقف نجران، قدموا على النبي صلى الله عليه وآله لمجادلته في شأن النبي عيسى عليه السلام، ودخلوا المسجد النبوي وهم يلبسون الحرير، متختّمين بخواتم الذهب، ولما جاء وقت صلاتهم استقبلوا المشرق وصلوا صلاتهم، فعرض عليهم

---

(١) البحار، ج١٠ ص١٣٨.

النبي ﷺ الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وقالوا: قد كنّا مسلمين قبلك. فقال ﷺ: كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث:

١ ـ عبادتكم الصليب.

٢ ـ أكلكم الخنزير.

٣ ـ وزعمكم أن لله ولد.

فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا، وتزعم أنّه عبد؟ فقال ﷺ: أجل هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم، فغضبوا وقالوا: فهل رأيت مثل عيسى أو أُنبئت به؟ فسكت ﷺ ثم خرجوا من عنده.

فنزل جبرائيل وقال له: فقل لهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

فقال رسول الله ﷺ لهم: «إن الله أمرني إن لم تنقادوا للإسلام أن أباهلكم»[*] فقالوا له: يا أبا القاسم، نرجع فننظر في أمرنا، ثم نأتيك، فلما أتى القوم في الغد. وأقبل الرسول ﷺ ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي عليهم السلام وقال: اللهم هؤلاء أهلي، عند ذلك

---

(١) المائدة: ١٧.

(٢) آل عمران: ٥٩ ـ ٦١.

(*) المباهلة: هي الدعوة والاجتهاد في الدعاء باللعنة على الكاذبين.

قال لهم الأسقف: إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل لهم جبلاً لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني، فقالوا: لا نباهلك»[١] وقد ذهب جلّ أهل القبلة على أن النبي صلى الله عليه وآله لم يدع للمباهلة من النساء سوى فاطمة الزهراء عليها السلام ومن الأبناء سوى سبطيه الحسن والحسين عليهما السلام ومن الأنفس إلّا أخاه الذي كان بمنزلة هارون من موسى عليه السلام فهؤلاء أصحاب هذه الآية، وقد أجمع المفسرون على ذلك، وقد قال الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين: أجمع أهل القبلة حتى الخوارج منهم على أن النبي صلى الله عليه وآله لم يدع للمباهلة من النساء سوى بضعته الزهراء، ومن الأبناء سوى سبطيه وريحانتيه من الدنيا الحسن والحسين. ومن الأنفس إلا أخاه، فهؤلاء أصحاب الآية التي لا يمكن جحودها، لم يشاركهم فيها أحد من العالمين، كما هو بديهي لكل من ألمّ بتاريخ المسلمين وبهم خاصة نزلت لا بسواهم[٢].

وقال الشعبي: قال جابر: «وأنفسنا وأنفسكم» رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي، و«نساءنا ونساءكم» فاطمة، «وأبناءنا وأبناءكم» الحسن والحسين عليهما السلام[٣].

وروى مسلم بن الحجّاج النيسابوري في صحيحه قال: أمر

---

(١) الفصول المهمة في حياة أبي الأئمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ج٢ ص٨٧، تأليف السيد علي أصغر ناظم زادة القمي ـ تراجع السيرة الحلبية بهامشه، السيرة النبوية، ج٣ ص٤١١ وبهامشه ج٤ ص٤.

(٢) الفصول المهمة، ص١٩٧.

(٣) فرائد السمطين، ج٢ ص٢٣، حديث ٣٦٥.

معاوية بن أبي سفيان سعداً بن أبي وقاص[١]. فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب.

فقال: أمّا ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ له رسول الله صلى الله عليه وآله فلن أسبه لئن تكون لي واحدة أحبّ إليّ من حمر النعم[*] - إلى أن قال - ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: اللهم هؤلاء أهلي»[٢].

- آية المودة:

لما نزل قول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٣]. قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين وجبت علينا

---

(١) ربما في النص بعض الكلمات الناقصة كأن يقال «أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً بسب أبي تراب».

(*) حمر النعم: هي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال النعم وأقواها وأجلدها، فجعلت كناية عن خير الدنيا والآخرة، كما في مجمع البحرين.

(٢) صحيح مسلم بن الحجاج النيسابوري، ج٧ ص١٢٠ - نقلاً عن الإحقاق ج٣ ص٤٦؛ وفي رواية مسلم والترمذي وغيرهما، عن سعد، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ﴾، الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، وقال: «اللهم هؤلاء أهلي» سنن الترمذي، ج٥ ص٢١٠، ح٢٩٩٩.
من أعجب العجب أن يدّعي محمد عبده أن مصادر هذه الروايات الشيعة، حتى استطاعوا ترويجها عند أهل السنة، ولا نعلم على الإطلاق عن هذه القدرة العجيبة للشيعة، وهم على مرّ التاريخ لم ينصفهم التاريخ، وهل استطاع الشيعة أن يتدخلوا في صحيحي مسلم والترمذي؟ وهل استطاعوا إقحام رواياتهم في كتب الطبري وأبي الفداء وابن كثير والسيوطي! فلو صح هذا فهل ستبقى السنّة عند أهل السنة على حالها؟ من أراد الإطّلاع على كتب السنة حول آية المباهلة. فليراجع: إحقاق الحق، ج٣ ص٤٦.

(٣) الشورى: ٢٣.

مودّتهم؟ قال ﷺ: «علي وفاطمة وابناهما، وإنّ الله تعالى جعل أجري عليكم المودّة في أهل بيتي وإني سائلكم غداً عنهم»[(١)]. وقد نزلت الآية الكريمة بعد أن استقر الوضع الإسلامي في المدينة المنورة، وقد جاء جمع من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله لقد آويناكم ونصرناكم ونحن نضع أموالنا بين أيديكم، فهم كانوا في صدد أن يعوّضوا الرسول ﷺ ما تحمله من متاعب ومشاق في سبيل الله، لذا نزلت الآية التي توضح إن أجر النبي الوحيد هو المودّة في القربى. وروى الجمهور في الصحيحين وأحمد بن حنبل في مسنده، والثعلبي في تفسيره، عن ابن عباس، قال: لمّا نزلت (قل لا أسألكم) الآية، قالوا: يا رسول الله، مَن قرابتك الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما» ووجوب المودّة يستلزم وجوب الطاعة[(٢)].

ونقل عن الإمام الشافعي في وجوب إطاعتهم عليهم السلام شعراً وهو قوله:

يا أهل بيت رسول الله حبّكم
فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنّكم
من لم يصلِّ عليكم لا صلاة له[(٣)]

(١) ينابيع المودة، ص١٩٤.
(٢) الإحقاق، ج٣ ص٢.
(٣) مسند أحمد بن حنبل، ج٦ ص٣٢٣.

ـ آيات الأبرار:

ذكر الطبرسي رحمه الله في تفسير مجمع البيان، قال: روى الخاصّ والعام، أنّ الآيات من هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[(١)] نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجارية لهم تسمّى فضّة، وهو المرويّ عن ابن عباس ومجاهد[(٢)]، وقال الشيخ الطوسي في تفسيره: وقد روت الخاصة والعامّة أن هذه الآيات نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فإنهم آثروا المسكين واليتيم والأسير ثلاث ليال على إفطارهم، وطوَوْا عليهم السلام ولم يفطروا على شيء من الطعام، فأثنى الله عليهم هذا الثناء والحسن، وأنزل فيهم هذه السورة، وكفاك بذلك فضيلة جزيلة تُتلى إلى يوم القيامة[(٣)].

وعلى أي حال فالقصة طويلة نحيل القارئ الكريم إلى قرائتها في كتب التفسير، ونوجز الكلام هنا إن الذين رووا الحديث من العامّة بلغوا أكثر من ثلاثين من علمائهم، وذكر علماء الإمامية أن سورة الدهر نزلت في علي وفاطمة والحسنين عليهم السلام[(٤)]. فيا ليتنا نقرأ

---

(١) الدهر: ٥ ـ ١٢.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج١٠ ص٤٠٤.

(٣) تفسير التبيان، ج١٠ ص٢١١.

(٤) من أراد المزيد من المعرفة والاطلاع على ما في كتب أهل العامة فليراجع الإحقاق، ج٢، ص١٥٧ إلى ١٧٠؛ والغدير، ج٣، ص١٠٧ إلى ١١١.

في كتاب الله قراءة تجعلنا مطيعين مذعنين لا متكبرين مستكبرين، ويا ليتنا نتعامل مع كتاب الله على أنه الحق ونحن روّاده وطلابه. وليس على طريقة الكثير من المسلمين الذين يريدون استجرار الآيات لمصالحهم ولأربابهم دون أن يعوا المضامين الحقيقية له. وهذه من أكبر مشاكلنا في أيامنا الحاضرة مع القرآن الكريم حيث يلوي الكثير منهم مقاصد الآيات كما يلوي عنق الشاة لذبحها.

نقول هذا ونحن نتلمّس ما في كتاب الله العزيز الحكيم، ونتعرف على سبب نزول الآيات الكريمة بحق أهل البيت عليهم السلام وبحق إمامنا الحسن الزكي عليه السلام، وكلنا أمل ورجاء بأن الباحث والقارئ سيدرك قرار السماء الذي أنزله الله على قلب رسوله صلى الله عليه وآله وبلّغه محمد المصطفى صلى الله عليه وآله ـ فماذا قال النبي بحق سبطه المجتبى عليه السلام؟.

* المجتبى على لسان المصطفى

مما لا شك فيه ولا ريب حياله، أن كلمات الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله لم تكن في يوم ولا للحظة أسيرة عواطف شخصية ورغبات بشرية، وهو النبي المسدّد والرسول المعصوم الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه. وإن مدح النبي وذمّه ما هو إلا مدح الله وذمّه.

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: أخذ النبي صلى الله عليه وآله بيد الحسن والحسين عليهما السلام فقال: من أحبّني وهذين وأباهما وأمّهما كان معي في درجتي يوم القيامة[١].

---

(١) الاستيعاب، ج٢، ص٣٦٩.

وقد حدّثت عائشة أن النبي ﷺ كان يأخذ الحسن فيضمه إليه فيقول: «اللهم إن هذا ابني وأنا أُحبّه وأحب من يحبه»[(١)]، وقال ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسن»[(٢)].

وروى أسامة بن زيد قال: «طرقت النبي ﷺ ذات ليلة في بعض الحاجة فخرج النبي ﷺ وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو؟ فلما فرغت من حاجتي، قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ قال فكشف فإذا هو حسن وحسين على وركيه، فقال: (هذان ابناي، وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما»[(٣)].

وعن الرسول ﷺ: «أحبّ أهل بيتي الحسن والحسين عليهما السلام»[(٤)].

وقال ﷺ: «والحسن والحسين سبطان من الأسباط»[(٥)].

وروى زين بن أرقم أن رسول الله ﷺ قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام: «أنا حرب لمن حاربتم، وسلم لمن سالمتم»[(٦)].

وروى جابر، قال رسول الله ﷺ ذات يوم بعرفات «ادنو مني يا

---

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر للسيد هاشم معروف الحسني، ج١، ص٥١٤.

(٢) فضائل الأصحاب، ص١٦٥؛ البداية والنهاية، ٨/ ٣٥.

(٣) صحيح الترمذي، ٢/ ٢٤٠؛ كنز العمال، ٧/ ١١٠؛ وذكر ابن حجر في صواعقه آخر الحديث، ص١١٤.

(٤) تاريخ ابن عساكر، ج٤ ص٢٠٥؛ الغدير، ج٧ ص١٢٤.

(٥) الصواعق المحرقة، ص١١٤؛ كنز العمال، ٦/ ٢٢١.

(٦) سنن ابن ماجة، ص١٤؛ ابن كثير في البداية والنهاية، كنز العمال، ٧/ ١٠٢.

علي، خُلقت أنا وأنت من شجرة أنا أصلها وأنت فرعها، والحسن والحسين أغصانها، فمن تعلّق بغصنٍ منها أدخله الله الجنة»[١].

ومما اشتهر بين المسلمين قوله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا»[٢].

وقد قيل للنبي صلى الله عليه وآله: يا رسول الله إنك لتصنع مع الحسن ما لا تصنعه مع غيره، فقال: «الحسن ريحانتي من الدنيا»[٣]، وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال بحق الحسنين عليهما السلام «أما الحسن فإن له هيبتي وسؤددي، وأما الحسين فله جودي وشجاعتي»[٤].

وطالما روى عن نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله العديدة من الرواة، الذين أجمعوا على أن رسول الله صلى الله عليه وآله كرّر مراراً عبارته المشهورة عن الإمامين الحسنين عليهما السلام بقوله: «الحسن والحسين ابناي من أحبهما أحبني، ومن أحبني أحبه الله، ومن أحبه الله أدخله الجنة، ومن أبغضهما أبغضني، ومن أبغضني أبغضه الله، ومن أبغضه الله أدخله النار»[٥]. وفي حديث عنه صلى الله عليه وآله يقول فيه عن الإمام الحسن عليه السلام «هو سيد شباب أهل الجنة، وحجّة الله على الأمّة، أمره أمري، وقوله قولي، من تبعه فإنه مني، ومن عصاه فإنه ليس مني»[٦]، وفي نص

---

(١) مسند أحمد، ١/ ٧٧.

(٢) البحار، ج١٠ ص٧٨؛ وجاء ذلك في نزهة المجالس، ج٢ ص١٨٤.

(٣) الاستيعاب، ج٢ ص٣٦٩.

(٤) سيرة الأئمة الاثني عشر للسيد هاشم معروف الحسني، ج١ ص٥١٤.

(٥) مستدرك الحاكم، ج٣ ص١٦٦؛ وهناك بعض النصوص الأخرى والتي وردت بتغيير طفيف.

(٦) فرائد السمطين، ج٢ ص٣٥؛ أمالي الصدوق، ص١٠١.

آخر عن أنس بن مالك قال دخل الحسن على النبي ﷺ فأردت أن أميطه عنه (أي أبعده) فقال ﷺ: «ويحك يا أنس، دع ابني، وثمرة فؤادي، فإن من آذى هذا آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»(١).

وروى المدائني عن زيد بن أرقم قال: خرج الحسن عليه السلام وهو صغير وعليه برد، وكان الرسول ﷺ يخطب فعثر فسقط فقطع رسول الله ﷺ الخطبة ونزل مسرعاً إليه وقد حمله الناس فسلمه وأخذه على كتفه، وقال: «إن الولد لفتنة... ثم صعد فأتمّ الخطبة»(٢).

وقال المدائني: وكان الحسن عليه السلام أكبر وُلد علي وكان سيداً سخياً حليماً خطيباً وكان رسول الله ﷺ يحبه. سابق يوماً بين الحسين وبينه فسبق الحسن فأجلسه على فخذه اليمنى ثم أجلس الحسين على الفخذ اليسرى، فقيل له: يا رسول الله أيهما أحبّ إليك؟ فقال: أقول كما قال إبراهيم أبونا وقيل له أي ابنيك أحبّ إليك؟ قال: أكبرهما»(٣).

وقد كان ابن عباس لما له من الفضل والتقدير، كان إذا ركب الحسنان أخذ في ركابهما لأنه يعرف جيداً مقامهما عند رسول الله ﷺ، وكان يعدّ ذلك من نعم الله عليه ومن توفيقاته له. وكان الحسنان إذا طافا في بيت الله الحرام يكاد الناس أن يحطمونهما من كثرة الازدحام عليهما والاهتمام بهما، وصعد ﷺ

---

(١) سنن ابن ماجة، ج١ ص٥١.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مجلد ٤، ص١٠، دار الهدى الوطنية ـ بيروت.

(٣) المصدر السابق.

ذات يوم على المنبر ليخطب، فجاء الحسن فصعد المنبر، فوضعه الرسول على رقبته حتى كان يرى بريق خلخاليه من أقصى المسجد، وهما يلمعان على صدر الرسول، ولم يزل على هذه الحالة حتى فرغ ﷺ من خطبته[١].

وقد روى البيهقي أن معاوية ذات يوم قال في محضر أشراف الناس من قريش وغيرهم: أخبروني بخير الناس أباً وأماً وعماً وعمة، خالاً وخالة وجدّاً وجدّة، فقام مالك بن العجلان، فأومأ إلى الحسن فقال: «ها هو ذا أبوه علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعمه جعفر الطيار في الجنان، وعمته أم هانئ بنت ابي طالب، وخاله القاسم بن رسول الله، وخالته بنت رسول الله زينب، وجده رسول الله، وجدته خديجة بنت خويلد، فسكت القوم»[٢].

يقول العالم الكبير المرحوم محمد حسين آل كاشف الغطاء بعد استعراضه لحب النبي للإمامين الحسنين عليهما السلام وشغفه بهما «إن هذا الشغف والحب اللامتناهي ليس لكونهما ابني بنته فحسب، فإن هذه النسبة لا تستوجب كل هذا العطف الخارق لسياج العرف والعادة، ولكن لا شك أن هناك أسراراً وأسباباً هي أدق وأعمق، أسرار روحية هي فوق هذه الوشايج الجسمية، فهل ترى معي أن رسول الله ﷺ لعله ارتفع عن أفق الزمان، وأشرق بروحيته المقدسة من نافذة الدهر، وأطل على صحيفة التكوين من ألفه إلى يائه، فنظر

(١) البحار، ج٦ ص٥٨.
(٢) البيهقي، ج١ ص٦٢.

إلى الماضي والحاضر والآتي نظرة واحدة، رأى الحوادث الآتية ممثلة بعينها في صحيفة الوجود لا بصورها على شاشة التمثيل، رأى ما كابد ولداه من الدفاع عن دينه، رأى تجرع الحسن السم من معاوية مراراً حتى قضى بالمرة الأخيرة التي تقيأ بها كبده قطعة وقطعة، ثم ضرب الحسين المثل الأعلى في التضحية.. إن الحسن والحسين نور واحد لا يفضل أحدهما على الآخر قدر عرض شعرة، كل واحد منهما قد قام بواجبه»[1].

إذاً فالحسن والحسين عليهما السلام هما وصية نبينا الأكرم، وهو الذي قال عنهما «هما ولداي وريحانتاي» فما أعظم مقامهما عليهما السلام وما أرفع شأنهما عند الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله الذي يعكس قرار السماء.

* لو عرفت الأمة الأئمّة عليهم السلام!

لو عرفت الأمّة حق أئمّتنا عليهم السلام لوفّرت على نفسها عناء البحث في تفاصيل تاريخية كثيرة. لو أدركت الأمّة واجبها حيال أئمّتنا لما كنا غرقنا في سيل من الفتن والحروب.

لو استجابت الأمّة للحياة الإنسانية التي دعانا إليها الله ورسوله، لما كانت الأمّة مصابة بأعراض كثيرة وأمراض تقتل فيها الروح الخلاّقة.

لو علمت الأمّة أن نجاتها هي في سفينة أهل البيت عليهم السلام لوفّرت على نفسها عناء التخبّط في الأنانيات.

---

(١) من كتاب سيرة الإمام الحسن، الشيخ شريف القرشي، ج٢ ص٢٢ ـ ٢٣.

عن الرسول صلى الله عليه وآله: «إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها هلك»[1].

لو علمت الأمّة مدى خطورة المتسلّلين إلى صفوفها وما أحدثوه في تاريخنا لانتفضت وقامت وصرخت مندّدة بأولئك المندسِّين، ولأعلنت حرباً ضروساً عليهم، لأنهم كانوا ولا يزالون قطّاع طريق الله وأحجار عثرة أمام تقدح الكادحين إلى ربهم.

لو سمعت الأمّة بأذان القلب حقيقة محمد صلى الله عليه وآله وما أوصى، وما قال، ومَن مدح، ومن ذمّ؟ لكانت أمّتنا اليوم هي الأمّة السائدة في الكون، ولما كان إسلامنا اليوم يقدّمه مجرمون سفّاكون للدم، يقطعون الرؤوس ويأكلون الأكباد باسم رسول الإنسانية؟

ولو عرف هؤلاء مَن هو محمد، ولو أدركوا شيئاً من رحمة محمد، نبي الرحمة، لما كان كل هذا التمادي بالغيّ والإفساد.

لو عرفوا، ولو عرفوا... آهٍ لو عرفوا محمداً كما هو..! لوفّروا على أمتنا عناء الجهل، ولما كانت حالة العداء لأهل البيت كما كانت، ولما كان الرسول يُعذَّب كما عُذِّب، ويُضطهد كما اضطهد، ولما كان الأمير عليه السلام يعاني ما عاناه من قهر وإبعاد وإجلاس في بيته خمس وعشرون عاماً، ولما كانت الزهراء عليها السلام تغادر الدنيا وهي غاضبة على شخصيات قُدِّست من لا شيء.

إلا أنها عليها السلام رسمت علامات استفهام لكل لبيب عاقل حين أوصت أن لا يشهد جنازتها من آذاها، وحين أوصت أن تدفن ليلاً

---

(١) ابن حجر، الصواعق المحرقة، ص١٨٦، ط. القاهرة.

وسراً، وأن يُخفى قبرها. إن إخفاء القبر يخفي في طياته سيرة حياة مريرة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وهو علامة تعجّب وصدمة نفسية لمن يعي معنى الصدمة ومعنى الاستفهام والتعجّب. لقد ماتت فاطمة وهي حزينة غاضبة، ورحلت متحسّرة لحال أمّة أبيها.. رحلت وهي تقرأ مستقبل ولديها الحسنين عليهما السلام من خلال الواقع الصعب الذي عاشته وذاقت من كؤوسه المُرَّة. وما سيرة الحسن ومعاناته عليه السلام إلا مفردة واحدة من تلكم المفردات.

نعم، لقد رحلت فاطمة بضعة محمد صلى الله عليه وآله عن هذه الدنيا وهي حزينة لحال أمّتنا التي لم تستفد من وجود رسول الله صلى الله عليه وآله.

حزينة لحالة الخيانة التي وصلت إليها أمّتنا، خيانة الأمّة لعظمائها.. وهذا مؤشّر لما تكون حالة الأمّة سواء مع أمير المؤمنين عليه السلام الذي ذاق القهر والعذاب أَم مع الإمام الحسن عليه السلام وأخيه الحسين عليه السلام.

ويمكننا تلخيص المشهد بتسليط الضوء على أصحاب الكساء الذين امتدحهم رسول الله صلى الله عليه وآله، فيكف تعاملت معهم الأمّة في الوقت الذي قال فيهم الرسول وعنهم صلى الله عليه وآله ما قال في حديث هو في غاية المتانة، وهو من الأحاديث المتواترة وفيه روايات جمّة تزيد على سبعين رواية من طرق أهل السنّة.. والحديث طويل اقتطع منه النص النبوي لما اكتمل أصحاب الكساء وهم محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. فقال صلى الله عليه وآله مخاطباً ربّ العزّة والجلال: «اللهم إنّ هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي وحامّتي، لحمهم لحمي ودمهم دمي، يؤلمني ما يؤلمهم ويحزنني ما يحزنهم، أنا حربٌ لمن

حاربهم، وسلمٌ لمن سالمهم، وعدوٌ لمن عاداهم ومحبٌ لمن أحبهم، إنّهم منّي وأنا منهم، فاجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك وغفرانك ورضوانك عليَّ وعليهم وأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[١].

إن التأمّل في مضامين هذا الحديث النبوي والمفردات التالية: «خاصتي، حامّتي، لحمهم لحمي، دمهم دمي، يؤلمني ما يؤلمهم، حرب لمن حاربهم، سلم لمن سالمهم، عدو لمن عاداهم» يجعلنا أمام يقين واضح أن من آذاهم وحاربهم وقاتلهم، فهو ينتمي إلى مشروع خطير يشكّل المشروع المضادّ لرسالة السماء.

من يتأمل في كلمات النبي بحق أهل البيت، وكيف تعاملت الأمّة معهم يدرك فعلاً أن البون شاسع، وأن إسلاماً محرفاً لا يريد الاعتراف بحقهم هو ليس إسلام محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وكأن النبي قال لأمّته اقتلوا أهل بيتي تحت كل حجر ومدر. وللأسف الشديد، وهذا يذكرني بمقالة أحد العارفين الذي استشعر الزهد في الدنيا وأنها دار فناء صار يمشي في الأسواق وهو يردّد: أين الزاهدون في الدنيا، والراغبون في الآخرة؟ فلم يعثر على ضالّته. وفي آخر النهار أتاه أحدهم قائلاً له: يا هذا اقلب مقولتك، أي اعكسها، وضع يدك على من تشاء. وهكذا فعلت أمّة النبي مع الأئمة الأطهار فهي بدل الإطاعة عصتهم، وبدل السلم حاربتهم، وبدل عداوة من عاداهم سالمتهم.. فعذراً يا رسول الله على هذا المستوى لأمّتك!..

---

(١) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي. عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن فاطمة الزهراء عليها السلام.

* الإمام عليه السلام في ميدان العلم

كما هو إمامنا الإمام علي عليه السلام في مجالات المعرفة والعلوم حتى عبّر عنه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه باب مدينة علمه، كما قال صلى الله عليه وآله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأتها من بابها»[1].

والإمام الحسن عليه السلام هو ابن أبيه، وهو سِرُّه، وقد نهل من علومه وعاش الأجواء المعرفية سواء في السنوات التي أدرك فيها الرسول صلى الله عليه وآله وإن كانت قليلة أم كانت في عهد الأمير عليه السلام. وقد بيّن المرتضى عليه السلام صورة ولده العلمية في العديد من المحطات، حيث كان يُسأل العديد من الأسئلة وفي عدة محطات وكان يوجِّه الحسن عليه السلام للتصدّي لها، وكانت أجوبته دقيقة وحكيمة وكان يُذهل كل من حضر المجلس. نذكر هنا بعضاً من تلك الحوارات والاحتجاجات.

فقد روى محمد بن قيس ابو نصير الأسدي وهو من أصحاب الإمام الصادق ومن ثقاته عليه السلام، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال:

«بينا أمير المؤمنين عليه السلام في الرحبة والناس عليه متراكمون، فمن بين مستفتٍ ومن بين مستعدٍ، إذ قام إليه رجل فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، مَنْ أنت؟ قال: أنا رجلٌ من رعيتك وأهل بلادك.

---

(١) المستدرك على الصحيحين، ج٣ ص١٢٦؛ وذكره الحاكم في المستدرك وعلّق عليه، هذا حديث صحيح الإسناد.

فقال له: ما أنت برعيتي وأهل بلادي، ولو سلّمت عليّ يوماً واحداً ما خفيت عليّ. فقال: الأمان يا أمير المؤمنين. أنا رجل بعثني إليك معاوية متغفِّلاً لك، أسألك عن شيء بعث به ابن الأصفر إليه، وقال له: إن كنت أحق بهذا الأمر والخليفة بعد محمد فأجبني عما أسألك، فإنك إن فعلت ذلك اتبعتك، وبعثت إليك بالجائزة، فلم يكن عنده جواب وقد أقلقه فبعثني إليك لأسألك عنها.

فقال: أمير المؤمنين عليه السلام: قاتل الله ابن آكلة الأكباد، وما أضلّه وأعماه ومَن معه، حكم الله بيني وبين هذه الأمة، قطعوا رحمي، وأضاعوا أيامي، ودفعوا حقي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي، يا قنبر عليَّ بالحسن والحسين ومحمد[1]، فأُحضروا. فقال: يا شامي هذان ابنا رسول الله، وهذا ابني، فاسأل أيهم أحببت. فقال: اسأل ذا الوفرة يعني الحسن عليه السلام.

فقال له الحسن عليه السلام: سلني عما بدا لك. فقال الشامي: كم بين الحق والباطل؟ وكم بين السماء والأرض؟ وكم بين المشرق والمغرب؟ وما قوس قزح؟... وما عشرة أشياء بعضها أشد من بعض؟

فقال الحسن عليه السلام: «بين الحق والباطل أربع أصابع، فما رأيته بعينك فهو الحق، وقد تسمع بأذنيك باطلاً كثيراً». فقال الشامي: صدقت.

---

(١) محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين عليه السلام.

قال: «وبين السماء والأرض دعوة المظلوم، ومَدّ البصر، فمن قال لك غير هذا فكذِّبه»[1]. قال: صدقت يا بن رسول الله.

قال: وبين المشرق والمغرب مسيرة يوم للشمس، تنظر إليها حين تطلع من مشرقها، وتنظر إليها حين تغيب في مغربها. قال: صدقت. فما قوس قزح؟

قال: «ويحك لا تقل قوس قزح فإنّ قزح اسم الشيطان، وهو قوس الله، وهذه علامة الخصب، وأمان لأهل الأرض من الغرق.

وأما عشرة أشياء بعضها: أشد من بعض فأشد شيء خلقه الله الحجر، وأشد من الحجر الحديد يقطع به الحجر، وأشد من الحديد النار تذيب الحديد، وأشد من النار الماء يطفئ النار، وأشد من الماء السحاب يحمل الماء، وأشد من السحاب الريح تحمل السحاب، وأشد من الريح الملك الذي يرسلها، وأشد من الملك ملك الموت الذي يُميت المَلك، وأشدّ من ملك الموت الموت الذي يميت ملك الموت، وأشدُّ من الموت أمر الله الذي يُميت الموت».

فقال الشامي: أشهد أنك ابن رسول الله حقاً، وأن علياً أولى بالأمر من معاوية. ثم كتب هذه الجوابات وذهب بها إلى معاوية، فبعثها إلى ابن الأصفر.

فكتب إليه ابن الأصفر: يا معاوية لم تكلمني بغير كلامك؟

(١) لا يمكن تحديد المسافة لأنها متبدّلة متغيرة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وتجيبني بغير جوابك؟ أقسم بالمسيح ما هذا جوابك، وما هو إلا من معدن النبوة، وموضع الرسالة، وأما أنت فلو سألتني درهماً ما أعطيتك»[١].

وقد رُوي عنه عليه السلام في صدد احتجاجه على من أنكر فضله وفضل أبيه بحضور معاوية وفي مجلسه، والراوي هو الشعبي وأبو مخنف ويزيد بن أبي حبيب المصري[٢].

والحديث طويل نقتطف منه بعض النقاط البارزة. وكان في مجلس معاوية عمرو بن العاص، وعتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، والمغيرة بن أبي شعبة. وقد أصرّوا على معاوية أن يرسل خلف الحسن عليه السلام. فقال لهم معاوية: أني أخاف أن يقلدكم قلايد يبقى عليكم عارها حتى يدخلكم قبوركم، والله ما رأيته قط إلا كرهت جنابه، وهبت عتابه، وإنّي إنْ بعثت إليه لأُنصفنّه منكم. لما وَصَلَ رسولُ معاوية إلى الإمام عليه السلام، سأل الإمام: مَن عنده؟ فأجابه وسمّى كلاً منهم باسمه.

فقال الحسن عليه السلام: «ما لهم خرَّ عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون»[٣]. ثم قال: «اللهم إني أدرأُ بك في نحورهم، وأعوذُ بك من شرورهم، وأستعينُ بكَ عليهم،

---

(١) الاحتجاج، الطبرسي، ص٢٦٩، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

(٢) يزيد بن أبي حبيب، كان مفتي أهل مصر في زمانه، وكان أول من أظهر العلم في مصر والحديث عن الحلال والحرام.

(٣) سورة النحل، الآية: ٢٦. في الآية: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فاكفِنيهم بما شئت، وأنّى شئت، من حولك وقوّتك يا أرحم الراحمين».

وقال لرسول معاوية: هذا كلام الفرج، فلما أتى معاوية رحّب به وحيّاه وصافحه فقال الحسن عليه السلام: «إن الذي حييت به سلامة، والمصافحة أمن».

فقال معاوية: أجلّ إنَّ هؤلاءِ بعثوا إليك وعصوني ليُقرُّوك: إن عثمان قُتل مظلوماً. وإن أباك قتله فاسمع منهم ثم أجبهم بمثل ما يكلمونك. فلا يمنعك مكاني من جوابهم.

فقال الحسن عليه السلام: «فسبحان الله! البيت بيتك، والإذن فيه إليك، والله لئن أجبتَهم إلى ما أرادوا إني لأستحيي لك من الفحش، وإنْ كانوا غلبوكَ على ما تريد، إني لأَستحيي لك من الضعف، فبأيهما تقرُّ، ومن أيّهما تعتذر؟... فصار كلّ يدلو بدلوه متهمين منكرين لفضل أهل البيت عليهم السلام ومكانتهم عند الله، فقال عمرو بن العاص: إنّ أباك سمَّ أبا بكر الصديق، واشترك في قتل عمر الفاروق، وقتل عثمان ذي النورين مظلوماً، وادَّعى ما ليس له بحق (إلى أنْ قالَ) فاعلم إنَّكَ وأباكَ من شَرِّ خلقِ الله، فأما أبوكَ فقد كفانا اللهُ قتلَهُ وتفرّد به، وأما أنت فإنك في أيدينا نتخيّر فيك. واللهِ أن لو قتلناكَ ما كان في قتلك إثم عند الله ولا عيب عند الناس(*).

(*) الله أكبر على هذا المستوى من الإنكار لأبسط الأمور وادّعاء الحق أمام قادة الحق وأهله! ولا أدري والله كيف يصل الإنسان إلى هذه المستويات المتعجرفة والباطلة.. غفرانك ربّنا!

وتكلّم عتبة بن أبي سفيان قائلاً: يا حسن، إنَّ أباك كان شرّ قريش لقريش، أقطعُه لأرحامها، وأسفكه لدمائنا، وإنك لمن قَتَلة عثمان، وإنَّ في الحق أن نقتلك به... وهكذا كان منطق الوليد بن عقبة والمغيرة بن شعبة الذي خلص إلى نتيجة أن الإمام علي سقى أبا بكر سُمّاً، وأنه نازع عمر حتى همّ أن يضرب رقبته، ثم طعن على عثمان حتى قتله، كل هؤلاء قد شرك في دمهم فأي منزلة له من الله يا حسن، وقد جعل الله السلطان لولي المقتول في كتابه المنزل فمعاوية ولي المقتول بغير الحق، فكان من الحق لو قتلناك وأخاك، والله ما دم علي بأخطر من دم عثمان، وما كان الله ليجمع فيكم يا بني عبد المطلب الملكَ والنبوة.

وقبل أن أبدأ بجواب الإمام الحسن عليه السلام أُلفت نظر القارئ الكريم إلى تلك المفردات وعملية قلب الحقائق. وإني هنا أتحدّى إبليس أن يأتي بمثل ما أتى به معاوية وأعوانه من تغيير الوقائع وكأنهم يتحدثون باسم السماء وهم أعداء حقيقيون. فقد حمد الله إمامنا الحسن عليه السلام وأثنى عليه وصلّى على جدّه المصطفى وبدأ يخاطب القوم بقوله:

اسمعوا مني مقالتي، وأعيروني فهمكم، وبك أبدأ يا معاوية: إنه لعمر الله يا أزرق ما شتمني غيرك وما هؤلاء شتموني، ولا سبّني غيرك وما هؤلاء سبّوني... فاسمعوا مني أيها الملأ المجتمعون المعاونون عليّ ولا تكتموا حقاً علمتموه، ولا تصدّقوا بباطلٍ نطقتُ به، وسأبدأ بك يا معاوية، فلا أقول فيك إلاّ دون ما فيك.

أنشدكم بالله هل تعلمون أن الرجل الذي شتمتموه صلّى القبلتين

كلتيهما وأنت تراهما جميعاً وأنت في ضلالة تعبد اللات والعزى؟ وبايع البيعتين كلتيهما بيعة الرضوان وبيعة الفتح، وأنت يا معاوية بالأولى كافر، وبالأخرى ناكث؟

أنشدكم بالله هل تعلمون أنَّ ما أقول حقاً، أنه لقيكم مع رسول الله ﷺ يوم بدر ومعه راية النبي ﷺ والمؤمنين، ومعك يا معاوية راية المشركين وأنت تعبد اللات والعزى، وترى حرب رسول الله ﷺ فرضاً واجباً؟

.. ثم أنشدكم بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ حاصر بني قريضة وبني النظير ثم بعث عمر بن الخطاب ومعه راية المهاجرين وسعد بن معاذ ومعه راية الأنصار، فأما سعد بن معاذ فخرج وحُمل جريحاً، وأما عمر فرجع هارباً وهو يجبّن أصحابه ويجبِّنُهُ أصحابه. فقال رسول الله ﷺ: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسولَه ويحبه اللهُ ورسولُه، كرَّار غير فرَّار، ثم لا يرجع حتى يفتح الله على يديه»[1].

ثم قال: أنشدكم بالله أتعلمون أنَّ رسول الله ﷺ قال ـ في حجَّة الوداع ـ أيُّها الناس إني قد تركتُ فيكم ما لم تضلوا بعده: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فأحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه... ثم دعا وهو على المنبر علياً فاجتذبْه بيده فقال: اللهمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه. اللهمَّ من عادى علياً فلا تجعل له في الأرض مقعداً، ولا في السماء مصعداً، واجعله في أسفل دركٍ من النار. وأنشدكم بالله

(١) مسند ابن حنبل، ج١ ص١٩٩.

أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال له: أنت الذائدُ عن حوضي يوم القيامة...

وأنشدكم بالله أتعلمون، أنه دخل على رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، فبكى رسول الله ﷺ فقال علي: ما يبكيك يا رسول الله؟

فقال: «يبكيني أني أعلم أن لك في قلوب رجال من أمتي ضغائن، لا يبدونها لك حتى أتولى عنهم».

وأنشدكم بالله أتعلمون، أن علياً أول من حرَّم الشهوات كلها على نفسه من أصحاب رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[1] وكان عنده علم المنايا، وعلم القضايا، وفصل الكتاب ورسوخ العلم.

إنك يا معاوية كنت تسوق بأبيك على جمل أحمر يقودك أخوك هذا القاعد، وهذا يوم الأحزاب فلعن رسول الله القائد والراكب والسائق.

وأما أنت يا عمرو بن العاص الشاني[2] اللعين الأبتر... إن أمك بغية، وإنّك وُلدت على فراش مشترك.. وأما قولك في عثمان، فأنت قليل الحياء والدِّين، ثم هربت إلى فلسطين تتربص به الدوائر، فلما

---

(١) المائدة: ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) الشاني: المبغض.

أتاك خبر قتله حبست نفسك على معاوية، فبعته دينك يا خبيث بدنيا غيرك، ولسنا نلومك على بغضنا، ولم نعاتبك على حبنا..

وأما أنت يا وليد بن عقبة، فوالله ما ألومك أن تبغض علياً وقد جلدك في الخمر ثمانين جلدة، وقتل أباك و... ثم أنت يا وليد والله أكبر في الميلاد ممن تُدعَى له، فكيف تسب علياً ولو اشتغلت بنفسك لتثبت نسبك إلى أبيك لا إلى مَن تدعى له، ولقد قالت لك أمك: «يا بنيّ أبوك والله ألأم وأخبث من عقبة»...

وأما أنت يا عتبة بن أبي سفيان، فوالله ما أنت بحصيف فأجاوبك، ولا عاقل فأعاقبك، وما عندك خير يُرجى...

وأما وعيدك إياي أن تقتلني، فهلا قتلت الذي وجدتّه على فراشك مع حليلتك... لو شغلت نفسك بطلب ثأرك منه كنت جديراً.

وأما أنتَ يا مغيرة بن شعبة، فإنك لله عدو ولكتابه نابذ، ولنبيه مكذب وأنت الزاني وقد وجب عليك الرجم، وشهِّد عليك العدول البررة الأتقياء...

وبعد أن خرج الإمام وفنّد الحقائق وكشف المستور فيهم، قال معاوية لأصحابه: ألم أقل لكم أنكم لن تنتقصوا من الرجل فهلا أطعتموني أول مرة فانتصرتم من الرجل إذ فضحكم، فوالله ما قام حتى أظلم عليّ البيت، وهممت أن أسطو به فليس فيكم خير اليوم ولا بعد اليوم[1].

وروي أن عمرو بن العاص قال لمعاوية ذات يوم: ابعث إلى الحسن بن علي فمره أن يصعد المنبر ويخطب الناس، فلعلّه أن

---

(١) الاحتجاج، الطبرسي، ص٢٧٨.

يحصر[1] فيكون ذلك مما نعيره به في كل محفل. ولما جاء الإمام وصعد المنبر وقال من جملة ما قال: أيها الناس... من لم يعرفني فأنا الحسن بن علي بن أبي طالب، ابن عم نبي الله، أول المسلمين إسلاماً، وأُمي فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وجدّي محمد بن عبد الله نبي الرحمة، أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن السراج المنير، أنا ابن من بعث رحمة للعالمين، أنا ابن من بُعث إلى الجن والإنس أجمعين، فقطَعَ عليه معاوية فقال: يا أبا محمد خلنا من هذا وحدّثنا في نَعْت الرُّطب وأراد بذلك تخجيله.

فقال الحسن عليه السلام: نعم. التمر: الريح تنفخه، والحر ينضجه، والليل يبرده ويطيبه.

ثم رجع الإمام إلى كلامه الأول أنا ابن مستجاب الدعوة، أنا ابن الشفيع المطاع... أنا ابن من يقرع باب الجنة فيفتح له فيدخلها، أنا ابن من قاتل معه الملائكة...

وفي موقع آخر ومقام آخر روي أنه لما قدم معاوية إلى الكوفة وكان ذكر الحسن مرتفع بين الناس فقام معاوية خطيباً فخطب خطبة فاحشة، وسبّ فيها أمير المؤمنين عليه السلام فقام إليه الإمام الحسن عليه السلام فقال له وهو على المنبر: «ويلك يا ابن آكلة الأكباد! أو أنتَ تسبّ أمير المؤمنين عليه السلام وقد قال رسول الله ﷺ: من سبّ علياً فقد سبّني، ومن سبّني فقد سبّ الله، ومن سبّ الله أدخله الله نار جهنّم خالداً فيها مخلّدا وَله عذاب مقيم»[2].

---

(١) يضيق عليه الكلام ويحتبس.

(٢) الاحتجاج، الطبرسي، ص٢٨١ ـ ٢٨٢، باب احتجاج الإمام الحسن عليه السلام في مجلس معاوية.

وروي عن الإمام المجتبى عليه السلام في احتجاجه على معاوية في مسألة الإمامة. قوله:

«العجب منك يا معاوية ومن قلّة حيائك، ومن جرأتك على الله حين قلت: (قد قتل الله طاغيتكم، ورد الأمر إلى معدنه) فأنت يا معاوية معدن الخلافة دوننا؟! ويل لك يا معاوية وللثلاثة قبلك الذين أجلسوك هذا المجلس، وسنّوا لك هذه السنّة، لأقولنَّ كلاماً ما أنت أهله، ولكني أقول ليسمعه بنو أبي هؤلاء حولي.

إن الناس قد اجتمعوا على أمور كثيرة ليس بينهم اختلاف فيها، ولا تنازع ولا فرقة، على شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله وعبده، والصلوات الخمس، والزكاة المفروضة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت، ثم أشياء كثيرة من طاعة الله لا تحصى ولا يعدها إلّا الله، واجتمعوا على تحريم الزنا، والسرقة والكذب، والقطيعة، والخيانة، وأشياء كثيرة من معاصي الله لا تُحصى ولا يعدها إلاّ الله، واختلفوا في سنن اقتتلوا فيها، وصاروا فرقاً يلعن بعضهم بعضاً، وهي: (الولاية)، ويتبرّأ بعضهم عن بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، أيهم أحق وأولى بها..؟

... نحن نقول أهل البيت: أن الأئمّة منّا، وإنَّ الخلافة لا تصلح إلّا فينا، وأن الله جعلنا أهلها في كتابه وسنّة نبيه، وإنَّ العلم فينا ونحن أهله، وهو عندنا مجموع كلّه بحذافيره، وأنه لا يحدث شيء إلى يوم القيامة حتى أرش الخدش إلا وهو عندنا مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وبخط علي عليه السلام بيده. وزعم قوم أنهم أولى بذلك منا حتى أنت يا بن هند...»[1].

---

(١) الاحتجاج، الطبرسي، ص٢٨٧ ـ ٢٨٨، احتجاج الحسن بالإمامة.

إنه واقعاً كلام رائع وبديع وجريء، من الإمام الحسن عليه السلام الذي كان يعمل هو وبقية الأئمة في برنامج مرسوم وخط واضح أوضح معالمه رسول الإنسانية. وكان لأئمّتنا عليهم السلام رسم بياني يختلف عن المناهج الأخرى. فسلام الله عليهم من كرام بررة وأئمة غرفوا من بحر المعرفة وذاقوا حلاوة الإنس بقربهم من غاية آمالهم، وهيهات لأبناء الدنيا أن يفقهوا ما هم عليه!

* كلمة لله والتاريخ

إن قارئ التاريخ إذا ما دقّق في النصوص النبوية حول مقام الحسنين عليهما السلام وفي الأثناء يشاهد فصول الأحداث التي عصفت بهما، يشعر بالتناقض بين ما سمعته الأمة من نبيّها وما مارسته من أفعال، وكأنّ النبي الأكرم عنى بكل مدحه وثنائه شخصَيْن آخرَيْن، وأمّاً هي غير الزهراء، وأباً هو غير علي بن أبي طالب عليه السلام وهذا يقودني إلى سؤال كبير.. تُرى هل هما الحسنان نفسهما (الحسن والحسين) الذينَ تآمرت عليهما أمّة جدهما النبي صلى الله عليه وآله فجعلت ريحانة النبي الأولى تصل إلى مظلومية متعددة الأوجه والأشكال[1] بحيث لا يمكن لمفردات وتعابير اللغة العربية الغنية بمعانيها التوصل إلى وصفها وشرحها بدقة، يختصر ذلك الكبد المقطّع المسموم

---

(١) إن مفردة واحدة من تلك المفردات والمصاديق هو ما ذكره الدكتور طه حسين، وهو من أعجب العجب حينما يصف الإمام الحسن عليه السلام بأنه كان من المؤيدين لعثمان في محاولة هادفة إلى إيجاد شرخ بين موقف الإمام علي عليه السلام والإمام الحسن عليه السلام من سياسة عثمان وكأن الإمام المجتبى عليه السلام لا يشعر بالانتماء إلى البيت العلوي والنسب الأشرف حتى يذهب بعيداً مع عثمان مشرّقاً ومغرّباً.

لإمامنا الحسن عليه السلام وجنازته الممزقة بالسهام. والممنوعية من دفنه قرب جدّه المصطفى التي تشكل إشارات ورموز وعناوين تدلِّل على عمق الفجوة والهوّة والغربة عن تعاليم ووصايا الحبيب محمد صلى الله عليه وآله لدى الأمة التي تفخر بنبيها رسمياً، وتمارس الذات والأنا والرِدّة عملياً..

أما ريحانة النبي الثانية فعنوانها كربلاء، ومسيرتها الكرب والبلاء.. ومفرداتها الغربة الحسينية.. أما القاتل والظالم فيها، فهو دائم التجدد وكثير التعاقد مع وساوس الشيطان حتى ليُتقرب فيه المجرم إلى الله بسفك دماء الأولياء، في عملية غسيل الأدمغة والعقول، وإزالة الطهر كله لتبقى الساحة للرّجس كلّه.

فلكُما أيها الحسنان: أسوةٌ بأمِّكما وأبيكما، إن ذنبكم وجرمكم يا أهل بيت النبوّة أنكم رياحين الطهر وأزاهير الجنة، وأنكم الفردوس الإلهي وشتلاته المضيئة، وأنكم بقداستكم تُحرجون أهل الرجس وتخرجونهم مما تسمّوا به وليسوا كذلك.

إن ذنبكم أنكم الزنابق الإلهية والأنوار من الكوكب الدُرّي، فهو ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[1].

فقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام لِمَ سُمّيت فاطمة الزهراء زهراء؟ فقال: «لأن الله عزَّ وجلّ خلقها من نور عظمته، فلما أشرقت أضاءت السماوات والأرض بنورها، وغشيت أبصار الملائكة، وخرّ الملائكة لله ساجدين، وقالوا: إلهنا وسيدنا.. ما هذا النور؟ فأوحى

(١) النور: ٣٥.

الله إليهم: هذا نور من نوري، وأسكنته في سمائي، خلقته من عظمتي، أُخرجه من صلب نبي من أنبيائي أفضّله على جميع الأنبياء، وأُخرج من ذلك النور أئمة يقومون بأمري.. يهدون إلى حقي وأجعلهم خلفاء في أرضي بعد انقضاء وحيي»[1].

إن أمكما ـ يا ريحانَتي النبي ـ رأت بأم عين بصيرتها مشهدَيكما حينما كانت تبث همومها وأحزانها على قبر جدكما.. رأت مظلوميتكما ببكائها المقنّن، وبشكواها على قبره وهي تشكو الأمّة: «يا أبتاه! أمسينا بعدك من المستضعفين. يا أبتاه! أصبحت الناس عنّا معرضين وقد كنّا بك معظّمين في الناس غير مستضعفين»[2].

وأنت أيها الإمام المجتبى الذي يشك الظلام بنورانيتك ويحاول الجاهلون بمقامك أن يرفعوا عنك التشكيك، ولا أدري لماذا أقحموك في أمر لا يشبه أخلاقك ولا عليه جرت سيرتك الجهادية، وما ذنبك سيدي إن اقتضت منك المصلحة الإلهية وقادتك إلى تكليف هو من الصعوبة بمكان، في زمنٍ جاهلي مع جاهليين جهلاء لا يستأنسون إلا بالظلام ولا يستوحشون إلا من الحق. وقد قيل «وما ذنب عين الشمس إذا كانت عين الخفاش لا تبصر؟».

فسلام عليك سيدي يا شمس الحقيقة الساطعة، تفضح أكذوبة إسلامهم وتكشف زيف تديّن مزعوم يتكرّر في كل زمان ومكان، ويُستنسخ ليُقدّم للبشرية على أنه إسلام محمدي أصيل، وما هو إلا إسلام صاغته أهواء الجاهلية وغذّته روح العصبية، حتى بات

---

(١) الطبرسي، نوادر المعجزات، ص٨٢.

(٢) اللمعة البيضاء، التبريزي الأنصاري، ص٨٥٧.

الواحد من هؤلاء يذبح المسلمين، ويتفنن بطريقة الذبح مع ذكر الله وتلاوة بعض آياته.. ويُقدّم الخدمات الجليلة لأعداء الإسلام، ونحن لا زلنا نتغنّى بالتقدّم الحضاري والتكنولوجي وثورة المعلومات والأرقام.. ولو تكرّر مشهد النبي وأهل بيته من جديد.. لتفنّن المحسوبون على الإسلام في طريقة عذابهم وذبحهم وتشريدهم، أن أبا سفيان وأبا جهل وأبا لهب يتكرّرون حقاً، وإنْ بأساليب مختلفة.

الفصل الثاني

مَن هو معاوية؟

* توطئة
* مجدّد الجاهلية.
* ابن أبيه وسرّه.
* نفاق بإسم الدين.
* أساليبه وطرقه.
* محيي البدع.
* من سجلّات ابن هند.
* القلم... أداة جرائمه.
* القتل.. سلاحه الفتاك.
* معاوية في ميزان محمد ﷺ.



توطئة

قبل أن نحكم على كاتب السطور بالأحكام المسبقة، أقدّم نصيحة لكل باحث عن الحقيقة أن لا يُقدّس شخصيات ورموز بناءاً على ثقافة التقاطية مشوبة بالعصبيات. فقد ظلم التاريخ والمؤرِّخون أناساً كباراً وعظماء ينحدر عنهم السيل ولا يرقى إليهم الطير[1]، وعظّم أناساً تضجّ منهم الحقيقة وتصرخ من أعمالهم ملائكة السماء ويشهد على جرائمهم شهداء قضوا على أياديهم السوداء الملطّخة بدماء المقتولين المظلومين.

فالتقديس لغير أهل القداسة هو تمويه للتاريخ والحقيقة وإعطاء المشروعية لأناسٍ شرعنوا الغدر هو إفساد في الأرض وتفخيخ للتاريخ والمعتقد.

والحديث عن معاوية بن أبي سفيان، هو حديث عن سياسة أبي سفيان الذي جسَّد الشرك بكل أبعاده، ووقف سداً منيعاً أمام الرسالة التي انتصرت على أعدائها، وكان الانتصار الباهر الذي حققه الرسول في مكة المكرمة بعد أن أطلق نبي الرحمة أبا سفيان وصار

---

(١) مقتبس من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة.

في عداد الطلقاء، ما جعله يغيّر أسلوبه وطريقة عداوته من خلال إعلان الإسلام ويا ليته لم يفعل، وهنا بدأت بداية المصائب والفجائع التي لم تترك بيتاً من المسلمين إلا وطالته سياسة وظلم أبي سفيان وأولاده. بل أنها طالت أيضاً غير المسلمين من خلال الإساءات الكبرى التي وُجّهت لهم باسم الإسلام والقرآن.. وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله: «أمراء يكونون بعدي لا يهدون بهديي، ولا يستنّون بسنّتي، فمن صدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردون على الحوض»[1].

وعلى ضوء تلك المعادلة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وآله ندرك حقيقة الواقع الصعب الذي يتنطّح أدعياء الدين فيه إلى تنصيب أنفسهم على أنهم الأدلاء على طريق الله وهم في الواقع، ما هم إلا قطّاع طرق على عباد الله مخافة أن يذوقوا حلاوة إطاعة الخالق وعبادته ويفرّون من أئمة الكفر.

بهذه المقدمة ندخل إلى صلب الموضوع للحديث عن معاوية المناوئ الحقيقي لأهل بيت العصمة عليهم السلام.

* من هو معاوية؟

هو ابن أبي سفيان الذي يعدّ من أئمة الكفر، والمتسلل إلى الإسلام لينال منه، والذي استسلم لأنانيته وعصبيته حيث أراد استئصال شأفة الدين والعدل.

---

(١) مسند أحمد، ج٣ ص٣٢١.

وهو من الذين شكّلوا عقبة بوجه تقدّم مسيرة الإسلام، وقد قال فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وفي أمثاله مخاطباً له: «وما أسلم مسلمكم إلا كرهاً»[١]، وهو طليق ابن طليق، حزب من هذه الأحزاب، لم يزل لله عزّ وجلّ ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين[٢].

لم يكن الرجل من الخلفاء وإنما كان من ملوك بني أمية الذين توسلوا الوسائل الخبيثة للوصول إلى المآرب الدنيئة[٣]، وهو صاحب شعار «الغاية تبرّر الوسيلة». وهو المستعد لقتل الآلاف من المسلمين ليبقى له سلطانه، وقد قام بقتل العديد من الشخصيات الإسلامية والرموز الإيمانية، فقد قتل حجر بن عدي أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام مع سبعة من أصحابه، وقتل محمد بن أبي بكر بعد أن أحرقه ومثّل به، ومالك الأشتر بواسطة السم الذي دُسّ له على يد عمرو بن العاص[٤]، وهو الذي أمر أهل الشام والكوفة بسب علي بن أبي طالب عليه السلام في قنوت الصلاة[٥]، وفي خطب

---

(١) نهج البلاغة، كتاب ٦٤، من كتاب للإمام علي عليه السلام إلى معاوية.

(٢) تاريخ الطبري، حوادث سنة ٣٧هـ.

(٣) لم آل الأمر إلى عثمان وقرّب بني أمية، علا نجم أبي سفيان، حيث وقف يوماً قبال قبر سيد الشهداء حمزة عليه السلام وقال مخاطباً صاحب القبر: «يا أبا عمارة!.. إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس في يد غلماننا يلعبون به...» ثم ركل القبر الشريف برجله، هذا وعثمان بن عفان يراه ويسمعه دون أن ينهاه عن فعل، كما في كتاب حياة الإمام الحسن، باقر شريف القرشي، ج٢ ص١٤٢ ـ دار البلاغة.

(٤) الطبري، ج٦ ص١٤٣ وص٥١؛ والكامل، ج٣ ص٣٢٦ ـ بيروت؛ وتاريخ أبي الفداء، ج١ ص١٨٦.

(٥) المصدر نفسه.

الجمعة، رغم صريح قول النبي صلى الله عليه وآله (من سبّ علياً فقد سبّني)[١]، في جرأة واضحة صريحة دون أن يرفّ له جفن لعظيم وخطورة هذا الفعل الذي ينمّ عن استهتار بالقيم والمجتمع.

وقد حارب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الخليفة الشرعي باتفاق المسلمين، وخرج عليه في حرب صفين، ولم يكتف بذلك، بل كذب على أمير المؤمنين عليه السلام حينما أخبر أهل الشام أن علياً هو الذي قتل عثمان بن عفان[٢]، وخرج على إمام زمانه، وكان مجلسه لا يخلو من الغناء والطرب والرقص، وقد كان يتغنّى بذلك ويقول: (إن الكريم طروب)[٣] وكان ينفق على المغنيين والراقصات في سهرات المجون والطرب الأموال الطائلة التي لا تعدّ ولا تحصى.

وهو الذي قتل الإمام الحسن عليه السلام حينما دسّ له السم من خلال زوجته جعدة بنت الأشعث، والقائمة لا تنتهي، فهي باقية حتى بعد موت معاوية لأنه سنّ البدع السيئة وأسَّس أساس الظلم الذي لا يزال إلى الآن يستقي من خططه ودسائسه. ولا تزال شعرة معاوية هي المصطلح السياسي الذي يستعمله أهل المكر والغدر والنفاق، وقد اختصر الحسن البصري شخصية معاوية بقوله «أربع خصال كُنّ

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ترجمة الإمام علي؛ والمناقب، ص٨٣؛ نور الأبصار، ص٨٩؛ في كتاب الاحتجاج للطبرسي، ج١ ص٢٨٢، «من سبّ علياً فقد سبّني، ومن سبّني فقد سبّ الله، ومن سبّ الله أدخله الله نار جهنم خالداً فيها مخلداً وله عذاب مقيم».

(٢) الكامل، ج٣ ص١٦١ ـ بيروت.

(٣) تاريخ ابن الوردي، ج١ ص١٦٢؛ تاريخ أبي الفداء، ج١ ص١٨٩.

في معاوية لو لم تكن إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه[١] على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب الطنابير، وادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقتله حجر وأصحابه»[٢] وقد قال فيه عامله سمرة يوم عزله عن ولاية البصرة (لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعته لما عذبني أبداً)[٣].

ويذكر التاريخ أنّه لما خرج من عنده صديقه المغيرة بن شعبة قال لابنه: (إني جئت من أخبث الناس)[٤].

وسأل معاوية صعصعة بن صوحان العبدي قائلاً: أي الخلفاء رأيتموني؟ فقال صعصعة: أنّى يكون الخليفة من ملك الناس قهراً ودانهم كبراً، واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكراً. أما والله مالك في يوم بدر مضرب ولا مرمى، ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير، فمن أجلب على رسول الله ﷺ، وإنما أنت طليق وابن طليق أطلقكما رسول الله ﷺ فأنّى تصلح الخلافة لطليق[٥].

* مجدد الجاهلية

لا يخفى على عاقل أن معاوية ابن أبي سفيان، هو ممن عفا

(١) الانتزاء: المسارعة إلى الشر كما في المنجد.
(٢) الكامل، ج٣ ص٢٤٢.
(٣) ابن الأثير فيما يرويه عنه في النصائح، ص٩.
(٤) مروج الذهب، ج٢ ص٣٤٢.
(٥) المسعودي، هامش ابن الأثير، ج٦ ص٧.

عنهم النبي الأكرم ﷺ بعد أن دخل المسلمون إلى مكة فاتحين، ومقالة الرسول ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[1] في ظل الفتح والظفر الذي حققه الإسلام في مكة، هي من الشهرة بمكان، وهي ملازمة للحديث عن فتح مكة حيث أظهر نبي الرحمة رحمة الإسلام وعفوه حتى على الذين كانت لهم مواقف غير مشرّفة وهم أعداء للإسلام بكل ما تعني العداوة من مضمون سيء، لكن رحابة الإسلام هي التي جعلت أبا سفيان أسيراً لأخلاق الرسول الأكرم ﷺ وآمناً في بيته بعد أن أمّنه النبي ﷺ، وكان لعفو الإسلام بعد قدرته وبسط يده، الأثر النفسي والسلبي الكبيرين على بني أمية قاطبة، وكانت مكة والجزيرة العربية في العصر الجاهلي معقودة اللواء لهم، حيث لم تكن تلك العائلة لتستجيب لنداء الإسلام مذعنة مستسلمة، وإنما كانت تتربص به الدوائر وتعذب معتنقيه، فأظهرت وخصوصاً بعد فتح مكة التسليم لقيادة رسول الله ﷺ والقبول بأحكام الدين قبولاً شكلياً ليتسنى لها فرصة الانقضاض عليه، ولو استطاعت أن لا تبقي أثراً له لما قصّرت، لأن ظهور الإسلام بدّل المقامات فرفع من كان وضيعاً، ووضع من كان رفيعاً، وقد كان بنو أمية من أولئك الذين وضعهم الإسلام، لأن القيم التي يحملون إنما هي مبادئ وقيم وأد البنات وقتل الأبرياء وعبادة الأصنام وتقديم الأضاحي لها، التي كانت بدورها مورداً اقتصادياً كبيراً لآل أبي سفيان، ولما جاء الإسلام بالقيم السماوية، لا الأرضية الجاهلية

---

(١) السيرة النبوية، ج٢ ص٤٠٠؛ سيرة سيد المرسلين، الشيخ جعفر السجاني، ج٢ ص٤٧٧.

ألغى الكثير من العادات والعبادات الجاهلية، والعديد من تقليد الآباء والأجداد الأعمى.

* ابن أبيه وسرّه

استطاع معاوية الذي شكَّل سراً لأبيه الذي أعطاه الرسول الأمان في مكة، أن يجمع بين يديه المال والسلطة، وأن يهيمن على العديد من المدن والدول مثل دمشق وحمص وفلسطين والأردن.

وكانت له طرقه المتنوعة في إخضاع الناس لإرادته حتى أقنع الغالبية من المسلمين أنه يُمثل الإسلام، وأنه لا يخطئ حتى لو حارب آل بيت النبي ﷺ، ولقد روى بعض المؤرخين أن معاوية بن ابي سفيان لما أخبر المصلّين في المسجد الأموي بخبر استشهاد علي بن أبي طالب عليه السلام في مسجد الكوفة، ما جعل أحد المصلين يسأل مصلياً آخر: ولماذا كان علي في المسجد؟ وهل كان ممّن يؤدون الصلاة حتى ذهب إلى المسجد؟

ومن الوثائق التاريخية التي تؤكد ذوبان أهل الشام بقرارات معاوية وعدم وجود آراء لهم قبال إرادته وأوامره ونواهيه، ما ذكره ابن قتيبة لمعاوية «.. وإني لأخبرك يا معاوية إنك تقوى على علي بدون ما يقوى به عليك. لأن من معك لا يقولون إذا قلت ولا يسألون إذا أمرت، ولأنّ مَن مع علي يقولون إذا قال ويسألون إذا أمر»[(١)]. بهذا تبين لنا أن أهل الشام ليس لهم إلا إرادة الطاعة

---

(١) تاريخ الخلفاء، لابن قتيبة، ج١ ص٨٢، طبعة بيروت.

العمياء لمعاوية، بينما كانت حرية الرأي والمناقشة سائدة في عصر أئمة الهدى عليهم السلام.

وعلى أي حال، فمعاوية الذي ما آمن يوماً بالله ولله، وإنما كان في وسط المسلمين وداخلهم ليتمكّن من توجيه ضرباته للإسلام ورموزه، وكانت الأحقاد الدفينة والبواعث القبلية هي التي أعطته المزيد من الدفع والحركة والنشاط في محاربة الدين الذي كشف عنه وآباءَه المستور فجعلهم مكشوفين في العراء ومفضوحين لدى كل من تذوق حلاوة الإسلام وعبودية الله عزّ وجلّ، فهو ألفُوا الفساد واعتادوه ديناً ومذهباً، وهم اعتنقوا شرّ دين، وقد أراد الله لكل الناس أن يكونوا في خدمة خير دين، الدين الذي مهّد له مائة وأربع وعشرون ألف نبي، فهل يُعقل أن يُترك هذا الدين الذي ضحّى من أجله الأنبياء والأوصياء والصلحاء، عرضة لأهواء المتضرِّرين من وجوده؟ وهل يمكن أن يقبل الله لدينه أن يلعب به السفهاء؟ وهو الذي يُخرِج الناس من الظلمات ويدخلهم في نور الهداية، وهل مثل معاوية الذي كان يفخر بطريقة قتله للناس فيطعمهم العسل المسموم. فيأكل ضحيته العسل ملتذاً ويغادر الدنيا كارهاً، وهو يردد كلمته المشهورة والمعروفة «إن لله جنوداً من عسل»[1]، فهل يُعطى صلاحية التصرف والتحكّم في كل تُراث السماء؟ وهل يُترك له الحبل ليعيث في الأرض فساداً ويُخضع أمر الدين لمزاجية جاهلية هوجاء؟ وهو الذي قال عنه العالم الجليل محمد الحسين آل

---

(١) عيون الأخبار، ج١ ص٢٠١؛ وفي نص آخر في عيون الأخبار يقول: «إن لله جنوداً منها العسل».

كاشف الغطاء «دخل أبو سفيان ومعاوية في الإسلام، ليفتكوا في الإسلام ويكيدوا له، والعدو الداخل أقدر على الكيد والفتك من العدو الخارج، وهذه العداوة ذاتية متأصلة، والذاتي لا يزول وليست هي من تنافس على مال، أو تزاحم على منصب أو جاه، بل هي عداوة المبادئ، عداوة التضاد الطبيعي، والتنافر الفطري، عداوة الظلام للنور، ولذا بقي بنو أمية على كفرهم الداخلي ومكرهم الباطني مع تمتعهم بنعم الإسلام وبركاته، لكن لم يمس الإسلام شعرة من شعورهم ولا بلّ ريشة من أجنحتهم، كالبط يعيش طول عمره في الماء ولا يبلّ الماء ريشة منه.. حتى إذا أولى من كانت له السلطة بالخلافة إلى أول خليفة منهم طاروا فرحاً، وأعلنوا ببعض ما كانت تكنّه صدورهم، فجمعهم أبو سفيان وقال: «تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة»[1]، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار ثم أخذوا زمام الخليفة الأموي بأيديهم وصاروا يقودنه كالجمل الذلول حيث شاؤوا»[2].. فالانتماء إلى هذا البيت وإلى أصالة الشرّ فيه وحده يجعل من معاوية رجلاً عدوانياً، فكيف إذا كان معاوية الشرير بنفسه والذي هو بمثابة الثمرة للشجرة الخبيثة، هو بحد ذاته المتنكر لقوانين الأرض والسماء؟

---

(١) إنه المنطق الجاهلي، يقال بثقة جاهلية جهلاء، وكأن الخلافة التي هي خلافة الله قبل أي شيء، تحوّلت إلى ما يشبه كرة القدم، فهي تركل حسب أهواء القوم، فهم لذلك يتلقفون الخلافة، لأن أبا سفيان تبين له أن لا جنة ولا نار، وهي كالجمل المطيع المذعن الذلول يُوجّه حيث يشاء قوّاده!

(٢) مقدمة كتاب حياة الإمام الحسن للسيد باقر شريف القرشي، ج٢ ص١١.

نفاق بإسم الدين:

كان الرجل يحكم باسم القرآن والدين هكذا يبدو في الظاهر المشهد، لم يكن يتجرأ على الارتكاب العلني للمنكر، وإنما كان يستغل السُذّج من المسلمين ويخدعهم بشعاراته الخدّاعة ليتسنى له بقاء الحكم والسلطان، وهو الذي استفاد كثيراً من مقتل عثمان واعتبر ذلك فرصته التاريخية، حتى تحوّل قميص عثمان بالنسبة له إلى ما يشبه الراية والذريعة التي كان يبرّر أفعاله من خلالها، ومعاوية في دهائه ومكره كان بشخصه حجر عثرة كبير بوجه دين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله حتى يمكن القول أن بقاء أو هلاك معاوية يترتب على أيّ منها نتائج مختلفة، وخير دليل إلى ما ذهبنا إليه. هو ذلك الجواب الحسيني الذي أجابه الإمام الحسين عليه السلام لعلي بن محمد بن بشير الهمداني حينما ذكر الأخير امتناع الإمام الحسن عليه السلام من إجابة من دعاه إلى الثورة بعد الصلح لعدم استعداد المجتمع الإسلامي لذلك فقال عليه السلام: «صدق أبو محمد، فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام هذا الإنسان حياً»[(١)].

وهذه الإشارة وغيرها من الإشارات لسيد الشهداء تبين الخصوصية لشخصية معاوية ومدى تأثيرها في الواقع الاجتماعي للناس الذين لم ينضجوا النضوج الإسلامي المطلوب فكانت الغالبية والأكثرية المجتمعية بمثابة الصدى لنفاقه، وقد كان الرجل كما

---

(١) الأخبار الطوال، ٢٢١؛ تكرّر حديث الإمام الحسين عليه السلام هذا أكثر من مرّة في مطاوي الكتاب نظراً لأهميته ودلالته!

وصفه المغيرة بن شعبة بأنه أخبث الناس[١]، وكان له الباع الطويل في الخبث والدهاء والمكر والنفاق، واللسان الأطول في قلب الحقائق وتغييرها، حتى يخال العديد من الكتّاب الشعور بأن الإمام الحسين عليه السلام لو ثار بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام على معاوية لاستطاع معاوية أن يُظهر سبط النبي بمظهر المرتجل للأمور والمتسرّع والمتمرد غير الشرعي، وما تقدم من كلام الإمام الحسين عليه السلام، هو الجواب الكافي والشافي الذي يُظهر حقيقة معاوية العداونية المغطاة بعناوين منمّقة تخدع الرأي العام. (ع٣٥)*

أساليبه وطرقه

كانت لمعاوية العديد من الأساليب والطرق المتلوية التي لا تصب إلاّ في مصلحته الشخصية ولا يهمه بعدها حياة الناس وسعادتهم، فتارة كان يتعاطى سياسة القتل والتجويع والإرهاب، وطالما كان يهدِّد كل من يروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام رواية، وقد كتب خطاباً واحداً وجَّهه إلى عمّاله «أن برئت الذمة ممَّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً»[٢]، وأخرى كان يتعاطى سياسة التشريد والتهجير، فقد أنزل من الكوفيين وأُسرِهِم ـ وكانوا من أعظم الثوار تشيعاً ـ خمسين ألفاً في خراسان[٣]، وثالثة، كان يتعاطى سياسة بذل الأموال وشراء الذمم إلى حدٍ وُصفت فيه

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٢ ص٣٥٧.

(٢) ثورة الحسين للشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص٧٠.

(٣) برو كلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ١ ـ ١٢٨.

أعماله بالحلم والكرم، وكان يركز على الطبقات الغنية والرموز الاجتماعية التي لها نفوذها في القبائل والعشائر في الوقت الذي كانت الطبقات الفقيرة تتجرّع كؤوس الفقر والمتربة بشكل لا يوصف من كثرة الجوع والمسغبة، وهو في الأثناء يُغدق على الموالين وأهل الشام وزعماء القبائل لتخرس عند عطائه، الذي كان بدوره يسحق شخصياتهم حيث يمنّ عليهم بالعطاء ويذلّهم بالأموال، والحديث عن طرق وأساليب معاوية يقودنا بدوره إلى إحيائه النزعات القبلية والعداوات الجاهلية والأحقاد القديمة، حتى يمكننا القول بأن الرجل مجدِّد للجاهلية بكل معنى الكلمة، وباعث الروح في كل العصبيات الشيطانية والقوميات التي لا تمت إلى الإسلام والقرآن بصلة.

وعلى أي حال، فإن معاوية وأسلوبه وصل إلى مستويات الحضيض بحيث لا يقدر كاتب أو باحث أن يغيّر في هذه الحقيقة شيئاً، أو أن يبدّلها، لحد لا يستطيع مثل معاوية بمكره، ولا شبيهه بدهائه أن يغيّر التاريخ ويحذف عنواناً عريضاً للإجرام يلبس لبوس الدين، اسمه معاوية ابن أبي سفيان الذي نوّع في أساليبه وعدّد في طرقه.

* محيي البِدَع:

أحدث معاوية في الإسلام الآذان والإقامة في صلاة العيد، رغم صريح قول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «ليس في العيدين أذان ولا إقامة»[١].

---

(١) كشف الغمة للشعراني، ج١ ص١٢٣.

وقد تطيب في الإحرام، مع أن وصايا النبي الصريحة أنَّ على المحرم أن يترك الطيب ما دام محرماً، فإذا حلّ من إحرامه جاز له استعماله، لكن معاوية تنكّب سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، وقد لبس الحرير وهو يعلم أن الإسلام حرّمه على الرجال إلا في حال الحرب. لكنه لا يهمه الإسلام ولا تحريمه ونهيه عن شيء[١].

وعلى أي حال فإن مخالفات معاوية لصريح أقوال النبي هي أوضح وأشهر من أن تذكر، يكفي أن نذكر واحدة منها كحالة رمزية ومؤشر يدل على أنه ذهب بعيداً عن أحكام الدين، وهي موضوع إلحاق زياد ابن أبيه أو ابن سمية به، مع أن المعروف لدى كل عاقل أن سمية كانت من أصحاب الرايات بالطائف، وهي بغيّة وكانت تنزل بالموضع الذي تنزل فيه البغايا في محل «حارة البغايا»[٢] وهي أولدت زياداً، لكن معاوية لم يمانع من إلحاق زياد به، وهو أيضاً لم يقف عند وصايا رسول الله ﷺ والتي كان من ضمنها الوصية بوصيّة سيد الوصيّين علي بن أبي طالب عليه السلام، بل أنه تحدّى الوحي، وعادى من نصره الله، ونصر من عاداه الله، وهو من أسّس أساس سب الإمام علي ولعنه، وقد قال ابن الأثير (إن معاوية كان إذا قنت سب علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر)[٣].

ونقل أبو عثمان الجاحظ في كتاب الرد على الإمامية: «إن معاوية كان يقول في آخر خطبته: اللهم إن أبا تراب ـ يعني علياً ـ

---

(١) النصائح، ١٠٠ ـ ١٠١.
(٢) مروج الذهب، ٢/ ٣١٠.
(٣) النصائح الكافية لابن عقيل، ص١٩ ـ ٢٠.

ألحدَ في دينك، وصدّ عن سبيلك. فالعنه لعناً وبيلاً وعذبه عذاباً أليماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشاد بها على المنابر»[1].

ولو شئنا تعداد مخالفات الرجل للإسلام وللرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لما كفانا البحث، لكن الأخطر في المخالفات هو أن يقف معاوية قبال الإسلام ويشكّل نقيضاً للقرآن وعدوّاً للنبي وأهل بيته عليهم السلام دون أي خجل، ومع ذلك يجد بيئةً موافقة وحاضنة رغم كل عداوته التي لا تخفى على عاقل ويكفي تصدّيه الكامل لممثلي الشريعة من رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أمير المؤمنين عليه السلام إلى الإمام الحسن عليه السلام وتاريخ القتل والتقتيل والتشريد والمجازر والحروب وعسله القاتل وإجرامه المفضوح.

فلقد كانت سيرة الرجل أخطر من أن يُبدع آذاناً وإقامة في يوم العيد، ومن أن يحلل الطيب للمحرم، فهو الذي أحلّ قتل الطهر والبيت الطاهر من الذين أذهب الله عنهم الرجس أهل البيت وطهّرهم تطهيراً.

ومن لا يعي حقيقة هذا الطاغية، ولا يدرس في بدعه التي تعاطى معها على أنها سُنّة وربما فريضة، هو حتماً لا يفقه من الإجرام والرذيلة شيئاً على الإطلاق.

فمعاوية هذا ضرب بأحاديث النبي صلى الله عليه وآله بحق سبطه بعرض الجدار.

---

(١) المصدر السابق.

وهو الذي أُدخل زوراً المواقع الإسلامية وانتزع بالقوة مراكزها المهمة إلى أن وصل المسلمون إلى وقت بات يقال فيه: الحسن ومعاوية كما قيل في عصر أمير المؤمنين: علي ومعاوية، وهذا بحد ذاته مظلومية تضاف إلى العترة الطاهرة، وعلى أي حال فإن ابن هند، دقّق جيداً في أحاديث النبي ﷺ وتعاطى معها على أنها تمتدح الطيبين فقتلهم أو حاول، وأنها تذم الخبيثين فكرّمهم وأحسن وفادتهم، لقد شكّلت له أحاديث الرسول ﷺ ذريعة لتصفية أخصامه، لأنه خاصم الحق والحقيقة، لكن الأسف واللوعة والحزن والكمد على أولئك الذين لم يتعرّفوا على حقيقة معاوية، ولا على جرائمه، فقاتله الله ما أقبح إجرامه وأفظع عدوانه!

* من سجلات ابن هند..

دأب الأمويون وعلى رأسهم رمزهم المتصدّي المتردّي معاوية على تأكيد زعاماتهم وأنهم أسياد، وهم الحَكَم لكل متنازع، وهم أصحاب مُلك وثراء، وبوابة الدنيا لمن أرادها. والآخرة لمن لا يملك بصيرة ورؤية، فاستعمل معاوية العديد من الكتّاب والعلماء لتدوين التاريخ كما يرغب وتزوير الحقائق لمصلحته. وقد جزّر الرجل عندما اقتحم بقرّائه وكُتّابه كُتب التاريخ وتلاعب بالقضايا المفصلية أشدّ ما يكون التلاعب. وقد حارب إمام زمانه الإمام علي عليه السلام وشرب الخمور ولبس الحرير، ونصب نفسه ملكاً وكان يُلقي باللوم على أحداث السقيفة.

وقد شوّه هو وزبانيته الكثير من الأحداث فحقّر العظماء وعَظّم

الحقيرين، وبدأت أقلام جنوده من العلماء ـ ووعّاظ السلاطين ـ تفعل فعلها الشنيع في تغيير الحقائق وتشويه صورة المحقين.

ولا يخفى على ذوي الألباب أن أقلاماً مسمومة من هذا القبيل، هي أخطر وأشنع جريمة من سيوف مشهورة مسلّطة على أصحاب الحق. فمعاوية لم يقصّر في خدمة الأموية في القلم والسيف معاً، في الكلمة والقتل معاً.

* القلم.. أداة جرائمه

ما من شيء أضر على الإسلام من التحريف، والتحريف هو حرف الشيء عن مسيره واتجاهه الأساسي الموجود، وهو التغيير والتبديل قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾(١).

وهناك العديد من أنواع التحريف وأهمها: التحريف اللفظي والتحريف المعنوي.

التحريف اللفظي: هو كمن يأتي بموضوع أو يختلق حديثاً ويقول ما لم يقله الله ورسوله، فقد يقدّم متأخراً أو يؤخر متقدماً بشكل يؤدي إلى تغيير وتبديل المراد، كأن يقول قائل ومختلق عن رسول الله ما لم ينطق به ﷺ فيقول المحرِّف أن النبي ﷺ قال: «من أكل من بصل عكّا كأنه زارني وزار مكة»(٢).

---

(١) المائدة: ١٣.

(٢) هذا حديث أبي هريرة، الذي جعل نفسه مادة إعلامية يسوّق بضاعة وقد حمّله إلى رسول الرحمة ﷺ، وهو منه براء.

أما التحريف المعنوي: فلا يستطيع المحرّف أن يضيف للنص شيئاً لأنه محفوظ ومعروف بنصّه، لكنه يصول ويجول في المعنى ويتوسع في تحميل اللفظ ما لا يتحمّله، تماماً كما فعل معاوية وتعامل مع حديث النبي محمد ﷺ القائل لعمّار بن ياسر: «يا عمّار! تقتلك الفئة الباغية»[1]. وقد برّر معاوية لنفسه أن يقفز عن المعنى المراد بحديث النبي ﷺ لأن جيشه هو الذي قتل عمّاراً دون جيش أمير المؤمنين، فيكون جيش معاوية هو الفئة الباغية.

أمام هذا الحديث النبوي المحفوظ عند المسلمين والمشهور الذي لا يمكن لأحد أن يشك فيه، رأى معاوية بحيله وخدعه، وباقتراح من عمرو بن العاص أن يغيّر المعنى حيث لا يستطيع أن يحرّف في اللفظ، فاعتبر أن المسؤول عن قتل عمار ليس هو، بل من أرسله إلى القتال وهو علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن هذا القبيل استخدام الكثير من المسلمين لبعض الآيات حينما يلجأون إلى تفسيرها تفسيراً خاطئاً وتحميلها معانٍ متناقضة بالكامل لمقاصد القرآن الكريم.

ونستطيع القول أن معاوية هو بطل في التحريف المعنوي واللفظي معاً، وبطل في طمس معالم التاريخ، وقد قال المدائني عن عصره: «وظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة وكان أعظم الناس في ذلك بلية القرّاء المراؤون، والمستضعفون الذين يُظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقرّبوا مجلسهم، ويصبوا به

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج٢ ص١٩٩.

الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها، وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها»[1].

وقال ابن أبي الحديد: «ذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي أن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً[2] يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير»[3].

وقد جمع العلامة الأميني النجفي الوضّاعين الكذّابين، فوصل إلى ذكر ستمائة وعشرين كذاباً[4] ممن استُخدموا لمصالح خبيثة وأغراض حقيرة، وكان من جملة القضايا التي طالتها يد التحريف والتزييف هي قضية الإمام الحسن عليه السلام وصلحه وزواجه.

مع أن كل من قام بعملية القرصنة هذه، كان يعلم جيداً مدى ما للحسن عليه السلام من مكانة في قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ومن صلته عليه السلام بالله تبارك وتعالى، إلاّ أنها الدنيا التي تتراءى لأبنائها المذبذبين فيسقطون في أفخاخها، ويصطادهم من هم على شاكلة معاوية

---

(١) ابن أبي الحديد، ج٣ ص١٦.

(٢) وهي من الجعل ما يجعل كعطاء مقابل ما يُقدم من خدمات.

(٣) ابن أبي الحديد، ج١ ص٣٥٨.

(٤) كتاب الغدير، ج٥ ص١٨٥ إلى ص٣٢٩.

يشتري عقولهم وأقلامهم ويصادر فكرهم وحريتهم، وما عملية الشراء هذه للذمم ومصادرة القيم والمثل إلا الدليل الصارخ على حقارة الدنيا ونذالة أهلها، وصدق من قال: «أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها»[١].

* القتل.. سلاحه الفتّاك

يحرص أئمة الكفر على إقامة عروشهم وبناء هياكل زعاماتهم حتى لو كلفتهم إراقة الدماء، فالمهم بالنسبة لهم هو السلطان والزعامة، وليس مهماً بعد ذلك الثمن الذي يُدفع، وكأن كراسي المجد الدنيوي تبنى فقط وفقط على جماجم الأبرياء كما يوهمهم الشيطان.

فالذين انتقم منهم معاوية وقتلهم هم من الكثرة بحيث لا تُحصى أعدادهم، ويكفي قتله للإمام الحسن عليه السلام وصية الرسول في الأمة ووديعته فيها، وتنصيبه ولده يزيد حيث كان من جملة وصاياه له أن يرغم الحسين على بيعته وإلا فلا لغة بينهما إلا لغة السيف والقتل.. فتاريخ معاوية الدموي لا يُنكره عاقل، ومن ينفي ذلك هو المطالَب بالدليل، ولا بد من قراءة بعضٍ من تلك السيرة الحافلة بالقتل، فمن كتاب للإمام الحسين عليه السلام وجّهه إلى معاوية «ألست القاتل حجر بن عدي أخا كندة[٢] وأصحابه المصلين العابدين، الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر،

---

(١) الحديث لأمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، خطبة ١٠٩.

(٢) كندة هي من بني كهلان، وبلادهم في اليمن، وكان لكندة مجدها في الإسلام.

ولا يخافون في الله لومة لائم؟ ثم قتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما أعطيتهم الأيمان المغلظة، والمواثيق المؤكدة ألا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم، جرأة على الله واستخفافاً بعهده.

أو لست بقاتل ابن الحمق صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وآله العبد الصالح، فقتلته بعدما آمنته.. ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان، والعهود والمواثيق، لم تفعل ذلك إلاّ لذكرهم فضلنا، وتعظيمهم حقّنا، وليس الله بناسٍ لأخذِكَ بالظنة، وقتلك أولياءه على التهم، ونفيك أولياءه من دورهم إلى دار الغربة»[1].

ولا بد هنا من تسليط الضوء على قائمة المقتولين من قبل معاوية ولنبدأ مع حجر رحمه الله.

أ ـ حجر بن عدي الكندي:

وهو من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ومن رجالات الكوفة المعروفين، وقد وصفه الحاكم في المستدرك بأنه: راهب أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، كان الزاهد والعابد، بل كان يُعرف بأنه مُجاب الدعوة[2]. قتله معاوية مع ستة من أصحابه في منطقة تعرف بـ(مرج عذراء) بغوطة دمشق.

(١) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٨٩ ـ ١٩٠؛ وأعيان الشيعة، ج٤ قسم أول ١٤٣ ـ ١٤٦.

(٢) أصابته جنابة عندما كان أسيراً، فدعا الله فانسكبت له سحابة ماء، فأخذ منها الذي احتاج إليه، فقال له أصحابه: ادعُ الله أن يخلصنا، فقال: اللهم خر لنا. جاء ذلك في الإصابة، ج١ ص٣٢٩.

أما عن سبب قتله، مع أن أمثال معاوية لا يحتاجون إلى سبب للقتل، فهو لسان حجر الذي كان كالسيف المسلّط على الظالمين، فذات يوم كان يردّ على المغيرة بن شعبة وزياد بن سميّة أو ابن أبيه حين شتما أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «أنا أشهد أن من تذمّون أحق بالفضل، ومن تزكّون أولى بالذم، وكان إذا جهر بكلمته هذه، وافقه أكثر من ثلثي الناس، وقالوا: «صدق والله حجر وبرّ»[1]، لما اعتقل حجر، أودِع في سجن الكوفة عشرة أيام ليجمعوا معه أصحابه، ثم أُمِر بهم أن يُساقوا إلى الشام، حيث كان وضع الكوفة في حالة غليان شديدة بما يمثل حجر في الكوفة من حضور معنوي، فأمر زياد بن أبيه بإخراجهم ليلاً ليحلوا لخفافيش الليل أن يتستروا على فعلتهم، فساروا بهم إلى مرج عذراء فحُبسوا هناك ليأتي قرار معاوية النهائي في أمرهم، بعد أن طال البريد ما بين معاوية وزياد، إلى أن جاء الأمر بقتلهم مع رسل معاوية، وكانوا يحملون الأكفان وعلى رأسهم أعور معاوية فقال لحجر «إن أمير المؤمنين[2] أمرني بقتلك يا رأس الضلال! ومعدن الكفر والطغيان.. والمتولي لأبي تراب، وقتل أصحابك إلا إن تتراجعوا عن كفركم، وتلعنوا صاحبكم وتتبرأوا منه» فقال حجر وأصحابه: «إن الصبر على حدِّ السيف لأيسر علينا، فما تدعوننا إليه ثم القدوم على الله وعلى نبيّه وعلى وصيّه أحب إلينا من دخول النار» وحفرت القبور وقام حجر وأصحابه يصلون

---

(١) صلح الحسن عليه السلام، للشيخ راضي آل ياسين، ص٣٣٠.

(٢) كانت تسمية معاوية بأمير المؤمنين واحدة من تلك التدليسات التي كانت سائدة في ذلك العصر الجاهلي، مع أن الرجل هو أمير المجرمين السفاكين للدم.

ويتعبّدون، وكان آخر صلاة لحجر لم يطل فيها الركوع والسجود وقال لهم: والله ما صليت صلاة أخف منها، ولولا أن تظنوا فيّ جزعاً من الموت لاستكثرت منها» ثم قال: «اللهم إنا نستدعيك على أمتنا، فإن أهل الكوفة شهدوا علينا، وإنّ أهل الشام يقتلوننا، أما والله لئن قتلتموني، فإني لأول فارس من المسلمين هلك في واديها، وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها»(١) وهو يوم فتحها(٢). ولما ارتعد حجر قالوا له: زعمت أنك لا تجزع من الموت، فابرأ من صاحبك وندعك! فقال: «مالي لا أجزع وأرى قبراً محفوراً، وكفناً منشوراً، وسيفاً مشهوراً، وإني والله إن جزعت من القتل، لا أقول ما يسخط الرب» وقال حجر في آخر كلماته: «لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً، فإني لاقٍ معاوية غداً على الجادّة وإني مخاصم»(٣). وقد حدّث التاريخ أن معاوية في لحظاته الأخيرة له في حياته تذكر كلمات حجر فجعل يغرغر بالصوت وهو يقول: «يومي منك يا حجر يوم طويل» وقال ابن عساكر: «إن عائشة بعد أن أنكرت على معاوية قتله حجراً وأصحابه، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم وأهل السماء»(٤).

ولقي معاوية بعد مقتل هذه الثلة المباركة، الحسين بن علي عليه السلام

---

(١) ابن الأثير، ج٣ ص١٩٢.

(٢) يا لسخرية الأقدار كيف يكافئ حجر على جهاده، الذي فتح مرج عذراء ونبحته كلابها، فيفتح قبره ظلماً وعدواناً؟ فهي قواميس مقررات معاوية ودساتيره الخرقاء!

(٣) المصدر السابق.

(٤) صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين، ص٣٣٩.

في مكة، فقال له: «هل بلغك ما صنعنا بحجر وأصحابه وأشياعه وشيعة أبيك؟ فقال عليه السلام: وما صنعت بهم؟ فقال معاوية: قتلناهم وكفنّاهم وصلينا عليهم ودفناهم! فضحك الحسين عليه السلام ثم قال: «خصمك القوم يا معاوية، لكنا لو قتلنا شيعتك، ما كفنّاهم، ولا صلينا عليهم، ولا قبرناهم»[1]، لأن من يقتل بأيدي الأئمة الأطهار يخرج من دائرة المسلمين حكماً.

أما أصحاب حجر الذين استشهدوا معه في مرج عذراء فهم:

شريك بن شداد أو ثداء الحضرمي، وصيفي بن فسيل الشيباني، وعبد الرحمن بن حسان العنزي، وقبيصة بين ربيعة العبسي، وكدام بن حيان العنزي، ومحرز بن شهاب بن بحير بن سفيان بن خالد بن منقر التميمي[2].

ب ـ عمرو بن الحمق الخزاعي:

وهو الصحابي الذي حظي بدعوة النبي صلى الله عليه وآله بأن يمتعه بشبابه. حيث مرّت عليه ثمانون سنة ولم ير شعرة بيضاء في لحيته، وقد شهد مع أمير المؤمنين عليه السلام الجمل وصفين والنهروان، وقد دعا له الأمير عليه السلام بقوله: «اللهم نوّر قلبه بالتقى، واهده إلى صراطك المستقيم» وقال له: «يا عمرو إنك لمقتول بعدي، وإن رأسك

(١) البحار وغيره، وروى مثلها الطبري وابن الأثير.

(٢) من أراد المزيد من المعلومات عن حجر وأصحابه فليراجع الدينوري وابن الأثري والطبري وابن أبي الحديد والاستيعاب والنصائح الكافية.

لمنقول، وهو أول رأس ينقل في الإسلام، والويل لقاتله»[١]، عمرو هذا المجاهد التقي، أمر معاوية بأن يُطعن تسع طعنات كما فُعل بعثمان فطُعن ومات بالطعنة الأولى أو الثانية رحمه الله.

ج ـ عبدالله بن يحيى الحضرمي وأصحابه:

كان من أصحاب ورجال أمير المؤمنين عليه السلام، وكان عبد الله من أبعد الناس عن الدنيا، وكانت سيرته مملوءة بالزهد وأقرب إلى حياة الرهبنة، لم يكن يتعاطى الشأن السياسي، إن ذنبه الوحيد الذي كلّفه حياته هو حزنه على استشهاد الإمام علي عليه السلام هو وأصحابه، فما كان من جماعة معاوية إلاّ الهجوم على صومعة عبادتهم وقتل مَن فيها، لأن قلوبهم كانت تخفق بحب علي عليه السلام وتحزن لفراقه عليه السلام وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام في كتاب وجهه إلى معاوية إلى هؤلاء الثلّة بقوله: «أولست صاحب الحضرميين الذين كتب فيهم ابن سمية أنهم على دين علي (صلوات الله عليه)، فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين علي فقتلهم، ومثّل بهم بأمرك، ودين علي هو دين ابن عمه صلى الله عليه وآله الذي كان يضرب عليه أباك ويضربك، وبه جلست مجلسك الذي أنت فيه»[٢].

د ـ رُشيد الهجري:

وهو تلميذ أمير المؤمنين عليه السلام والعالم بعلم البلايا والمنايا،

---

(١) سفينة البحار، ج٢ ص٣٦٠.

(٢) الإمامة والسياسة، ج١ ص١٨٩ ـ ١٩٠.

جيء به إلى زياد بن أبيه فقال له: ما قال لك خليلك ـ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ـ إنا فاعلون بك؟ قال: تقطعون يدي ورجلي وتصلبونني، فقال زياد بن سمية: أما والله لأكذِّبن حديثه، خلوا سبيله، فلما أراد أن يخرج قال: ردّوه، لا نجد لك شيئاً أصلح مما قال صاحبك، إنك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت، اقطعوا يديه ورجليه، فقطعوها وهو يتكلم! فقال: اصلبوه خنقاً في عنقه، فقال رُشيد: قد بقي لي عندكم شيء ما أراكم فعلتموه، فقال زياد: اقطعوا لسانه، فلما أخرجوا لسانه قال: نفّسوا عني حتى أتكلم كلمة واحدة، فنفّسوا عنه فقال: «هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين، أخبرني بقطع لساني»[1]، وأُخرج مقطعاً، واستُشهد من ليلته رحمه الله.

ومن أوائك المستشهدين والمقتولين على يد معاوية جويرية بن مسهر العبدي الذي أخبره بأمر شهادته سيد الوصيين عليه السلام، وأوفى بن حصن الذي كان لبقاً في معارضته وحكيماً في وعظه، وهذا لم يخلصه من براثن ظلم معاوية حين أمر زياد بقتله.

ولا نستطيع في عجالتنا هذه إحصاء قائمة المقتولين والمروَّعين والمسجونين بسبب قرارات وأوامر معاوية، الذي خفي عليه أن القتل في سبيل الله، والإرهاب الذي يستعمله الطواغيت لن تكون نتائجه إلا لمصلحة الحق والمحقين، ومن يشك بهذه المعادلة فليدرس في النتائج والمحصلة ليدرك من خلالها استمرارية الحق وأهله وتمجيد الناس لهم وإعلاء قبابهم ومآذنهم بينما يجد في

---

(١) سفينة البحار، ج١ ص٥٢٢.

الطرف الآخر قبوراً دُرِسَت حيث لا يتشرف مسلم حتى بزيارتهم هذا إن عرفها، هذا فضلاً عن إقامة المراسيم لها: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

* معاوية في ميزان محمد صلى الله عليه وآله

معاوية ابن أبي سفيان هو من تلك السلالة التي أضمرت الشرّ للإسلام، والتي لم تترك فرصة سانحة للنيل من عظمة الدين وعظمائه إلا وتلقّفتها واستغلها أيما الاستغلال، يقول بحقه رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»، وبلفظ آخر عنه صلى الله عليه وآله عن عبدالله بن مسعود، قال النبي صلى الله عليه وآله: «إذا رأيتم معاوية بن أبي سفيان يخطب على المنبر فاضربوا عنقه»[2].

معاوية هذا الذي شكَّل للبيت الأموي عيناً ورمزاً، برز للناس بجلباب الحريص على الدين، وقد خدع الكثير من المسلمين به، ثم ظهرت حقيقته بعد فوات الأوان، فهو وإن غلّف نفسه وستر ذاته بلباس الإسلام في عصره، لكنه لدى الباحث عن الحق يظهر على حقيقته وتَبينَ للرجل عيوبه ويبقى بلا ستر حتى من ورقة التين. ولئلا ندخل رحاب البحث عنه بخلفية الاتهام، رغم أنه غاص في أعماق الرذيلة والإجرام وتجاوز كل الحدود والمسلمات والضوابط، تعالوا نقرأ معاً ما ورد عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله حوله فقد قال صلى الله عليه وآله:

---

(١) آل عمران: ٢٦.

(٢) أنساب الاشراف، البلاري، ج٥ ص١٣٠.

«يطلع من هذا الفج رجل يحشر على غير ملتي» فطلع معاوية[1]، ورأى الرسول الأكرم ذات يوم أبا سفيان مقبلاً على حمار، ومعاوية يقود به، ويزيد ابنه يسوق به، فقال ﷺ: «اللهم إلعن القائد والسائق والراكب»[2].

ونقل الإمام الحسن عليه السلام عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو ابن مدرسة الرسول الأكرم ﷺ وباب مدينة علمه فقال: «إن أمير المؤمنين عليه السلام قال لي ذات يوم وقد رآني فرحاً: يا حسن أتفرح؟ كيف بك إذا رأيت أباك قتيلاً؟ كيف بك إذا ولي هذا الأمر بنو أمية، وأميرها رحب البلعوم، الواسع الإعفجاج (أي واسع الكرش والأعضاء)، يأكل ولا يشبع، يموت وليس له في السماء ناصر ولا في الأرض عاذر، ثم يستولي على غربها وشرقها، تدين له العباد ويطول ملكه، يستنّ بسنن البدع والضلال ويمُيت الحق وسُنّة رسول الله ﷺ، يقسم المال في أهل ولايته، ويمنعه من هو أحق به، ويذلّ في ملكه المؤمن، ويقوى في سلطانه الفاسق، ويجعل المال بين أنصاره دُولاً، ويتخذ عباد الله خِوَلاً، ويُدرس في سلطانه الحق، ويظهر الباطل، ويقتل من ناواه على الحق، ويدين من والاه على الباطل، فكذلك حتى يبعث الله رجلاً في آخر الزمان وكَلَبٍ من الدهر (الكَلِب شبيه بالجنون)، وجهل من الناس، يؤيده الله بملائكته، ويعصم أنصاره، وينصره بآياته، ويُظهره على الأرض، حتى يدينوا طوعاً وكرهاً، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ونوراً، يدين له

---

(١) تاريخ الطبري، ١١/ ٣٥٧.

(٢) تاريخ الطبري، ج١١؛ وفي نص آخر لعن الله القائد والراكب والسائق، المصدر السابق.

عرض الأرض وطولها، لا يبقى كافر إلا آمن، ولا طالح إلا صلح، وتصطلح في مُلكه السباع، وتُخرج الأرض نبتها، وتُنزل السماء بركتها، وتُظهر له الكنوز يملك ما بين الخافقين أربعين عاماً، فطوبى لمن أدرك أيامه وسمع كلامه»[١].

وفي احتجاج الإمام الحسن عليه السلام في مجلس معاوية، وكان في المجلس عمرو بن العاص، وعتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، والمغيرة بن أبي شعبة. خاطب الإمام المجتبى عليه السلام معاوية: «وأشهدكم وأشهد عليكم: أنكم لعناء الله على لسان نبيه كلكم.

وأنشدكم بالله هل تعلمون: أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث إليك لتكتب له لبني خزيمة حين أصابهم خالد بن الوليد فانصرف إليه الرسول فقال: «هو يأكل» فأعاد الرسول إليك ثلاث مرات كل ذلك ينصرف الرسول إليه ويقول: «هو يأكل» فقال رسول الله: «اللهم لا تشبع بطنه» فهي والله في نهمتك، وأكلك إلى يوم القيامة»[٢].

وفي رواية عن فاطمة بنت قيس بعد أن طلقت من أبي عمرو بن حفص واعتدّت طلبت من رسول الله المشورة في أمرها لأنها كانت بين خاطبَيْن لها: معاوية بن أبي سفيان وأبو جَهَمْ، فقال الرسول صلى الله عليه وآله: «أما أبو جهم فلا يضع عَصَاه على عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة بن زيد»[٣].

---

(١) احتجاج الطبرسي، ج١ ص٢٩١.

(٢) المصدر السابق، ج١ ص٢٧٤.

(٣) صحيح مسلم رقم ١٤٨٠، وهذه رواية سنية بالمطلق، وهي في صحيح أبي داود، الألباني، ص١ والرقم ٢٢٨٤.

والصعلوك في اللغة هو الذي لا يملك المال ويكون فقيراً، وصعلوك العرب معناه فتاكها. واستعمل في الغالب لذمّ الشخص وليس لمدحه.

وعلى أي حال فأحاديث النبي بحق معاوية كثيرة، ولعلّ أقلّها ذمّاً هي حديث الصعلوك الذي رواه من يؤيدون سياسة معاوية ونهجه.

ولا يخفى على عاقل أن النبي محمد ﷺ وبما كُشف له من بصيرة وبما أخبره الله بالمستقبل كان يعلم أن معاوية سيتولّى شؤون الحكم وهو لا يملك الحد الأدنى من الأهلية والجدارة، فحذّر منه المسلمين حتى أنه أمر بقتله، لكن لا حياة لمن تنادي!، وكأنه ﷺ أوصى بقتل من عاداه معاوية ونصب له العداوة.

وكان الإمام الحسن المجتبى عليه السلام إذا حدّث بحديث الرسول الذي يدعو إلى قتل معاوية إذا رآه الناس يخطب على منبره، كان يظهر التأثر عليه ويقول: «فما فعلوا ولا أفلحوا»[١]. وطالما نتحدث عن أحاديث الرسول بحق معاوية وذمّ أفعاله، فلا بدّ من الإشارة هنا إلى نص نُسِب إلى رسول الله ﷺ جاء بصيغ متقاربة وعبارات مختلفة أُعجب بهم معاوية أيما إعجاب، يقول: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله تبارك وتعالى به بين فئتين من المسلمين». وقد رواه البخاري في كتاب الصلح من صحيحه، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده، وابن حجر في الإصابة. لكن مصدر الحديث هو أبو بكرة شقيق زياد من أمه سمية، ولعل المصدر الوحيد الذي روى عن النبي

---

(١) وقعة صفين.

الأكرم هذا الحديث هو أبو بكرة[١]، وقد اعتبر بعض المؤلفين والكتّاب أن هذا الحديث فيه من الفضل للإمام الحسن عليه السلام الشيء الكثير، لكن خفي على قسم من هؤلاء الذين نجلّهم ولا نشك في خلفيات بعضهم ونواياهم ومنهم سماحة الشيخ راضي آل ياسين (صلح الحسن عليه السلام) وقد خفي عليهم أن هذا الحديث يعطي شرعية لمعاوية، وقد أجاد سماحة السيد هاشم معروف الحسني حينما قال: (وقرّت بهذه الرواية عين واضعها معاوية بن أبي سفيان لأنها اعتبرته إحدى الفئتين المسلمتين العظيمتين، في حين أن القرآن الكريم يراه من البغاة الذين يجب على المسلمين قتالهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، كما اعتبره النبي صلى الله عليه وآله باغياً كما يستفاد ذلك من قوله صلى الله عليه وآله لعمار: (يا عمار تقتلك الفئة الباغية)[٢].

وقد تقدم حديث الإمام الحسين عليه السلام الذي أجاب به معاوية فقال: (... لكنا لو قتلنا شيعتك، ما كفنّاهم ولا صلينا عليهم ولا قبرناهم)[٣]. وهذا دليل واضح أن الإمام عليه السلام يعتبر معاوية وأنصاره وشيعته ليسوا من المسلمين وإنما من البغاة، والذي يُقرّب فكرة أن القول هو من موضوعات معاوية واختراعات أقلامه المسمومة، هو أن معاوية كان دائماً يكرّره ويردّده ليكون محفوظاً عند المسلمين،

---

(١) أبو بكرة هو نفيع بن الحارث بن كلدة، سمي بأبي بكرة لأنه تدلّى من حصن الطائف يوم حاصرها النبي صلى الله عليه وآله.

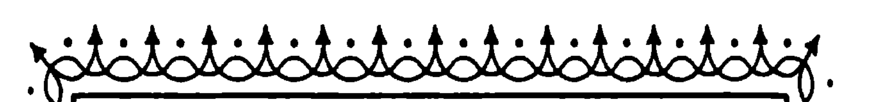
(٢) سيرة الأئمة الإثني عشر، ج١ ص٥٨٧؛ وذكر في الحديث النبوي مسند أحمد بن حنبل، ج٢ ص١٩٩.

(٣) تقدم الحديث تحت عنوان (من سجلات معاوية) وذكرها البحار والطبري وابن الأثير.

تماماً كتلك المحفوظة التي أشارت إلى حديث الرسول ﷺ الصحيح والذي وصف قاتل عمار بن ياسر بالفئة الباغية، وعلى أي حال فمعاوية لم يكن يخفي بغضه للنبي ﷺ في مجالسه الخاصة، وقد أزعجه أن يسمع في كل يوم باسمه خمس مرات في الآذان، وقد بلغ في بُغضه أنه مكث في أيام خلافته أربعين جمعة لم يكن يصلي فيها على النبي ﷺ ولما سُئل عن ذلك فقال: «لا يمنعني من ذكره إلا أن تشمخ رجال بآنافها»[1]، فيا سبحان الله من يحسد مَن؟ ومن يتطاول على مَن؟ لكنّها الدنيا الخادعة وهو على شاكلتها.

---

(1) ابن أبي الحديد، ج2 ص357.



الفصل الثالث

برنامج الإمام الحسن عليه السلام

* ماذا يريد المجتبى عليه السلام؟
* مصداق الإرادة الإلهية
* قراءة الماضي بعين الحاضر
* إمامة الحسن والدور المنتظر
* مستلزمات البيعة
* دعوة الإمام ـ ومراوغة المدعو



برنامج الإمام الحسن عليه السلام

مما لا شك فيه أن مشروع الإمام الحسن عليه السلام لا ينفك عن المشروع الإلهي الذي يقيم العدالة في الأرض، لكن الواقع الذي واجهه كان غاية في الإحكام والتفنّن الشيطاني الخبيث. هذا الواقع لم يبدأ مع الإمام المجتبى عليه السلام، إنما بدأ مع اللحظة الأولى التي انطلق فيها الرسول صلى الله عليه وآله داعياً ومبلغاً، ما اعتبر أنه يشكل خطراً كبيراً على طواغيت ذلك العصر، فانطلقت المؤامرات وعُقدت المؤتمرات لغاية ضرب حقيقة الإسلام الناصعة. وكان من أخطر تلك الخطوات هو الدخول الشكلي في الإسلام، حيث استطاع هؤلاء أن يبتدعوا في عقائد الناس ويزوّروا في التاريخ وأن يقلبوا الحقائق ويضربوا في جذور الحقيقة تاريخنا المجيد. ولم يكن إمامنا الحسن عليه السلام وحده في تعرّضه لهجمات إعلامية مغرضة، إنما سبقه في ذلك جدّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الذي طاله الإعلام المزيف حتى أظهره صلى الله عليه وآله على غير حقيقته، في الوقت الذي أراد البعض إضفاء الشرعية على بعض الخلفاء.

فقد تناولوا شخصية أعظم مخلوق في الدنيا وشوّهوا صورته بما لا يليق بمقامه الشامخ عند الله، وبما يناقض ما جاء به القرآن

الكريم من مدح وثناء عليه ﷺ. وصوّروا النبي بصورة هي صورة إنسان لا يعرف ماذا يريد! وأن له ﷺ شيطان يعتريه، وأنه ﷺ كان يستمع إلى غناء الجواري وضرب الدفوف وأنه ﷺ كان يسابق زوجته عائشة في الجري، فكان يغلبها تارة وتغلبه أخرى، وأنه ﷺ قد عشق زوجة ابنه بالتبني بعد أن افتُتن بها(١).

وأن الرسول ﷺ لما كان في مجلس الطرب وجاء عمر بن الخطاب، فطلب منهم ﷺ أن يُبعدوا الدفوف لمجيء عمر، ونسبوا إليه قوله ﷺ: إن الملائكة لتستحي من عمر، ويا سبحان الله! فهل تستحي من عمر ولا تستحي من رسول الله ﷺ؟

إنها حقاً المعادلات المقلوبة والمقاييس المعكوسة..

هي المفاهيم نفسها التي صوّرت إمامنا الحسن عليه السلام بالشكل الذي استطاعت فيه قلب الحقائق وتشويهها، والإساءة إلى حُبّ رسول الله ﷺ وهو الإمام الحسن عليه السلام ـ فتعالَ قارئي نتعرّف على برنامجه ومشروعه عليه السلام.

* ماذا يريد المجتبى؟

قيل لأحد العرفاء: ماذا تريد؟ فأجاب: أريد أن لا أريد.. وإذا توجه السؤال إلى الإمام الحسن عليه السلام فإن جوابه الحتمي وإرادته عليه السلام هي إرادة الله سبحانه، حيث لا يمكنه التصرّف إلا بحدود الإرادة الإلهية، التي يجسّد مظهرها عليه السلام، وأن تكون الدنيا كلها مطيعة مذعنة مستسلمة لخالقها وصانعها.

---

(١) صحيح البخاري، ج١ ص١٦٩، باب في العيدين والتجمل ـ طبعة بيروت.

يقول سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[(١)]. والإمام يريد للأمة أن تعبد الله ولا تشرك بعبادة ربها أحداً، وأن تلتزم طاعته عزّ وجلّ دون تردد أو حرج كما يقول عزّ من قائل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[(٢)]. وبهذا أخبر الله سبحانه نبيه الأكرم أن من يدّعون الالتزام والإيمان، فَهُمْ وربِّك يا رسول الله لا يؤمنون إلا بعد احتكامهم ورجوعهم إليك، في كل ما يختلفون فيه ويتشاجرون حوله، ثم لا يكون في أنفسهم أي نوع من الحرج أمام حكم الله وقضائك بينهم، فيسلّموا لك الأمر والنهي دون تردّد، حتى لو كان الحكم لغير مصلحتهم، ومن هذا المنطلق أراد حفيد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أن تكون الأمة مذعنة في أمورها مستسلمة في إرادتها إلى مولاها الحق تبارك وتعالى، بأفرادها الذين امتحن الله سبحانه، فلا يزلون ولا يتزحزحون عن درب الحق مهما كلّف ذلك من تضحيات.

أراد الإمام الحسن عليه السلام في كل سيرته وحياته ومسيرة جهاده أن يكون الحكم لله، لأن البديل عنه هو حكم الجاهلية، فهو عزّ وجلّ الأدرى بصالح عباده، يقول تبارك وتعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[(٣)] وأي حكم آخر فهو ليس له صلة بالله ولا بالتكاليف الشرعية، إنما هو حكم الجاهلية الذي يكون على حساب حكم الله، لذا أتى الخطاب الإلهي في ذيل وآخر الآية

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) النساء: ٦٥.

(٣) المائدة: ٥٠.

الكريمة﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا...﴾ فالله تعالى هو الخبير بشؤون العباد، وهو البصير بأوضاعهم، والعالم بوساوس أنفسهم، ومكامن صدورهم وما تخفي، ونزغات الشيطان وما يغوي. وحتى لا تكون مرجعية الإنسان نفسه، ومقياس المرء رغباته وشهواته، أخبرهم رب العباد بأنهم غير لائقين للرجوع إلى أنفسهم لأنها شديدة الإمرة بالسوء، وأرشدهم إلى الأنبياء والأوصياء الذين اندمجوا بالرسالات الإلهية حتى خامرت أرواحهم قُدّس سبحات وجهه تبارك وتعالى، وتعلّقت قلوبهم بكمال الانقطاع إليه عزّ وجلّ، فلم تعد نفوسهم تعبِّر إلا عن الوحي والرسالة، ولم تعد أفئدتهم تُجاور وتسامر إلاّ غاية آمال العارفين، فهم يعبّرون عن السماء وينطقون عن الوحي، إذ لا خصوصية لأشخاصهم ولا ذاتية لأنفسهم، لذلك كانت فلسفة العصمة الملاصقة لهم، والمفترضة الوجود لأفرادٍ هم أسمى آيات الوجود.

* مصداق الإرادة الإلهية

إن الأئمة الأطهار الذين يجسدون الطهر والقداسة، إذا أرادوا فيكون الله هو الذي أراد، لأنهم غير منفصلين إطلاقاً عن الوحي والرسالة، فَهُم من ذلك النور الإلهي، الذي أخرجه الله من صلب نبي من أنبيائه المفضّلين على جميع الأنبياء «أُخرِج من ذلك النور أئمة يقومون بأمري، يهدون إلى حقي، وأجعلهم خلفاء في أرضي بعد انقضاء وحيي»[1] كما في الحديث القدسي.

(١) الطبري، نوادر المعجزات، ص٨٢؛ تقدم الحديث عن الأئمة عليهم السلام في فصل من هو الإمام الحسن عليه السلام.

ومَن يكن من تلك المعادلة ومن ذاك المعدن، فهو ينطق عن الله، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه عزّ وجلّ، ولا يستوعب غير ذلك، بل ولا يعمل إلا من وحي ذلك، أما الانتماء لحكم آخر فهو الكفر بذاته والظلم والفسق.

يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(١) ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٢) ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٣).

أمام هذه الآيات البينات، هل يمكن للباحث أن يكون مضطراً للسيل من الأدلة التي تدل على أن إمامنا الحسن عليه السلام لم تكن له إلا إرادة السماء؟ ولم يكن يملك إلا تلك الإرادة؟ وهل يكون الصلح الذي اختاره الإمام عليه السلام هو لحفظ حياته، أم لحفظ الإسلام؟

وهل يمكن للتاريخ أن يكون مجافياً للحقيقة إلى الحدّ الذي يسعى الباحث فيه إلى رفع الشكوك ودفع الاتهامات التي تنال ليس من رجل من أهل الجنة فحسب، وإنما تنال وتطال سيداً من سادة وشباب أهل الجنة؟ وهل يمكن لرجل إلهي عظيم أن يدخل في صلح ليس فيه مصلحة للإسلام حتى يحفظ نفسه وحياته؟

مع أن وجوده لا ينفك التحامه بالسماء، فهو لا يعيش لنفسه ولا لحياته الشخصية، إنما هو المظهر الحقيقي للإرادة الإلهية التي هي الميزان.

---

(١) المائدة: ٤٤.

(٢) المائدة: ٤٥.

(٣) المائدة: ٤٧.

ولو صحّ أن الإمام الحسن عليه السلام يريد النجاة والحياة لنفسه، فكيف نتعامل مع كلمات النبي صلى الله عليه وآله وحبّه له وشغفه به؟[1].

وهل يُعقل أن يزكي النبي ويمدح رجلاً يسالم من أجل حياته؟ هذا لو سلّمنا جدلاً بهذه الفرضية.

ولو طال التشكيك حتى لأحاديث النبي واتّهمناه في مدحه وحبه، وقلنا مقالة الفلاسفة (فرض المحال ليس بمحال) فلا أدري ماذا سيبقى لنا من مقدّسات وحرمات؟

معاذ الله أن يقول الرسول صلى الله عليه وآله أمراً من عنده، فهو ينطق عن الله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[2]، فإذا قال النبي قولاً فهو قول الله وإذا مدح الرسول إنساناً فهو مدح الله، بل إذا أحب النبي شخصاً فهو حبُ الله، وإذا كره أمراً فهو كُره الله، ولا أدري كيف يمكن للمرء منا أن يحبَّ النبي، ولا يحب علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً.

لا أدري ـ والله ـ كيف يمكن لنا أن نتذوق حلاوة حب المصطفى، دون أن نتذوق محبة المجتبى عليه السلام! وعلى أي حال أحيل القارئ العزيز وقبل أن يتعجّل في الحكم على برنامج الإمام

---

(١) أشير هنا إلى جزء من حديث الرسول الأكرم وقد تقدّم معنا تحت عنوان المجتبى على لسان المصطفى، قال فيه صلى الله عليه وآله: «أمره أمري، وقوله قولي، من تبعه فإنه مني، ومن عصاه فإنه ليس مني». فوائد السبطين، ج٢ ص٣٥. فما على القارئ إلا الوقوف عند هذا الحديث واستقراء كل الأحاديث النبوية التي وصفت منزلة الإمام الحسن عليه السلام ليسهل عليه الفهم والتبصّر.

(٢) النجم: ٣ ـ ٤.

الحسن عليه السلام أن يدرس الظروف المحيطة والأسباب الضاغطة لا من منطلق حاضره، بل من منطلق ماضي الإمام وتلك الحقبة الزمنية الصعبة والأليمة، التي مهما سبرنا أغوارها وتعمّقنا في معرفة أحداثها فلن نستوعب عمق الظروف ومرارة العواصف التي مرّت على إمامنا الحسن عليه السلام.

* قراءة الماضي بعين الحاضر

إن نظرة متأنية للظروف التي واجهها الإمام الحسن عليه السلام، مهما كانت دقيقة وموضوعية، تجعل الباحث التاريخي لا يغض الطرف عن كل الأحداث بتفاصيلها وجزئياتها، فحتى لو توغّلنا في المعلومات وسبرنا أغوار الأحداث المفصلية تبقى المعطيات أسيرة النصوص وحبيسة القراطيس بين دفّتي أي كتاب أرّخ الماضي وسجّل أحداثه، فما يردنا من معلومات مهما كَثُرت وتعدّد ناقلوها واختلفت مصادرها، فإنها قابلة للقبول والرفض، وهنا تكمن خطورة التعاطي مع أي حدث يُذكر بخلفية ويُقبل أو يُرفض بخلفية دون الرجوع إلى معايير سليمة تحدّد الصحيح من الخطأ، والسليم من السقيم[1].

(١) نذكر على سبيل المثال قصة تعدّد الزوجات للإمام الحسن عليه السلام والتي ذهب المؤرخون فيها إلى مذاهب شتى، وهناك من قَبِلَ بتلك الشائعات ظناً منهم أنها لا تنال من مقام إمامنا عليه السلام واعتُبِر أنها إن دلّت على شيء فإنها تدل على رجولة إمامنا عليه السلام وقد غاب عن هؤلاء أنهم قد وقعوا في فخ الدعايات المغرضة والموجهة، فإذا كان التنافس في الدنيا على الجاه الأكثر والزوجات المتعددة، فليس معنى ذلك أن نحمّل معاييرنا الجاهلية إلى أئمة الهدى عليهم السلام.

فحتى المعلومات الصحيحة والموثقة والمتينة سنداً ومضموناً، فهي غير كافية لتسلّط الضوء على عمق الأحداث، والشاهد على ذلك أن أحداثاً نعيشها في زماننا الحاضر، وتنقلها محطات التلفزة الفضائية وكافة وسائل الإعلام، إلا أنها تصل مُسيّسة وضمن خلفيات متعدّدة، فلا يمكننا على ضوئها تقييم أو تقويم[1] الأمور واستخراج النتائج بدقة، بحكم عدم توافر المعلومات الكافية والمعطيات الصحيحة، فيحلل كلّ على مزاجه ومن منطلقات متنوعة كلّ حسب ثقافته، هذا إذا كانت الأحداث معاصرة وتُنقل للمستمع والمُشاهِد بثاً حياً مباشراً، وهنا مهما نُقلت الأحداث والمجريات، فإن المراسلين سيسلطون الأضواء على جوانب معينة قد لا تكون مهمة على مستوى الحدث، بينما تترك في المقابل جوانب مهمة وأساسية ومفصلية، كل هذا إذا كنا نعاصر تلك الأحداث، فكيف بنا إذا تصدّينا لمعرفة الظروف التي واجهها إمامنا العظيم الحسن بن علي عليه السلام؟ فالمعرفة القليلة المتواضعة التي هي بمثابة قراءة صفحة في مجلّد ضخم جداً، لا يمكن أنْ توصل الأمور كما هي، وإن أوصلت بعضاً من تلك الحقائق، فإنها بلا شعور وإحساس، وإن عشنا مشاعرها فإننا نعيشها بمشاعرنا الآنية والمحدودة، فقد تلفت انتباهنا أحداثُ غير مهمة في الوقت الذي نمرّ على الأحداث المفصلية مرور الكرام.

إن سيرة الإمام الحسن عليه السلام مليئة بالكثير من الأحداث الهامة، الله وحده العالم بما كان عليه إمامنا من ظروف قاسية وقاهرة، وهو

---

(١) يقال كلمة تقييم خطأ شائع، والأصح استعمال كلمة تقويم والله العالم.

العالم كيف عاشها وتجرّع غُصصها وكيف تحمّل مرارة المزايدة، فقد نعيش بعضاً منها فنستخدم نصاً نشعر من خلاله بأنه وافٍ وكافٍ في إبراز حقيقة الأحداث، ونتخيل أننا استطعنا أن نعيش أحداثها بمشاعرنا الجياشة.

وعلى أي حال فإن الذي يفصلنا عن تلك الأحداث أكثر من ألفٍ وثلاثمائة وثمانين عاماً، وهو رقم غير عادي وزمن طويل جداً، فالأجيال قد اختلفت، والعادات أخذت ألف لون ولون، والتقاليد تباينت، وكل ما في الدنيا تغيّر وتبدّل، بما فيها البشر والمسلمون. فهل باستطاعتنا أن نمخر عباب بحر القرون المتطاولة لنفهم المعطيات كما حصلت؟ دون أن يكون لنا نظرة مسبقة، حتى لا نكون كذاك الناظر من خلال نظّارته الحمراء فيرى اللفت شمندراً، وقد يقسم الإيمان المغلظة أن الذي يراه لا يمت بصلة إلى اللفت، لكنه إذا تخلّى عن نظّارته فهو يرى الأمور كما هي، وهذا هو حال الإنسان حينما ينظر إلى التاريخ بمنظار غير دقيق وضمن خلفيات معروفة وأفكار موجّهة، فقد يقع ضحية الأحداث والمتغيرات وهو يظن أنه غاية في الدقة والموضوعية، وقد يرتطم في الكثير من المحرمات ويتجاوز المقدسات، إذا لم يتقن دراسة التاريخ بتمعّن، ويبقى قول الله تعالى هو الحاكم في كل الأمور فيقول عزّ من قائل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[(١)].

---

(١) الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٦.

وعلى ضوء الآيات الكريمة يتبين لنا أنه ليس كل ما مَن يظن بنفسه وبعمله خيراً، أنه كذلك، فهناك من يعتقد بأنه يحسن صنعاً وعملاً، لكنه بالمنظار القرآني من الأخسرين أعمالاً، وهؤلاء سيجازيهم الله بما كفروا به وبآياته ورسله هزواً، وهم في الأثناء يظنون بأنفسهم ظن الخير وأنهم على بصيرة من أمرهم, هكذا يبدو لهم المشهد.

إنها الآخرة غاية المنى، فهي تستأهل البحث والتفكّر.. لا تغادر ـ أخا الإسلام ـ الدنيا دون أن تملك أجوبة عن حق الرسول وأهل بيته عليهم السلام.

فإن أجحف التاريخ بحق العظماء، لا ينبغي أن نكون كالوادي يردّد أصداء الماضي وكلمات الظالمين دون أن يكون لنا دور الفعل والنصرة والدفاع عن روّاد الحق والعدل!.. لا أن نكون مقلّدين لمن نظن أنهم كبار وهم في ميزان الحق صغار إلى حدود أنهم أشبه بالأقزام.

فتعال بنا أخي نبحر في الأحداث المؤلمة ونتعرف على الدور الريادي للإمام أبي محمد الحسن عليه السلام، لكن ليس بالأدوات التي اعتدتها في حياتك بعيداً عن الخلفيات الجاهلية والأفكار المسبقة، ولا تنس أنك مطالب بحق هذا البيت الطاهر بالمودة وأن تخلع عن نفسك كل انتماء عصبي جاهلي.

* إمامة الحسن والدور المنتظَر

بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام على يد عبد الرحمن بن ملجم المرادي، وبعد أن انتهى الإمام من مراسم دفن ثاني أعظم مخلوق في الدنيا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله اجتمع

المسلمون لمبايعة الإمام المجتبى عليه السلام، الإمام الذي نصّ على إمامته أمير المؤمنين عليه السلام، والإمام الذي نصبه النبي قبل ذلك مع أخيه الحسين عليه السلام بقوله صلى الله عليه وآله: «الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا»[١]، اجتمع المسلمون في مسجد الكوفة في صبيحة إحدى وعشرين من شهر رمضان المبارك في سنة الأربعين للهجرة النبوية الشريفة، ووقف الإمام الحسن معتلياً منصة الخطابة وبدأ بخطبته الشهيرة بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وبعد تعداده لخصال الأمير عليه السلام، قال عليه السلام: «لقد قُبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل، ولم يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيقيه بنفسه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يوجهه برايته فيكنفه جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن شماله، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه، ولقد توفي في هذه الليلة التي عرج فيها عيسى بن مريم عليه السلام وقبض فيها يوشع بن نون وصي موسى عليه السلام وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله»[٢] وهل يصدق هذا الوصف إلا على أمير المؤمنين عليه السلام؟ وهل يمكن أن يتحلّى بالأوصاف الفريدة والخصائص المميّزة غير علي عليه السلام؟ إن الواصف إمام والموصوف إمام، والخطيب مصقع يؤبّن أخطب العرب، فما أروع من الوصف إلا الموصوف، والمدح إلا الممدوح، فلن يتكرّر مثل هذا المشهد على مرّ التاريخ، فهو فريد في كل مستوياته وتفاعلاته، فهو وحده

(١) نزهة المجالس، ج٢ ص١٨٤.

(٢) أعلام الورى بأعلام الهدى، النصوص الدالة على إمامة الحسن عليه السلام، ص٢٠٦.

يسيل الدموع ويسكبها بمجرد استعادة الذكرى والذكريات، وفي الأثناء تتمثل للإمام صور أبيه المشرقة فيبكي وتخنقه العبرة ويبكي من حضر من المسلمين. ثم يكمل خطابه معرِّفاً عن نفسه فيقول عليه السلام: «أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن ابن علي، وأنا ابن النبي، وأنا ابن الوصي، وأنا ابن البشير النذير، وأنا ابن الداعي إلى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذي كان جبرائيل ينزل إلينا، ويصعد من عندنا.. وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. وأنا من أهل البيت الذين افترض مودّتهم على كل مسلم»[١].

بعد هذا الخطاب لإمامنا الحسن عليه السلام قام ابن عباس ودعا الناس إلى بيعته فاستجابوا له وبايعوه قائلين: «ما أحبّه إلينا وأحقّه بالخلافة»[٢]. وكان عدد المبايعين له أكثر من أربعين ألفاً.

حرص الإمام عليه السلام أن يتضمن خطابه التاريخي تعريف الناس بجهاد أبيه، وعظمة الليلة التي استُشهد فيها، وأنه عليه السلام رحل عن الدنيا ولم يترك من حطامها شيئاً، فعسى أن تخشع القلوب وتتغيّر النفوس وتُشحذ الهمم، ثم دعا عليه السلام الناس إلى مبايعته، وهي دعوة إلى الإسلام وليست دعوة شخصية، ومن هذا المنطلق عرّف عن

---

(١) المصدر نفسه، إعلام الورى، ص٣٣؛ الحاكم النيسبوري، المستدرك، ج٣ ص١٧٢، طبعة بيروت.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٣ ص١٧٠؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، ج١٦ ص٣٠ ـ ٣١.

نفسه ليقطع ذرائع الموتورين، فهو عليه السلام حفيد النبي، وابن الوصي، وهو من أهل بيت النبوة الذي فرض الله مودتهم على كل مسلم ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1].

وما التعريف عن نفسه وحسبه ونسبه إلاّ للحاضر والمستقبل، فهو عليه السلام ليس مقطوعاً من شجرة[2]، وإنما هو من تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وأعداؤه من الشجرة الخبيثة والملعونة في القرآن، فلا يتصور من يقرأ التاريخ أن الإمام الحسن عليه السلام يفتخر على الناس بقرابته وصلته الطاهرة، مع أن النسب مبعث للفخر والكرامة، لكنه عليه السلام كان يقدّم الأدلة الاحترازية لأنه كان يقرأ المستقبل جيداً وقد أخبره به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأوضح تفاصيله وأحداثه، وهو في الأثناء يُلقي الحُجّة على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وعلى أصحاب الأهواء والمنقادين بشهواتهم ورغباتهم إلى المشاريع الهدّامة.

* مستلزمات البيعة

لما أنهى الإمام خطابه، قام عبيدالله بن العباس يشجع الناس حتى يبايعوه عليه السلام فاستجاب الحضور لذلك، وأعلنوا الرضا والانقياد وقالوا: ما أحبه إلينا وأحب حقه علينا ومن أحق بالخلافة والبيعة منه، وأقبل الناس يتسابقون على بيعته وتمت البيعة له عليه السلام في الكوفة والبصرة والحجاز واليمن وفارس وسائر المناطق التي

---

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) هذا مثل عربي يُضرب حين يتجاهل الناس كرامهم ونجبائهم.

كانت تدين لأبيه بالولاء والبيعة، ولما بلغ خبر البيعة إلى معاوية غضب غضباً شديداً، وأخذ يعمل من أجل إفساد الأمر على الإمام عليه السلام وكان يرسل الرجال إلى الكوفة والبصرة وغيرهما لإثارة المشاكل والاضطراب لئلا يستتب الأمر للإمام الحسن عليه السلام، ما اضطر الإمام إلى إرسال كتاب إلى معاوية يقول فيه: «أما بعد فإنك دسست إليّ الرجال كأنك تحب اللقاء لا أشك في ذلك فتوقعه إن شاء الله، وقد بلغني أنّك شَمِتَّ بما لم يشمت به ذو حجى...»[1][*].

وكان وجود معاوية في الشام الذي عيّنه عمر بن الخطاب واستقلاله بها وتكريسه نفسه على أنه كسرى العرب هو العقبة الكؤود التي كانت تعترض طريق الإمام الحسن عليه السلام، خصوصاً أن الرجل رفض أن يدخل في بيعة الإمام، مع أن الأخير عليه السلام حاول جاهداً ثنيه عن محاولات التمرّد لعلّه يرتدع عن ظلم العباد ليسود عدل الإسلام بعيداً عن الفتن والحروب، وقد أرسل الإمام له رسالة جاء فيها: «فاليوم فليتعجب من تَوَثُّبِك يا معاوية على أمرٍ لستَ من أهله، لا بفضل في الدِّين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود. وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله ولكتابه، والله حسيبك، فَسَتَرِدُ وتَعلم لمن عقبى الدار، وبالله لَتَلقينَّ عن قليل ربك ثم ليجزينَّك بما قدَّمت يداك وما الله بظلاَّم للعبيد... وإنما حملني على الكتاب إليك، الإعذار فيما بيني وبين الله عزَّ وجلَّ في أمرك، ولك في ذلك إن فعلته الحظ الجسيم، والصلاح

---

(١) شرح النهج ومقاتل الطالبيين.

(*) الحجى، هو العقل، وجمعها أحجاء كما في المعجم الرائد.

للمسلمين، فَدَعِ التمادي في الباطل، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي. فإنك تعلم أنّي أحَقُّ بهذا الأمر منك عند الله، وعند كلّ أوَّابٍ حفيظ، ومن له قلب منيب، واتَّقِ الله ودَع البغي، واحقن دماء المسلمين. وإن أنت أبيت إلاَّ التمادي في غَيِّك، سِرتُ إليك بالمسلمين، فَحَاكمتُك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»[1].

* دعوة الإمام ـ ومرواغة المدعو

كان الإمام الحسن عليه السلام على يقين بأن معاوية لن يستجيب لطلبه، لأنه خَبُر الرجل وطريقة تعاطيه ووقاحته مع أبيه، وعلم أنه سيكون أسوء وأشد عناداً معه عليه السلام، ولقد أجاب على رسالته بأجوبة ماكرة وخطاب ينمّ عمّا يضمر ويخفي، حيث جاء في رسالته «فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به محمداً رسول الله من الفضل وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله قديمه وحديثه صغيره وكبيره، وقد واللهِ بلَّغ وأدَّى ونصر وهدى حتى أنقذ الله به من الهلكة وأنار به من العمى.. وهدى به من الجهالة والضلالة، فجزاه الله أفضل ما جزى نبياً عن أمته، وصلوات الله عليه يوم وُلد، ويوم بُعث، ويوم قُبض، ويوم يُبعث حياً، وذكرت وفاة النبي صلى الله عليه وآله وتنازع المسلمين الأمر بعده، وتغلبهم على أبيك، فصرحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الأمين وحواري رسول الله صلى الله عليه وآله، وصلحاء المهاجرين والأنصار، فكرهت ذلك لك، إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنين ولا المسيء، ولا اللئيم، وأنا أحب لك

(١) ابن أبي الحديد، ج٤ ص١٢.

القول السديد، والذكر الجميل. إن هذه الأمة لما اختلفت بينها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم، ولا قرابتكم من نبيكم، ولا مكانكم في الإسلام وأهله، فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها، (الله أكبر على هذا الادّعاء) ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعوامهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاماً، وأعلمها بالله، وأحبها له، وأقواها على أمر الله، فاختاروا أبا بكر، وكان ذلك رأي ذوي الدين والفضل، والناظرين للأمة، فأوقع ذلك في صدوركم التهمة، ولم يكونوا متهمين، ولا فيما أتوا بالمخطئين، ولو رأى المسلمون أن فيكم من يغني غناءه، ويقوم مقامه، ويذب عن حريم الإسلام ذبّه ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبه عنه، ولكنهم علموا في ذلك بما رأوه صلاحاً للإسلام وأهله، والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيراً... والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي ﷺ. فلو علمتُ أنك أضبط مني للرعية وأحوط على هذه الأمة وأحسن سياسة وأقوى على جمع الأموال وأكيد للعدو لأجبتك إلى ما دعوتني إليه ورأيتك لذلك أهلاً، ولكني قد علمت أني أطول منك ولاية وأقدم منك بهذه الأمة تجربة، وأكبر منك سناً فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني فادخل في طاعتي ولك الأمر من بعدي، ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما يبلغ تحمله إلى حيث أحببت ولك خراج أي كور العراق»[١]. ولا يخفى أن خطاب معاوية للإمام يحمل الاستخفاف

---

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج٢ ص٩.

به عليه السلام، حيث اعتبر أنه عليه السلام لا خبرة له كافية، وأنه صغير السن يفتقر إلى التجارب، وأن الأمة لا تجهل فضلهم. والدليل على ذلك أنها ظلمتهم ظلماً كبيراً، وأن معاوية يريد للإمام عليه السلام أن يكون أكبر من أن يتهم الظالمين والمغتصبين للحكم. وهو يحب له القول السديد. وهو يريد له أن يتعالى على أن يوجّه إصبع اتهامه على الظالم. هذا فضلاً عن محاربته له.

كانت هذه الأساليب من أكبر حجج معاوية حيث لا يستند عمله لا إلى قرآن ولا إلى سُنّة. لذلك برّر لنفسه الالتجاء إلى أسلوب شيطاني خبيث، وهو لا يعرف منطقاً آخر يمكن أن يحتج به أو يركن إليه، إلا اللامنطق المحتج بأنه أكبر سناً. وهذا الخطاب لم يخاطب بمثله الإمام علي عليه السلام، وقد تباهى على الإمام الحسن عليه السلام بأنه الأكثر خبرة كما يدّعي، وهو الأقوى على جمع الأموال والأكيد للعدو والأحسن في السياسة وإلى آخر الترهات والادّعاءات الفارغة التي تدلل على أنه ذهب بعيداً وبعيداً جداً، وأنه كان يتعاطى مع الإمام من واقع أنه سيد الموقف والساحة، والأقدر على قلب الموازين رأساً على عقب. وهو في إحدى رسائله يستعمل أسلوبين مشينين مع الإمام أبي محمد حين يحاول إغراءه بالمال والخلافة من بعده تارة، ويحذره أن تكون منيته على أيدي رعاع من المسلمين تارة أخرى وهذا تهديد بذاته، فمن سيحمل الرعاع من الناس على قتل الإمام غير معاوية الخبير جداً بأساليب القتل والغدر والخيانة؟ ومن سيجعل من أولئك الجهلة السذج الذين كانوا جنوداً حقيقيين لمشاريعه يقدمون على تنفيذ مخططاته الإجرامية، والذين كان يهزأ بحبهم، فكان يستعملهم ويتعمّد تجهيلهم ليسهل استخدامهم؟

وطالما هدّد بجنود لا يميزون بين الناقة والجمل[١] كأولئك الذين كان يراهن عليهم معاوية. وهل سيميزون بين ابن علي بن أبي طالب عليه السلام وبين ابن أبي سفيان؟ هل سيفرّقون بين ابن فاطمة الزهراء وبين ابن هند آكلة الأكباد؟ وهل يمكن للسواد الأعظم من الناس ممن يركعون أمام الرغيف ويخضعون أمام السيف المخيف، أن يغيّروا من قواعد مكر معاوية ويقلبوا معادلة شراء الذمم بوقفة تغيّر مجرى التاريخ؟ لكن أنّى يكون ذلك من أشخاص لم يتذوقوا حلاوة الإيمان ولم يحرصوا على أداء واجباتهم الدينية، هذا فضلاً عن أنهم لم يعيروا جماجمهم لله، بل أعاروا أنفسهم لشياطين الإنس والجن، أعاذنا المولى من أمثالهم وجنّبنا ذواتهم الخبيثة.

---

(١) هؤلاء الناس، دعاهم معاوية ذات يوم إلى إقامة صلاة الجمعة وذلك يوم الأربعاء. وأمر بإعلان ذلك، وقد صلّى من حضر دون أي اعتراض، وقد كان رسول أمير المؤمنين عليه السلام يومها في الشام، فطلب معاوية ممثل علي عليه السلام سراً وقال له: «اذهب إليه وقل له إني آتيك بمئة ألف ضارب سيف لا يميزون بين يوم الجمعة ويوم الأربعاء». جاء ذلك في سيرة الأئمة الأطهار، للشيخ مرتضى مطهري، دار الهادي (طبعة بيروت، ص٤٧).



الفصل الرابع

خطة الحرب وعدّتها

* خيار الحرب.
* الحرب.. وهو ابن بجْدتِها.
* إعلان النفير.
* خطة الحرب.. وقادتها.
* لماذا عبيد الله بالذات؟
* ماذا عن قيس بن سعد؟
* سعيد بن قيس الهمداني.
* جنود الإمام.. كم وكيف؟
* المدائن.. مقر القيادة.
* مسيرة القوافل.
* القائد العام.. قائداً للخيانة.
* وتكرّ سبحة الخيانة...
* تسارع الأحداث.
* هل يترك الإمام الساحة؟
* لِمَ احتفظ الحسن بحياته؟
* ماذا و استشهد وحيداً؟
* ماذا عن خيارات أخرى؟



خطة الحرب وعدّتها

* خيار الحرب

لم يكن الإمام الحسن عليه السلام يرغب بالصلح مع شخص مثل معاوية، لأنه كان يدرك بأن الأمة الإسلامية لن ترتاح إلا بزواله، ولم يكن في وارد ولو للحظة أن يدخل في صلحٍ مع المخادع الماكر الذي سيتغنى بالانتصار على الإمام في ما لو حصل ذلك، وهو الذي طالما ذاق مرارة الحروب مع أبيه، ولا تزال ذكرياتها حاضرة في ذهنه ومحفورة في قلبه، الأمر الذي يُؤرِّق مضجع معاوية الذي لم يكن ينسى صولات وبطولات صاحب ذي الفقار، ولم يكن في ذهن الإمام إلا لغة السيف ومنطق قتال البغي كله والنفاق كله، ولم يكن الإمام ليسمح لمعاوية أن يأخذ فرصته ليتمكن أكثر من خداع الناس وتضليلهم في معمعة أساليبه الماكرة، بل أنه عليه السلام كان يحمل شوقاً وحباً كبيرين لمواجهة واجتثاث فساد معاوية واقتلاعه من جذوره، والإمام عليه السلام كغيره من أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين يتحرّكون وفق التكليف الشرعي، فلا يُستدرَجون إلى إظهار بطولاتهم، بل الهمّ الأساسي الذي يحكمهم ويكون بمثابة قطب الرحى هو موضوع طاعة الله، وهم عليهم السلام الذين يشخّصون التكاليف ويمثّلونه أيما تمثيل،

وإمامنا الحسن لا يمكن أن ينقاد إلا لتكاليفه، وقد كان بودّه عليه السلام أن لا يبقي معاوية على وجه الأرض لترتاح الناس منه، وكان يملك رغبة قوية لإزالة شأفة ظلمه بحكم طاعته المطلقة للشيطان. فهو عليه السلام المحكوم بضوابط المصلحة العليا، ولا يقوده حبّه لقتال معاوية أن يخوض حرباً إلا إذا كانت المصلحة فيها، وهو ابن القائل «لأُسَلِّمَنَّ ما سَلِمَت أمور المسلمين ولم يكن فيها جَوْر إلا عليّ خاصّة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافَسْتُموه من زخرُفِهِ وزَبْرِجِهِ»[1].

وهو لا يحسن الطواف إلا حول رضا الله.. وهو من أهل بيت عملهم هو القرآن المجيد، بل هو بذاته المضمون الرباني والآيات المحكمة غير المتشابهة، والناسخة غير المنسوخة، فالإمام الحسن عليه السلام هو الدستور الإسلامي القويم، وهو المصداق الحقيقي لمقاصد القرآن الكريم، وهو مع ذلك العالم بدقة الموقف وخطورة ما ينبئ به الحاضر، ومن أولى منه أن يخطط لمستقبل أفضل وعالم أمثل لا يكون فيه الحاكم كمعاوية وأمثاله، وعلى ضوء ذلك كان تفكيره. وهنا يأتي الحديث عن خياراته عليه السلام فماذا عن تلك الخيارات الصعبة والشاقّة؟

* الحرب.. وهو ابن بجْدَتِها[2]

لم يكن الإمام الحسن، بعيداً عن أجواء القتال والحرب وهو

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ٨٤.

(٢) بُجدة الأمر العلم به، ويقال ابن بجدتها للعالم بالشيء والعارف به.

المتمرّس في فنونها، ولم تكن تنقصه شجاعة وتفتقده بطولة، وقد أكدت العديد من المرويات أنه مع أخيه الحسين قد اشتركا في كثير من الفتوحات الإسلامية، وكان لهما دور بارز في تلك المعارك وربما يُناقش في أمر مشاركتهما عليهما السلام في الفتوحات، حيث أحدثت بعضها أثراً غير إيجابي على الإسلام والمسلمين، ولا نريد أن نخوض هنا في نقاشات ومخاضات عسيرة. فسواء ثبتت مشاركتهما عليهما السلام أم لم تثبت، فهذا لا يخدش في خوضهما المعارك الأساسية التي خاضها المسلمون، وعلى أي حال فإن للفتوحات الإسلامية آثارها الإيجابية ولا يحسن الطعن بها إذا كانت بعض جزئياتها غير منضبطة الأداء، وهذا ليس بجديد ولا غريب على بيت الإمام المرتضى وولدَيه عليهم السلام، وقد اشترك الإمام عليه السلام في جميع الحروب التي خاضها أمير المؤمنين عليه السلام، في البصرة والنهروان وصفين وكانت له مواقفه الجريئة حيث لم يُهن أو يضعف في موقف أو معركة، وغير خافٍ أن الإمام علي عليه السلام كلّف السبطين بمهمة الدفاع عن عثمان[1] ضد الثوار، وقد تحدّث الأمير عن ذلك بقوله عليه السلام: «لقد دافعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً»[2].. وقد جاء في رواية ابن كثير أن الحسن بن علي عليه السلام قد أصيب ببعض الجروح وهو يدافع عن عثمان، وعلى أي حال فالإمام الحسن عليه السلام لم يكن في لحظة من اللحظات إلا الشهم المدافع عن قيم الإسلام

---

(١) ملّ المسلمون من سياسة عثمان وعماله وفشلت كل محاولاتهم بإصلاح ما أفسده أو بتخليه عن السلطة، لكنها كانت محاولات فاشلة أمام إصرار عثمان على انتهاج سياساته المالية والاقتصادية والاجتماعية.

(٢) نهج البلاغة، خطبة ٢٤.

وحرمات المسلمين، لأنه المنقاد إلى واجبه دون أن يفرض رغبة في الحرب أو في الصلح، فهو عليه السلام وبعد إلقائه الحجج الدامغة على معاوية وإصرار الأخير على القتال والغي، استعدَّ للقاء ومواجهة معاوية عسكرياً حيث كان عليه السلام ينتظر تلك الفرصة على أحرَّ من الجمر.

* إعلان النفير

بعد استفزازات معاوية المستمرة، وبعد تبادل الكتب والرسائل بين الإمام ومعاوية، والتي لم تسفر إلا عن نتائج سلبية، وحيث لم يُذعن معاوية للإمام المعين من قبل الله ورسوله ووصي رسوله، والمعيّن رسمياً من قبل الناس الذين بايعوه وأعلنوه خليفة للمسلمين[١]، لم يكن بين يدي الإمام إلا خيار الحسم العسكري والجهاد في سبيل الله، فنادى منادي الإمام في الكوفة، يدعو الناس إلى الاجتماع في المسجد، ولما امتلأ المسجد بأهله صعد الإمام المنبر، قال عليه السلام فيما قال: «... فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: (اصبروا إن الله مع الصابرين) فلستم أيها الناس نائلين ما تحبونه، إلا بالصبر على ما تكرهون، بلغني أن معاوية بلغه أنّا كنا أزمعنا على المسير إليه

(١) تعيين الإمام الحسن عليه السلام من قبل الجماهير هذا عنصر إضافي آخر يزيد في حجم الجريمة المرتكبة بحق كل من تنكّر له عليه السلام وقد عُدّ الإمام على ضوء المعادلة هذه على أنه الخليفة الخامس. وهذا بحد ذاته إدانة لكن من يعتبر أن الخلافة تكتسب شرعيتها من خلال تعيين الناس مع أن شرعيته عليه السلام هي من قبل الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله.

فتحرك نحونا بجنده فاخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظرون..»[١].

نشير هنا إلى برودة رد فعل الناس الذين استمعوا إلى خطاب الإمام الهامّ، حيث لم يصدر منهم أي كلمة، الأمر الذي جعل من عدي بن حاتم الطائي يثور ويتحرّك ويؤنب من حضر قائلاً لهم «ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم؟ أين خطباء مصر الذين ألسنتهم كالمخاريق[٢] في الدعة، فإذا جد الجد فمراوغون كالثعالب»[٣]. ثم قام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، ومعقل بن قيس الرياحي وزياد بن صعصعة التيمي وأنّبوا الناس بدورهم وحرّضوهم على الخروج إلى الجهاد فشهد لهم الإمام الحسن عليه السلام بصدق النية، وبدأ بالتحضيرات اللازمة وإعلان أشبه ما يكون بالتعبئة العامة وأجرى بعض المقررات لحفظ النظام والدولة، والتي كان من جملتها أن استخلف على الكوفة ابن عمه المغيرة بن نوفل ابن الحرث بن عبد المطلب الذي أمره أن يحرّك الناس ويحثهم على الجهاد. وخرج الإمام عليه السلام لرد اعتداءات معاوية الآثمة متوجهاً إلى النخيلة[٤] بجحافل جيشه كما هو المفترض. حتى وصل إلى معسكرها، حيث تتواجد العساكر والجيوش وهناك نظم جيشه الموجود، منتظراً لحاق العساكر الجرّارة من كافة المناطق التي كانت تغطيها خلافة الإمام

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج٤ ص١٣.
(٢) أي أن أصواتكم كأصوات المغنين في الدعة.
(٣) شرح ابن أبي الحديد، ج٤ ص١٣.
(٤) النخيلة: تصغير نخلة، وهي موضع يقع بالقرب من الكوفة.

والتي شملت فارس، وخراسان، واليمن والحجاز والكوفة والعراق، ولم يلتحق به خلال عشرة أيام في النخيلة إلا أربعة آلاف فرجع عليه السلام إلى الكوفة[١] يستحث الناس ويطلب منهم الالتحاق والانتظام في عسكره عليه السلام وقد خطب خطبته التي قال فيها فيما روي (وقد غررتموني كما غررتم من كان قبلي)[٢] ومن هناك توجه الإمام بجيشه إلى منطقة نزل (دير عبد الرحمن) فأقام بها ثلاثة أيام ليلتحق به من أراد وهي مفترق الطريق بين المدائن ومسكن حيث جيوشه عليه السلام.

* خطة الحرب.. وقادتها!

أرسل الإمام فصيلة من جنوده، وكان عددهم اثني عشر ألفاً لاستطلاع حركة معاوية وإيقافها في مكانها، واختار قائداً لها وهو ابن عمه عبيدالله بن عباس بن عبد المطلب، المعروف بصلابة إيمانه وإخلاصه للإمام، وبكرهه لمعاوية لأنه كان سبباً بقتل ولديه بيد الطاغية بُسر بن أرطأة[٣] المخلص جداً لمعاوية، وأرسل الإمام معه قائدين من خيرة المسلمين، وهما قيس بن سعد بن عبادة وسعيد بن

---

(١) بعض المؤرخين ذكروا أن الإمام توجه من النخيلة إلى دير عبد الرحمن، ولم يتعرضوا إلى ذهابه إلى الكوفة بعد النخيلة، فلعل البعض أهمل رواية ذهابه لأنه لا يملك الدليل. ويُضاف إلى ذلك أن الإمام استخلف عليها من يستحث الناس على الالتحاق به عليه السلام.

(٢) الخرايج والجرايح، ص٢٨٨، طبعة إيران.

(٣) لقد مات بُسر بن أرطأة شرّ ميتة، حيث جعله الله عبرة لكل الظالمين، انظر في مروج الذهب، ج٣ ص١٦٢، ط. دار الأندلس ـ بيروت.

قيس الهمداني، وأمره أن لا يقطع أمراً دونهما، وأن يستشيرهما في جميع الأمور، وزوّد الإمام القائد العام بوصية قيّمة جاء فيها «يا ابن العم! إني باعث معك اثنى عشر ألفاً من فرسان العرب وقُرّاء المصر، الرجل منهم يزيد الكتيبة، فسر بهم، وألِن لهم جانبك، وأبسط لهم وجهك، وافرش لهم جناحك، وادنهم من مجلسك، فإنهم بقية ثقاة أمير المؤمنين، وسر بهم على شط الفرات، ثم امضي حتى تستقبل بهم معاوية، فإن أنت لقيته فاحتبسه حتى آتيك، فإني على أثرك وشيكاً، وليكن خبرك عندي كل يوم، وشاور هذين ـ قيس بن سعد، وسعيد بن قيس ـ وإذا لقيت معاوية فلا تقاتله حتى يقاتلك فإن فعل فقاتله، وأن أُصبت فقيس بن سعد على الناس، فإن أصيب، فسعيد بن قيس على الناس»[1] والواضح من هذه الوصية أن الإمام يدخل في الجزئيات والتفاصيل ويقدِّم التوجيهات القيادية الحازمة والحيوية في آن، ويوصي بثقات أمير المؤمنين، ويدخل في حيثيات المواجهة، فإن أصيب القائد يستلم القيادة قيس، وإن أصيب قيس فيتعين سعيد، وقبل الدخول في تفاصيل حركة الفصيلة نشير إلى أن الإمام اختار من يراهم الأفضل ومن لهم سابقة جهادية وتاريخ ولائي ومعتقد سليم، ولا أدري إذا كان أفضل الجيش وأرقى الفصيلة قد فعل ما فعل، لا أدري كيف كان حال المسلمين والسواد الأعظم من الناس؟..

---

(١) كتاب الأغاني، أبو فرج الأصفهاني، ص٢٣.

* لماذا عبيد الله بالذات؟

قد يتساءل من يقرأ السيرة المباركة لإمامنا الحسن عليه السلام عن سر اختياره لعبيد الله لقيادة الجيش، رغم وجود أمثال قيس بن سعد وسعيد بن قيس وغيرهما. وخلاصة الأمر هو التالي: إن عبيد الله له من الكفاءة والقدرة والتاريخ الجهادي ما يؤهله لتحمل هذا المنصب الخطير، خصوصاً أن للرجل من السوابق في ساحات الوغى ما لا يمكن غض النظر عنها، فهو قد تربى في مدرسة أمير المؤمنين عليه السلام، ونهل من معين أخلاقه وبطولاته، وقد واكب السيرة العطرة لأبي تراب عليه السلام، وكان يُعرف بعزوفه عن الدنيا، وكان أميراً للحج لسنة أو سنتين، وكان من السبّاقين إلى بيعة الإمام الحسن عليه السلام وكان يبدي إخلاصاً مميزاً لآل بيت الرسول صلى الله عليه وآله من منطلقات دينية وخلفية القرابة وكونه ممن يعرفون جيداً وبشكل دقيق منزلة أهل البيت عليهم السلام، ومقابل ذلك فإن له أسبابه الثأرية حتى يُبقي العداء مع معاوية قائماً، لكنها الدنيا التي تصطاد رجالها وترديهم في أودية سحيقة حينما يختارونها فتروق لهم وتنسيهم المواقف البطولية فينسحقون أمامها وينقادون لرغباتهم في أداءٍ فيه من الذل ما لا يُوصف ومن المهانة ما لا يُتصور، وإمامنا الحسن عليه السلام كبقية الأئمة الأطهار عليهم السلام تكمن وظيفته الشرعية بالأمور الظاهرية بعيداً عن المعرفة الغيبية في تفاصيل كل ما يحدث، وإلا فإن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أخبره بأصل موضوع الصلح وهو أراد أن يُلقي الحجة على الجميع، فالدنيا كلها امتحان كبير، ومسألة الصلح هي من إحدى محطاتها ومفردة من مصاديق الاختبار الإلهي للبشر، فهل

سيصمد المؤمنون أمام إغراءاتها أم أنهم ينهزمون؟ والإمام الحسن عليه السلام هو من جملة مظاهر الرحمة والغضب الإلهيين، ووجوده في الدنيا اختبار إلهي لبني البشر ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. ولسنا هنا في صدد التبرير للصلح بقدر ما نحن بصدد تبيان الحقائق التاريخية، التي يسعى كتّاب السلاطين فيها إلى تزوير الحقيقة وإظهارها على غير صورتها، وعلى أي حال فالإمام المجتبى لم يجعل القيادة العامة بيد عبيد الله وحده، بل جعلها ثلاثية بينه وبين قيس بن سعد وسعيد بن قيس الهمداني ـ رئيس اليمانية في الكوفة ـ، ما يجعل الأمور غير متروكة لأحدٍ وحده، حتى إذا ما خان عبيد الله العهد والأمانة فإن الجيش سيتحول حكماً إلى الثاني، فإن ضعف، فإلى الثالث، وغير خافٍ على من يدرس الظروف المحيطة في ذلك العصر، يدرك جيداً أن الناس كانت تنتظر من الإمام أن يعيِّن قائداً هاشمياً، فعدم اختيار هاشمي على رأس قائد الجيش سيؤدي بدوره إلى القال والقيل، وكان من المتوقع لو أن الإمام اختار آخر غير هاشمي مكان عبيد الله لكثر اللغط ولاعتُبر الاختيار هو المسؤول عن كل خلل في تركيبة الجيش، وستخرج الناس بقناعة مفادها: لو أن الإمام اختار قائداً من أهله لكان أجدر من غيره على تحمل المكاره ومواجهة الضغوط.

---

(١) الأنفال: ٤٢.

* ماذا عن قيس بن سعد؟

عُرف قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري بإيمانه الراسخ، وصلابته الحديدية في مواجهة الأحداث، وعُرف بالتزامه ورعايته لأوامر الإمام الحسن عليه السلام في كل صغيرة وكبيرة، وقد اختُلف فيما يتعلق بمخالفته للإمام بعد توقيعه لعقد الصلح مع معاوية، ففي الأعيان عن أبي الفرج أن قيساً قاتل بعد عقد الصلح، وقد ذكر ابن الأثير أن قيساً لم يتحمّل الموقف فخيّر أصحابه بين الدخول في طاعة إمام الضلالة، أو القتال من غير إمام فقال بعضهم: «بل نختار الدخول في طاعة إمام الضلالة، فبايعوا معاوية وانصرف قيس فيمن تبعه»[1].

وعلى أي حال فإن ابن الأثير لم يتحدّث عن وقوع قتال بين قيس وجيش الشام، ومهما يكن من أمر فإن إيمان قيس كان مميّزاً، فقد ذكر المسعودي «كان قيس بن سعد من الزهد والديانة والميل إلى علي بالموضع العظيم، وبلغ من خوفه الله وطاعته إياه، أنه كان يصلي فلما أهوى للسجود فإذا في موضع سجوده ثعبان عظيم مطوق، فمال عن الثعبان برأسه وسجد إلى جانبه، فتطوق الثعبان برقبته، فلم يقصر من صلاته ولا نقص منها شيئاً حتى فرغ ثم أخذ الثعبان فرمى به»[2].

فتديّن الرجل وإيمانه يدعم فرضية عدم خروجه عن طاعة الإمام بعد عقد الصلح. خصوصاً أن قيساً ممن تشهد له ساحات الجهاد،

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج٣، ص٢٠٤.

(٢) صلح الإمام الحسن للشيخ راضي آل ياسين، ص١٤٣.

وقد تولّى قيادة جيش أمير المؤمنين في فترة زمنية معينة، وكان من المعروفين بولائهم وثباتهم لخط آل الرسول ﷺ، كل هذا لا يجعلنا نغض الطرف عن الفرضية الأخرى، فقد تكون تلك الأحداث لا تتحمل عادة حتى لمن تحمّل غيرها من مواقف أقل حساسية وتعقيداً، وحتى لو صحّت الفرضية هذه، فلعلّ شعور قيس بمدى الهوة الكبيرة ما بين الإمام ومجتمعه هو الذي أفقده الرؤى الواضحة، ولعلّه كان يملك شعوراً يجعله مرتاحاً لاتخاذ موقف من هذا القبيل، وقد صدق فيه المثل القائل: «من شهوة التمر يعضّ النوى» وقد يكون داخله إحساس بأن عليه أن يتصرَّف وهو الذي صُدِم أمام خيانة عبيد الله وحيال نبأ الصلح الذي شكَّل بدوره فاجعة هزَّت كيانه وجعلته يتحرك للقتال وينطلق بالجماعة التي اختارت القتال بغير إمام إلى جموع أهل الشام، الأمر الذي أزعج معاوية فراسله يمنّيه ويتوعده، فردّ عليه قيس بقوله: «لا والله لا تلقاني إلا بيني وبينك السيف والرمح، وجرت بينهما مكاتبات أغلظ كل منهما فيها بالآخر»[1].

نقتطف هنا بعضاً من نصوصهما وخصوصاً تلك المراسلات التي كانت نتيجة يأس معاوية من استمالة قيس، فكتب له (أما بعد فإنك يهودي بن يهودي تشقي نفسك وتقتلها فيما ليس لك فإن ظهر أحب الفريقين إليك نبذك وغدرك وإن ظهر أبغضهم إليك نكل بك وقتلك وقد كان أبوك أوتر... فخذله قومه وأدركه يومه فمات بحوران طريداً غريباً والسلام).

---

(١) أعيان الشيعة، ج٤، ص٢٣.

فردَّ عليه قيس (أما بعد فإنما أنت وثن ابن وثن دخلت في الإسلام كرهاً وأقمت فيه فرقاً وخرجت منه طوعاً ولم يجعل الله لك فيه نصيباً لم يقدم إسلامك ولم يحدث نفاقك ولم تزل حرباً لله ولرسوله وحزباً من أحزاب المشركين وعدو الله ولنبيه وللمؤمنين من عباده. وذكرت أبي فلعمري، فما أوتر إلا قوسه ولا رمى إلا غرضه فشغب عليه من لا تشق غباره ولا تبلغ كعبه وزعمت أني يهودي ابن يهودي وقد علمت وعلم الناس أني وأبي أعداء الدين الذي خرجت منه وأنصار الدين الذي دخلت فيه وصرت إليه والسلام).

فلما قرأ معاوية كتابه أغاظه وأراد إجابته فنصحه مَن حضر مجلسه قائلاً: فإنك إن كاتبته أجابك بأشد من هذا وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس فأمسك عنه[١] لينتقل إلى تكتيك شيطاني آخر.

نقول هذا ولا نخفي أن اجتهاداً من هذا القبيل ليس صحيحاً ولا يعبّر عن ظاهرة سليمة ولا تبرّره الصدمة مهما كانت كبيرة، وعلى أي حال فالتمرّد إن صح، هو أقل خطراً من الخيانة ومن افتتاح سلسلة الخيانات التي تنطّح لها عبيدالله بن عباس.

هذا إن قلنا بأن قيساً خاض المعركة دون إمام، مع أن الأمر مستبعد، لأن مسلكية قيس الإيمانية وسيرته الجهادية ومواكبته لخط الولاية المتمثل بالأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، كل هذه الخصوصيات والمميزات تشهد على انضوائه تحت راية الحق، والنصوص التي كتبها لمعاوية ليست كلمات للاستهلاك إنّما تعبِّر أن الرجل غير متردد في عداوته لمشاريع معاوية الخبيثة، وقد يكون ممن طالتهم يد

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مجلد ٤، ص١٥.

التحريف فظلمته كما ظلمت كثيرين، وعلى أي حال فإنه يعلم جيداً أنه حتى لو قاتل الباطل وأهله فإن عليه أخذ الإجازة خصوصاً إذا كان الوضع دقيقاً وحسّاساً ولا يقبل الإجتهادات الشخصية في ظل وجود النص أو من نُصّ على تعيينه. فوجود قيس الدائم في صلب الأحداث ومعايشته للوقائع التاريخية ودقة المرحلة التي عايشها مع الإمام الحسن عليه السلام في كل تفصيل، والتي لا تتحمل أي مخالفة للمقرّر والمخطط هو الذي يجعلنا نميل إلى الرأي القائل أن الأحداث الكبرى والخيانات لم يستطع تحملها وأحدثت فيه صدمة كبرى، وهل يمكن لقيس أن يقدم على أمر من هذا القبيل؟ وهو من اعتاد على فهم ظروف الأئمة عليهم السلام.

* سعيد بن قيس الهمداني

هو من أكابر الشخصيات وعليّة القوم في همدان، ومن كبار جيل التابعين.

وكان من الرجالات التي يُشار إليهم بالبنان في إيمانهم وعقيدتهم، يقول عنه الفضل بن شاذان وهو في صدد مدح مجموعة من الأخيار: «من التابعين الكبار ورؤسائهم وزهادهم: حجر بن عدي، وسليمان بن صرد الخزاعي، والأشتر، وسعيد بن قيس وأشباههم كثيرن أفنتهم الحرب».

لما وقفت همدان الوقفة المشرفة والشجاعة في صفين جمعهم الأمير عليه السلام وقال لهم: «يا معشر همدان، أنتم درعي ورمحي، يا همدان ما نصرتم إلا الله ولا أجبتم غيره. هنا قام سعيد فقال: أجبنا

الله وأجبناك، ونصرنا نبي الله (صلى الله عليه وآله) في قبره، وقاتلنا معك من ليس مثلك، فارم بنا حيث أحببت»[١].

ولما أراد الإمام علي عليه السلام غزو الشام وتثاقلت الناس قال سعيد للأمير عليه السلام: يا أمير المؤمنين، والله لو أمرتنا بالمسير إلى قسطنطية ورومية مشاةً حفاةً على غير عطاء ولا قوة، ما خالفتك أنا ولا رجل من قومي، فردّ الإمام عليه السلام بقوله: «صدقتم، جزاكم الله خيراً»[٢].

كان سعيد بن قيس صاحب راية همدان في معركة الجمل، وقد شارك في عقر الجمل، وقد أرسله الإمام علي عليه السلام هو وبشير الأنصاري رسولَين إلى معاوية إتماماً للحجّة عليه قبل بدء الحرب. ولوثاقته كان الأمير عليه السلام قد جعله قائداً لثمانية آلاف وسيّره لرد غارات سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار وجعله على همدان يوم صفين بعد أن قسّم عليه السلام عسكره أسباعاً.

ويُستشهد الأمير عليه السلام ويبقى سعيد بن قيس ثابتاً على العهد والولاء.

هو الرجل الصالح، والمحارب الشجاع، صاحب الباع الطويل في المعارك والحروب، وخصوصاً في حربي الجمل وصفين.

وكان رحمه الله من أعمدة القتال في تشكيلة جيش الإمام علي، وقد كان الأمير تارة يُخرج للقتال الأشتر، وأخرى حجر بن عدي وثالثة سعيد بن قيس وتارة كان يُخرج قيس بن سعد.

---

(١) أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ج٧، تاريخ الطبري.
(٢) المصدر السابق.

كان سعيد يحرس الإمام علي عليه السلام حراسة مشدّدة وكان يحرص على حياته المباركة أشد الحرص. واللافت في سعيد أن شجاعته كانت مقرونة بالذكاء والفطنة وخطط الحرب.

يُعد سعيد من التابعين القليلي الرواية لانشغاله بالحروب، وللتعتيم الذي فرضته السلطة الأموية على أصحاب الإمام علي عليه السلام فقد روى رحمه الله عن الرسول صلى الله عليه وآله: «لا تزال هذه الأمة مستقيماً أمرها، ظاهرةً على عدوّها، حتى يمضي اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش»، يقول جابر بن سمرة، فأتيته إلى منزله (أي أتى سعيداً) فسأله: ثم يكون ماذا؟ فأجابه بجواب الرسول صلى الله عليه وآله «ثم الهرج»[1]. ليس معروفاً تاريخ وفاة سعيد، فقد انقطعت أخباره بعد الصلح، والمرجح عند بعض المؤرخين أن تكون وفاته بعد الصلح بسنوات قليلة[2]. لم يرصد التاريخ له موقفاً متردداً بعد عقد الصلح، ولم يكن أصلاً في وارد أن يميل إلى المقلب الآخر بعد خيانة عبيد الله، وبعد المراسلات التي حصلت بين معاوية وقيس بن سعيد، وللأسف الشديد ليس مرصوداً بفعله رحمه الله بعد أن عصفت الأحداث وكانت الهزات متتالية ومتوالية، لكن ما يمكن قوله أن سعيد مضى على ما مضى عليه الثابتون على الحق.

ولنترك الحديث عن التمرّد والخيانة للانتقال إلى جنود الإمام ومصيبته فيهم، وسير الأحداث التي قادت إمامنا إلى الصلح وجعلته أمراً حتمياً.

---

(١) الخصال، الشيخ الصدوق، الحديث ١٨.

(٢) الإعلام للزركلي، ج٣، مناقب آل أبي طاب لابن شهر آشوب، ج٣.

* جنود الإمام.. كم وكيف؟

اختلف المؤرخون في الرقم الذي وصله جيش الإمام الحسن عليه السلام فبعضهم قال: إن العدد مائة ألف مقاتل، واستدلّ على ذلك برواية ابن قتيبة عن سليمان بن صرد الذي سأل الإمام عن سبب الصلح ومعه مائة ألف مقاتل من أهل العراق. وبعضهم أصرّ على أن يكون أربعين ألفاً كما كان جيش أبيه عليه السلام.

فالمعطيات هي نفسها والجنود هم أنفسهم، فلماذا لا يكون العدد كما كان مع أمير المؤمنين عليه السلام؟

ونزيد على هؤلاء أن العدد بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام سيزيد حتماً، بسبب تفاعل الناس مع شهادته المباركة التي أحدثت صدمة كبيرة وزلزالاً قوياً حرّكت القلوب وصدعتها، الأمر الذي جعل الجماهير تنجذب أكثر إلى أئمة الهدى. وتتعاطى على أساسٍ من التكفير عن الخطأ الذي ارتُكب مع سيد الوصيين علي بن أبي طالب عليه السلام، والتكفير عن ذنب عدم الإنضواء الكامل تحت قيادته، فليعوّض كل أنواع الاعتراف بالخطيئة عبر خليفته ووصيّه الإمام الحسن عليه السلام، ولا يخفى غضب الجماهير وسخطها على الجريمة التي أدّت إلى مقتل أمير المؤمنين عليه السلام، وتفاعلها مع ولده عليه السلام واستجابتها إلى بيعته حيث كانت صدمتهم بالاستشهاد هي المحرّك الذي أزال الخَدر والكسل عنهم، فراحت الناس تأتي إلى الإمام الخليفة ومن كل حدب وصوب فلعلّهم يعوّضون عن التقصير مع أبيه عليه السلام، وقد وصف ابن أبي الحديد جيش الإمام بالعسكر العظيم، ومعلوم أن عدد مقدمة الجيش إثنا عشر ألفاً عسكروا في مسكن، وعدد المتطوعين في الكوفة أربعة آلاف، وليس معلوماً أن

متطوعي الكوفة لم يلتحق بعضهم في مقدمة الجيش، وهناك عدد آخر من المتطوعين ربما أتى بعضهم من اليمن أو الحجاز أو فارس وهي مناطق كانت تخضع لها خلافة الإمام عليه السلام كمما تقدم معنا في عنوان إعلان النفير.

وأقوى الاحتمالات أن يكون العدد حوالي عشرين ألفاً أو يزيدون قليلاً، هذا على مستوى العدد، أما على مستوى النوع والكيف فلقد انطلقت الناس والجماهير الغاضبة والعناصر المنضوية مع الإمام لا على أساس مُنظّم كما هو حال الجيوش المنتظمة، ولم يكن الدافع الأساس للجميع من الإستنفار والإلتحاق هو رضا الله وطاعته، فمن هؤلاء أصحاب الطمع والعصبيات التي لا ترجع إلى دين في قول أو فعل، ومنهم من التحق بالإمام لا ليضع حداً للفتنة، بل ليعمّقها في الناس والجيوش، وليسوا من أهل الآخرة ولا من أصحابها. كالخوارج[1] الذين انطلقوا مع الإمام ليس حباً به ولا اعترافاً بولايته أو فضله عند الله أو منزلته عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فهؤلاء استغلوا فرصة الحرب بين عدوّين لهما كبيرَيْن كما يقول الشيخ المفيد رحمه الله في الإرشاد، فما من شيء أسوأ من مقاتل يلتحق بسبطٍ لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا يكون لحاقه وجهاده في سبيل الله، بل لأهدافٍ رخيصة غير نبيلة، وما أتعس الإلتحاق إذا كان للفتنة، وما أتعس من جنودٍ يخرجون لاستئصال الظلم وهم أشد ما يكون عليه الظلم، ينطلقون كمجاهدين في سبيل الله ويرجعون أعداءً

(١) يصف المغيرة بن شعبة الخوارج بقوله: «أنهم لم يقيموا ببلدٍ يومين إلا أفسدوا كل من خالطهم» كما في الطبري، ج٦، ص.١٠٩ والخوارج هم أعداء الإمام علي كما هم أعداء معاوية.

حقيقيين للإسلام وأهله، فقد يطمع المرء في حطام دنيوي زائل وهو أمر معهود لأبناء الدنيا وأصحاب المطامع، لكن أن يصل مستوى الطامع والطمّاع إلى اتخاذ الجهاد المقدّس وسيلة يقتنص منها حاجاته الصغيرة والتافهة، فهذا من التعاسة بمكان ومن الحقارة بمنزلة لا تشبهها منزلة في السفالة.

وربما يتساءل المرء عن السر الذي جعل من الإمام يقبل هكذا مستوى من جنودٍ لا ينشدون إلّا الدنيا ـ ونقصد بهؤلاء، المذبذبين والنفعيّين والخوارج وأصحاب الفتن والمرجفين ـ، وهل ضاعت خيارات الإمام ليقبل نوعية من هذا القبيل؟ والجواب وبكل أسف ولوعة أن الخيارات أصبحت ضيقة، وأن على الإمام أن يقوم بأداء واجباته، فلا يستطيع أن يرفض المتطوع للجندية معه طالما أنه لا يزال يتشهد الشهادتين ويدّعي الإسلام والغيرة عليه، ولم يكن الإمام الحسن عليه السلام وحده هو من ابتلي بأشباه الجنود والرجال، فجدّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ووالده أمير المؤمنين أصيبا بمثل ما أصيب به عليه السلام، وما يدل على خيبة أمل الإمام في جيشه وجنوده وهو العارف بأحوالهم، هو خطابه لهم في المدائن فيقول عليه السلام:

«وكنتم في مسيركم إلى صفين، ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، وأنتم بين قتيلين، قتيل بصفين تبكون عليه، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، فأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر»[1] وقصد الإمام بالباكي الثائر أصحابه وخاصته الذي التحقوا به لمعرفتهم بحقه عليهم، وبالطالب للثأر الخوارج المحسوبين على جنوده، وليسوا كذلك، وقصد بالخاذل أصحاب

(١) الملاحم والفتن، ص١٤٢، طبعة النجف.

الفتن وذوي المطامع وعبدة الأهواء والأنانيات، كل هذا كان يعلمه الإمام عليه السلام وقد ازدادت بصيرته أكثر حين قرعت طبول الحرب وصارت على قاب قوسين أو أدنى.

* المدائن.. مقر القيادة

اتخذ الإمام عليه السلام من المدائن[١] مركزاً ومقراً لقيادته العليا، بما تملك من مكانة لها موقعها الاستراتيجي الهام وثقلها الجغرافي الكبير، فهي متاخمة لبلاد فارس وهي النقطة التي تصل كل الكوفة والبصرة وفارس بالأخرى، ويسمح لها موقعها استقبال الجنود من تلك المناطق وغيرها، وكانت المدائن منذ وليها سلمان المحمدي (الفارسي) تتشيع لآل محمد صلى الله عليه وآله وكانت لا تزال في القرن السابع الهجري بلدة لا يسكنها إلا الموالون لآل الرسول صلى الله عليه وآله وعلى ضوء ذلك يكون تحرّك الإمام عليه السلام على الشكل التالي: الانطلاق من الكوفة متوجهاً إلى النخيلة التي بقي فيها عشرة أيام ولما لم يجد إلا أربعة آلاف من الذين التحقوا به، رجع إلى الكوفة يستنفر الناس كما روى الحارث الهمداني كشاهد عيان، ثم توجه إلى دير عبد الرحمن حيث بقي ثلاثة أيام ينتظر من يلحق به، ومن هناك انطلق عليه السلام إلى المدائن حيث مركز القرار وإدارة المعركة، وكما تقدم معنا يطلب الإمام من قائد جيشه أن يعسكر في منطقة مسكن وهي في أقصى الحدود الشمالية للعراق، وما بين المدائن ومسكن خمسة عشر

---

(١) المدائن عبارة عن سبع مدائن متقاربة، كانت العاصمة الساسانية التي عمّرت ألف سنة، وهي تقع مقابل ضفاف دجلة، تبعد عن بغداد عشرة فراسخ.

فرسخاً، وبهذا كانت خطة الإمام العسكرية من أهم ما يمكن التوصل إليه، وقد كشفت عن قائد عسكري لا يترك ثغرة إلاّ وعمل على سدّها، ولا شاردة أو واردة إلا وقد أخذ بها، لقد اهتم عليه السلام في كل تفصيل يمكن له أن يساهم في نجاح خطته المحكمة ويمكن له أن يحقق الانتصار، لقد عمل عليه السلام لاستغلال عامل الوقت المناسب والظرف المؤاتي ليضرب رأس الظلم وأساس الأموية المتمردة على الحق، لقد أُعجب كلّ من قرأ سير الأحداث وتنظيم القوافل بشخصية الإمام عليه السلام حيث كشفت خطته وإدارته عن قائد عسكري ملهم يحسن فنون القتال ويهيئ له عُدَّته وعديده، لكنه (سلام الله عليه) لن يستطيع أن يغيّر النفوس المريضة والنفسيات الدنيئة للبشر الذين عاصرهم، والجنود الذين خذلوه، والذين لم يكونوا على مستوى طموحاته، بل كانت آلافهم المؤلّفة هي جنود حقيقية لدريهمات معاوية.

وعلى أي حال فإن الذي يهمنا هنا أن الإمام عليه السلام قد وضع خطته بإحكام شديد وهندسها هندسة متقنة، لكن واقع الناس كان واقعاً مريراً، فهلمّ بنا نتعرّف على سير تلك الأحداث الأليمة.

* مسيرة القوافل

سار عبيدالله بن عباس بالجند حتى بلغ به إلى الفلوجة ومنها إلى مسكن[1]، حيث كان معاوية قد وصلها قبلهم، فنزل الجنود بإزاء

(١) مسكن: وهي موضع على نهر دجيل قرب باذان، وهي القرية التي تكثر فيها البساتين والأشجار.

معاوية، وفي اليوم الثاني أجرى معاوية فيما نسميه اليوم (بالوناً اختبارياً) لمعرفة تصميم الإمام على الحرب حيث وجّه بِخَيْل أغارت على جيش عبيد الله، فوقفوا لها وردوها على أعقابها، فعرف معاوية أن المعركة جدية والتصميم على الحرب قائم ولا تراجع عنه، فأطلق خياله وقواه الواهمة المتخيلة فتفتَّقت عبقريّة مكره إلى استعمال أسلوب الدهاء لئلا يدخل في حرب ضروس مع ابن علي الكرار، الذي لم ينس سيفه وجولاته وبطولاته، إذاً فليكن المكر هو سيّد الموقف عنده، وهو القائل: «والله لأستميلن بالدنيا ثقاة علي ولأقسمن فيهم الأموال حتى تغلب دنياي آخرته»[1] وقد قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام وهو يحذِّر أحد ثقاة معاوية زياد بن سمية (وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذر ثم احذر)[2] وهذه الصفات هي من صفات إبليس، فمن سمات الشيطان أنه يأتي ابن آدم من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وشماله فلعلّه يحظى بالاستجابة، وهو مع ذلك لا يملّ ولا يقطع أمله في غواية أكبر عدد ممكن من الناس.

وهو بدون شك له تاريخ حافل باستمالة جنود أمير المؤمنين عليه السلام وتشهد له قضية رفع المصاحف أنه صاحب الدواهي العظمى والشبهات التي تُؤثِّر في ضعاف النفوس، والتي جعلت أهل العراق ينساقون لها، رغم معرفتهم أن علياً عليه السلام هو الذي يجسد الحق، أما معاوية فهو الذي راهن على جهل الناس، فلماذا يترك جنوده بين

---

(١) سيرة الأئمة الاثنى عشر، هاشم معروف الحسني، ج١ ص٥٧٠.
(٢) ابن الأثير، ج٥ ص١٧٦.

جنود الإمام الحسن عليه السلام يقتلونهم ويستأصلونهم؟ أليست الفتنة عند معاوية وإذاعة الشبهات وإثارة الشائعات هي أمضى سلاح؟ ولماذا لا يلجأ إلى حيله المعتادة فيلوي ذراع الأبطال بشبهات قاتلة خادعة ماكرة؟ ولماذا يحارب ويعيد أمجاد ذي الفقار يجدّدها ابن الكرّار؟ وأي مصلحة لمعاوية إذا أخرج الإمام الحسن عليه السلام السيف من غمده وصار بريقه يُعمي جنود ابن أبي سفيان؟ حيث لا طاقة له على استحضار صور البطولات العلوية، فماذا تراه يفعل؟

* القائد العام.. قائداً للخيانة

بعد أن أدرك معاوية أن الحرب جدية لجأ لحرب ماكرة يملك فيها خبرة طويلة فأرسل إلى عبيد الله كتاباً جاء فيه: «إن الحسن قد أرسلني في الصلح وسلم الأمر لي فإن دخلت في طاعتي الآن تكن متبوعاً خير لك من أن تكون تابعاً بعد غد، ولك إن أجبتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم أعجل لك في هذا الوقت نصفها وعندما أدخل الكوفة لك النصف الثاني»[1]. فكّر عبيد الله بالأمر مطولاً وخاف على سمعته العسكرية التي ستنهار أمام جحافل جنود معاوية، فثار لسمعته وللأسف، وندم على قبول القيادة مستسلماً لأنانيته ورغباته ولعاجلة معاوية على حساب آخرته هو، فما كان من المؤمن الصلب في إيمانه كما هو المفترض وبعد صراع مع نفسه الأمارة إلا الانسحاب أمام دنانير معاوية ودراهمه، وهو إذ يطمع بأن يكون متبوعاً، بدل أن يكون تابعاً، ولم يلتفت الرجل إلى أنه سيتحول إلى لعنة تاريخية، سيُذكر

---

(١) المصدر السابق، ص٥٧٠.

اسمه كلما ذكر أسماء الخائنين، لقد كان بحق المصداق الحقيقي لعبيد الدنيا الذين يجعلون الدين لعقاً على ألسنتهم فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون كما يصفهم سيد الشهداء عليه السلام.

وسقط القائد العام أمام إغراءات معاوية الذي كان يراهن على السفالة التي يألفها ويستأنس بها، وقد ذكر أحد الكتّاب ثقة معاوية بضعف نفوس البشر فقال: «وكان إيمان معاوية بالسفالة البشرية، إيماناً لا حدّ له. وهو إيمان يقوم على الاعتقاد بأن أقوم الناس خلقاً، وأشدّهم عزماً وأنقاهم فضيلة، قد تستغويه الأطماع ويذله الحرص، في ساعة من ساعات الضعف الذي يطرأ على النفوس، وفترة من فترات الشك الذي لا ينفك عن مطاردة الناس، ولا يسلم من غوائله أفاضل الناس وأعالي البشرية»[١].

وانسل من قاعدته ومن بين الآلاف المؤلفة ودخل مع بضعة آلاف في عسكر معاوية، وانتظر جنود الإسلام إمام جماعتهم وقائد معسكرهم عبيد الله ليؤم صلاة الجماعة، فإذ بهم يُفاجئون أن عبيد الله قد أمّ الآلاف لجماعة الخيانة، فيصلي بهم قيس ابن سعد ويأمرهم بالصبر والثبات ويقف بالجنود خطيباً ويقول لهم: لا يهولنكم ولا يعظمنّ عليكم، ما صنع الرجل المولّه، وإن هذا ولاّه علي على اليمن، فهرب من بسر بن أرطأة، وترك وُلده حتى قتلوا، وصنع الآن هذا الصنع» فنادى الناس (الحمد لله الذي أخرجه من بيننا)[٢]. وترك حديثه أثراً كبيراً في نفوس الجنود الذين عاهدوه

(١) علي أدهم، مجلة العالم العربي، سنة ١١، العدد ٢، ص٣٠.
(٢) مقاتل الطالبيين، ص٣٥.

على المضي في الحرب حتى آخر رمق من حياتهم، فيعرض عليهم الحرب مهما كان الأمر فيتردد البعض فيما يستعد آخرون للاستبسال ذوداً عن حياض الدين، فيمضي بهم لقتال معاوية[١]. وكان قد كتب قيس كتاباً إلى الإمام الحسن عليه السلام يخبره بها بفعلة عبيد الله، ولما وصل الخبر إلى الإمام اتّضحت لديه جيداً معالم ما ستكون عليه الأحداث، واستعدّ عليه السلام لسماع المزيد من الأخبار السيئة لما للخيانة من ترددات ونتائج.

* وتكرّ سبحة الخيانة...

كانت خيانة القائد العام عاملاً مهماً في تفكك جيش الإمام، حيث بدأ التسابق على الخيانة، وبدأ عقد الولاء لأهل البيت عليهم السلام بالانفراط وصار التسلل الجماعي يفتك بجيش الإمام الحسن عليه السلام، وكانت خيانة عبيد الله هي الباب الذي فُتح على مصراعيه لأكبر عدد ممكن من الجنود الذين وجدوا في ابن عم الإمام ذريعة كبرى للخيانة على أساس أن الأولى بالوقفة مع الإمام هم أقرباؤه، فلماذا لا يتركون الحسن عليه السلام كما تركه ابن عمه؟ ولماذا لا يلتحقون بمعاوية الذي يملك مالاً وفيراً ودنيا غرّارة، وسيفاً بتّاراً..؟ وكرّت سبحة الخيانة التي بدأت بالآلاف حتى لم يبق مع إمامنا ولو واحدة من تلك الألوف، أو مائة أو... ولم يبق معه عليه السلام إلا نفر قليل وعدد محدود لا يملك أياً من مقومات النصر، لقد كان الأجدر بهذا

---

(١) يقول المؤرخون: اشتبك الفريقان في معركة ضارية كانت نتائجها لصالح المؤمنين وتراجع بسر بن أرطأة بمَن معه إلى معسكراتهم مخذولين مقهورين.

الجيش العقائدي كما هو المفروض أن لا يُشترى ولا يخضع لموازين معاوية الذي أعطى لكل فرد أو قبيلة تسعيرة محدودة، كلٌّ حسب شرفه ومستوى هبوطه في هذا العالم السحيق.

ولو كان هذا الجيش قد تربّى فعلاً على قيم رسول الله ﷺ وابن عمه لما وصل إلى هذا المستوى المتدني والهابط. وصدق المثل العربي القائل: «إن الذي يُباع ولا يُشترى ليس له ثمن» وكانوا بحق عكس تلك المعادلة التي لا يفقهها إلا الشرفاء. إنَّ قيم الحبيب المصطفى ﷺ ومدرسته تقول: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»[1]. إن أصحاب المبادئ لا يشترون بسبائك الذهب، ولا يخضعون أمام سياط الجلادين، لأنهم يعيشون في عالم أسمى وأرفع وأطهر. ولأننا هنا أمام جيش تصاغر أمام الترغيب والترهيب، ما غيَّر معطيات المعركة تغييراً جذرياً. وكان لهذا الانسحاب أثره الكبير في نفس الإمام عليه السلام.

وعلى أي حال كيف سيتصرف الإمام؟

فهل سيكمل خطة حربه أم ستتغير عنده قواعد القتال بتغير المعطيات؟ وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة فلنأخذ بعضاً من العينات والأحداث التي واجهها الإمام عليه السلام والتي شكّلت بدورها نقاط قوة بيد معاوية.

---

(١) الروض الأُنِف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ج٣ ص٤٦. وهناك نصوص كثيرة في هذا المعنى. ففي السيرة النبوية (والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته».

* تسارع الأحداث

أهم الأحداث وأخطرها على الإطلاق هي تلك الخيانة من قِبل عبيدالله بن العباس، والتي أعقبها خيانة ثمانية آلاف من الجيش الذين لم يتركوا الإمام فحسب، إنما تحوّلوا إلى معسكر معاوية، وهذا بدوره قد أضعف مقدمة الجيش الإسلامي وضاعف من أعداد جيش معاوية، بل أحدث الاضطراب في معسكر الإمام الحسن عليه السلام في مسكن وفي المدائن أيضاً، رغم وجود الإمام الحسن بين جنوده، بل إن الأمر تطور إلى أبعد من ذلك حين صارت مشاهدة الإمام عليه السلام بحدّ ذاتها تشكل خطراً على حياته، فقد وصل الحال ببعض جنود الإمام في المدائن أنهم حاولوا إيذاءه، وأصبحوا لا يطيقون النظر إليه عليه السلام حتى اضطر الإمام إلى الانكفاء إلى مقصورة عامله على المدائن سعد بن مسعود ليبتعد عن المحيط والمناخ الذي فرضه معاوية. لقد كان بالأحرى بهم هم أن يخجلوا من النظر إلى الإمام جرّاء تفاعلهم مع دنانير وإشاعات معاوية، لا أن يبتعد هو عليه السلام. فقد تسارعت الأحداث وتغيرت مجرياتها بعد خيانة ثمانية آلاف مقاتل وعلى رأسهم قائد جيشهم، ما جعل معاوية يقدم على المزيد من الأفعال غير الشرعية ويستعمل أدواته المحرمة، ويُغرق الساحة الداخلية لجيش الإمام بالمزيد من الإشاعات والبلبلة في صفوفه، فقد أثار أجواءً ضبابية من الأكاذيب التي كانت تقلب الموازين عند الناس من قبيل تلك الإشاعة التي أذاعها جماعته والتي تقوم (إن الحسن يكاتب معاوية على الصلح، فَلِمَ تقتلون أنفسكم)[1].

---

(١) شرح نهج البلاغة، ج٤ ص١٥.

فتارة كان يُذاع في المدائن أن قيس بن سعد أحد قادة جيش الإمام قد صالح معاوية والتحق به[١]، وأخرى كان يشاع في مسكن أنَّ الإمام صالح معاوية[٢]، وإلى ما هنالك من إشاعات كانت تقضي على بقيةٍ من معنويات الجيش وللأسف، ولم تكن الإشاعات أسلحة معاوية الوحيدة، لأنه استعمل أساليب أخرى مخزية له ولمن قِبَلها وهي تقديم الرشاوى حتى لأشخاص معروفين، ولهم مكانتهم والتي كان من تأثيرها، أن الإمام الحسن عليه السلام لما وجّه قائداً من كندة على رأس أربعة آلاف وأمره أن يعسكر بالأنبار[٣] وأن لا يحدث شيئاً حتى يأتيه أمره، ولما عرف معاوية كتب له كتاباً يعرض عليه فيه بعض كور الشام والجزيرة، وأرسل له خمسمائة ألف درهم، فقبض الكندي المال والتحق بمعاوية مع مائتي رجل، ولما بلغ الخبر الإمام الحسن عليه السلام تأثّر وقام خطيباً وقال عليه السلام ـ وقلبه يحترق من المجتمع الدنيوي ـ «هذا الكندي توجه إلى معاوية، وغدرَ بي وبكم وقد أخبرتكم مرة بعد مرة أنه لا وفاء لكم، أنتم عبيد الدنيا، وأنا موجّه رجلاً آخر مكانه وإني أعلم أنه سيفعل بي وبكم ما فعل صاحبكم، ولا يراقب الله فيّ ولا فيكم»[٤].

ثم بعث عليه السلام رجلاً آخر من مراد في أربعة آلاف، وأخبره بأنه سيغدر كما غدر الكندي فحلف له بالأيمان الموثقة. فلم يطمئن

---

(١) لاقت هذه الإشاعة رواجاً كبيراً خصوصاً في نفوس الجيش.

(٢) اليعقوبي، ج٢ ص١٩١.

(٣) الأنبار: مدينة كانت على الفرات (غربي بغداد)، تبعد عنها عشرة فراسخ، وقد سميت بالأنبار لأنها كانت تجمع بها أنابير الحنطة والشعير أيام الفرس.

(٤) البحار: ج١٠ ص١١٠.

الإمام لكل أيمانه وقال: «إنه سيغدر» ولما وصل المرادي إلى الأنبار، عرض عليه معاوية ما عرضه على الكندي فانقلب على الإمام والتحق بمعاوية. ولرب سائل يسأل: إذا كان الإمام قد عرف أن الكندي والمرادي وغيرهما سيلتحقون بمعاوية فلماذا أصرّ على إرسالهم؟ والجواب باختصار: أن الإمام عليه السلام يمارس مهامه القيادية بمعزل عن معرفته بالأمور الغيبية، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يحشد كل إمكانياته وطاقاته، وهو الذي لم يكن يترك فرصة يمكن أن تشكل عامل تقدّم في معركته إلا واستغلها أيما استغلال، إلا أنه المجتمع المريض الذي يُضعف القائد مهما كانت قوته جبارة، وهذا يذكرنا بخطاب نبي الله لوط عليه السلام حينما قال لقومه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[1]. وهكذا إمامنا الحسن عليه السلام الذي سُلب القوة والعدد والعديد، حتى باتت خياراته تضعف تدريجياً، فالناس هم الناس من أبناء الدنيا، والجيش هو من أولئك الناس، وللدلالة على عمق الأحداث وفداحتها وأثرها على الإمام، يكفي معرفة نفسية الجنود الذين هم حسب الفرضية من الجنود المدافعين عنه عليه السلام، لكنهم كانوا بالواقع أصحاب نفسيات منحطة، فهم أباحوا لأنفسهم سرقة أمتعة الإمام من بساط كان يجلس عليه ورداء يلبسه[2]، وسمحوا لأنفسهم توجيه الاتهامات الباطلة للإمام العظيم، حتى انبرى قائلهم وهو الجراح بن سنان ـ وهو خارجي ـ

---

(١) هود: ٨٠.

(٢) البحار، أعيان الشيعة، تاريخ اليعقوبي، وحياة الإمام الحسن للقرشي، ج٢ ص١٠٢.

قائلاً له عليه السلام: «أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل»[١]، والجراح هذا طعنه في فخذه عليه السلام.. وقد تعرّض إمامنا عليه السلام ثلاث مرات لمحاولات اغتيال في ظل هكذا مجتمع وجنود. وقد أخذ جماعة ممن يدّعون الإسلام مصلاه من تحته، وحمل آخرون ثوبه فنزعوه، ثم حمل الإمام جريحاً إلى المدائن لمعالجة جرحه[٢].

* هل يترك الإمام الساحة؟

أمام كل الانهيارات والفتن التي تجعل الحليم حيراناً، هل يستسلم الإمام لجبروت معاوية دون أن يقلب الطاولة على رأسه ليخرج من الأمر بأقل الخسائر؟ نجيب على ذلك بما يلي: لا بد أمام مكر معاوية من خطة تفضح نفاقه وتكشفه زيفه، رغم أن الرجل قد أحكم خطته، بحيث يضطر الإمام ليبين للناس مدى خطورة آثار ونتائج الاستسلام له فقال عليه السلام: «ويلكم، والله: إن معاوية لا يفي لأحدٍ منكم بما ضمنه من قتلي، وإني أظن أني إن وضعت يدي في يده فأسالمه لم يتركني أدين بدين جدي، وإني أقدر أن أعبد الله عزَّ وجلّ وحدي. ولكن كأني أنظر إلى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم يستسقونهم ويطعمونهم بما جعل الله لهم فلا يَسقون ولا يُطعمون، فبعداً وسحقاً لما كسبته أيديهم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»[٣] وبهذا بيّن الإمام للناس أن معاوية لا يفي

---

(١) الإرشاد، ص١٠٧.

(٢) تم أيضاً طعن الإمام عليه السلام بخنجر أثناء تأديته للصلاة، كما ورد في ينابيع المودة، ص٢٩٢.

(٣) حياة الإمام الحسن، ج٢، باقر شريف القرشي، ص١٠٥.

بالعهود، وأن مستقبل أبنائهم سيكون مظلماً وسيتحولون إلى متسولين على أعتاب أبناء معاوية وأضرابه، ولن يقدّروا وقفتهم مع آبائهم، وكان الإمام يدرك حقيقة الناس والمستقبل الذي كان ينتظرهم في ظِلِّ زعامة معاوية، لكن ماذا عليه أن يفعل حيال جهل الناس وفهمهم المغلوط؟ فهل يترك الساحة لحكّام الجور أم أنه يجمّدها ريثما تتغير الظروف، حتى إذا ما نضجت فكرة الثورة عند الناس فلا بد من الجهاد والقيام، والمعاناة نفسها التي عانها إمامنا الحسن عليه السلام هي معاناة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يتحسّر على وضع المجتمع الإسلامي الذي لا يمكن الحديث عن بصيرته وبطولاته بضرس قاطع، وطالما كانت آهاته التي تصف المجتمع السيئ تعبّر عن ألمه ووجعه الحقيقي، وقد كان يخاطب الناس بقوله عليه السلام: «المغرور والله من غررتُمُوه، ومن فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب،... أصبحت والله لا أصدّق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أُوعِد العدوَّ بكم، ما بالكم! ما دواؤكم ما طِبكُم القوم رجال أمثالُكم»[1] فإذا كان العاقل لا يجني من الصفصاف ثمراً، فكيف يُعقل أن يجني من ضعاف النفوس والذين يُشتَرَوْن بالمال وممّن اختاروا لأنفسهم أن يتفيّئوا بظلال الشجرة الملعونة، فكيف يعقل أن يجني من أولئك ثماراً؟ وأن يتوقع منهم آثاراً غير تلك الآثار السيئة التي تلطّخ وجوههم وتقبّح ذواتهم؟ وعلى أي حال فهو عليه السلام لن يترك الساحة لأهل الباطل ولن يضن بحياته من أجل دنيا زائلة، وسيتصدى لتكليفه مهما كانت نتائجه صعبة وأليمة.

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ٣٠، إصدار المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية في إيران.

* لِمَ احتفظ الحسن بحياته؟

لا يشك أحد بأن روح الحماسة في قلب الإمام الحسن عليه السلام هي أجلى وأوضح من الشمس في رابعة النهار، وليس الإمام في موضع الاختبار ليُظهر للناس حبه للاستشهاد، فنخوة البطولة العلوية تهدر في صدره، وشجاعة أبيه القائل عليه السلام «والله لو تظاهرت العَرَبُ على قتالي لما ولّيتُ عنها، ولو أمكنتِ الفرص من رقابها لسارعتُ إليها»[1] هي أشهر من أن تُعرَّف، والإمام الحسن هو بعض أبيه، لم تكن تنقصه شجاعة التقدّم نحو الموت، وهو ابن مدرسة الاستشهاد، وابن الذي آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، لكن الموت ليس مقصوداً بذاته لدى الأئمة عليهم السلام فالاستشهاد مبني على مشروع وبرنامج وأفق، وهو بدونها لا يستكمل عوامل النجاح، فلو تقدّم الإمام إلى الموت وعانقه مع تلك الثلة القليلة، فهل سيكون هناك ثمار لهذا الاستشهاد ونتائج، وهل يأخذ عمله البطولي الملحمي طابعاً مقدّساً أم أنه سيأخذ طابع الخروج عمّا درجت عليه الأمة والمجتمع الإسلامي؟

فموت الإمام سيحقق حلم معاوية الطامع بأن يسود العالم الإسلامي، إنّ قتل الإمام وأصحابه في معركة غير متكافئة على الإطلاق سيُمكّن معاوية من القضاء على تاريخ الإسلام المجيد، وسيعمل حتى على طمس معالم التوحيد، ولن يبقى بعد ذلك من ذكر محمد أو ذكريات محمد شيء، ويكون لسان حاله ما كشفه لسان مقال ولده يزيد:

---

(١) نهج البلاغة، من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف، ص٤٥.

لعبت هاشم بالملك فلا
خبر جاء ولا وحي نزل[1]

وسيبدأ التاريخ تاريخاً أموياً، وبهذا لن تؤدي الشهادة دورها عند الإمام عليه السلام، وليس من طبع الأولياء حب البقاء في دنيا الظلم والظلمات، خصوصاً لدى ريحانة النبي، فهل يمكن للإمام أن يستطيب الدنيا ويستعذب البقاء فيها، وهي التي تنكّرت له بأهلها ورجالها وتظاهرت عليه وغدرت به أقبح الغدر؟ يقول الإمام الخميني (قده) وهو يتحدّث عن أولياء الله «ولولا المصالح الإلهية العليا لما ثبتت نفوسهم لحظة واحدة في سجن الطبيعة المظلمة»[2] فهم ـ الأولياء ـ لا يستأنسون بالدنيا، ولا يملكهم الحرص عليها لأنها بنظرهم كما يقول الإمام الحسن عليه السلام عنها «فإن الدنيا لا يدوم نعيمها ولا تؤمن فجيعتها ولا تتوقى في مساويها، غرور حائل»[3]، فحياة الإمام الحسن عليه السلام ليست حياة فرد عادي من هذه الأمة، بل هي حياة روح الأمة ورمزها وسرّها، وحياته عليه السلام هي حياة الأولياء الذين لولاهم لساخت الأرض بأهلها، وعلى أي حال لم يكن الإمام في وارد البقاء على قيد الحياة على حساب مصلحة الدين والقرآن، بل إن مصلحة العليا هي التي حتّمت عليه بأن يأخذ دوراً صعباً وتكليفاً شاقاً لا يفقهه إلا ذو حظٍ عظيم.

---

(١) نثر اللآلئ على نظم الدراري للألوسي.
(٢) الأربعون حديثاً.
(٣) تحف العقول، ص٥٦.

ماذا لو استشهد وحيداً؟

بعد أن تحدّثنا عن الإمام عليه السلام وعدم إمكانية أن يكون ضنيناً على حياته، فلا بد من افتراض الاستشهاد بالنسبة له عليه السلام حتى لو خُذل وغُدر به، ألا يمكن أن تشكل شهادته صدمة للمجتمع لعلّه يصحو بها من غفلته؟ وما هي صورة الواقع لو أن الإمام اختار الموت الأحمر على الحياة التي أساءت الأدب معه عليه السلام من خلال أبنائها؟

ألا يمكن بسلاح الاستشهاد تحقيق ما لم يتحقق بالصلح؟

والأمر وباختصار: أن الإمام لا يفرّط بحياته وبوجوده النوراني من أجل هدف لم تتبلور معالمه بعدُ، فالإمام الحسن مهم وعظيم، إلاّ أن الدين أهم وأعظم، لكن هل يزج إمامنا عليه السلام بنفسه في أتون الموت وفي التهلكة الحتمية التي لن تؤدي بدورها إلى نتائج مهمة وأهداف مرجوّة؟ وللإمام عليه السلام وضعية خاصة تختلف حتى عن بقية الأئمة الأطهار كما بيّنا أكثر من مرة، فقَتْلُهُ عليه السلام سيوجّه ضربة قاسمة للإسلام. لأن الإمام الحسن وهو على سدة الحكم يمثّل ليس الإسلام المعنوي فحسب، بل الرسمي أيضاً، وقتله يعني ضرب الرأس للمجتمع الإسلامي والأمة بأكملها، فلو كان يعلم أن الاستشهاد سيعطي آثاراً إيجابية لكان هو الاستشهادي الأول بعد أبيه عليه السلام يقول الشهيد مطهري: «نرى خصوصية وضع الإمام الحسن عليه السلام فهو خليفة ثار عليه باغٍ وطاغٍ، فلو قتل الإمام الحسن عليه السلام في هذه الحال فهذا يعني مقتل خليفة المسلمين وهزيمة لمقام الخلافة، ومقاومة الإمام الحسن عليه السلام ستؤدي به إلى القتل

كما أدّت مقاومة عثمان إلى مقتله»[١] وواضح معنى أن يُقتل الخليفة الرسمي، الذي يؤدي بدوره إلى استهتار الأمة بكل شيء، فلا يبقى حرمة لشيء ولا كرامة لأحد، ألم يتقدم معنا أن أمير المؤمنين عليه السلام دافع عن عثمان حتى خشي أن يكون آثماً؟

والدفاع الحقيقي الذي دافعه الإمام عبر ولديه الحسنين عليهما السلام ليس من أجل بقاء عثمان كشخص رغم المخاطرة بسبطي رسول الله صلى الله عليه وآله، وإنما من أجل الدفاع عن الموقع الرسمي الأول المتقدم، وصوناً لمحرمات يعتبر خرقها والتعدي عليها اعتداء سافر على الإسلام كله والمقدّسات كلّها.

يقول العلاّمة الشيخ مطهري رحمه الله «الإمام الحسين عليه السلام سعى إلى أن لا يُقتل في مكة، لماذا؟ لأن ذلك موجب لهتك مكة، ما دام سيقتل عليه السلام على أي حال فلماذا يُقتل في حرم الله وبيت الله المستلزم لهتك حرمة البيت أيضاً»[٢].

ومن كلام العلامة المطهري يتبين لنا حقيقة هي من جملة حقائق كثيرة، وهي أن الإمام الحسن الذي أدار ظهره للدنيا، كان يهرب من سقوط الحالة الرمزية للأمة، تماماً كهروب الإمام الحسين عليه السلام من أن يقتل في مكة وهو عالم بأنه مقتول لا محالة، لكنه لا يريد أن يقدّم للأعداء المزيد من التجرّؤ على الحرمات والمقدسات، فهو عليه السلام من تلك الحرمات، بل من أعظمها، وليس معنى ذلك أنه

---

(١) سيرة الأئمة الأطهار، تأليف مرتضى المطهري، ترجمة الشيخ مالك وهبي، دار الهادي، ص٧٤.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

إذا لم يكن خليفة على المستوى الرسمي صار دمه مهدوراً، بل إنه لا يريد للقوم أن يُمنعوا في التجرؤ على المقدسات والمقامات الإلهية، ما يشكّل سابقة خطيرة، تضاف إلى سوابق أخطر وهي التصفية الجسدية للأئمة الأطهار، لكنهم عليه السلام لن يمكّنوا أئمة الكفر والنفاق من إعطائهم ولو فرصة واحدة طالما أنهم قادرون.

ومن هذه المعادلة كان حفظ نفس الإمام واجباً معيناً، فهو محكوم بضوابط المصلحة الإلهية، ولا يمكن ولو في لحظة واحدة أن يخلو بنفسه بعيداً عن الواجب الإلهي المقدس، فهو الميزان والمقياس للحق، وهذا ما نفهمه من النصوص النبوية الشريفة، فالمتهم هو غيره، هو من تركه وتخلّى عن نصرته وليس هو عليه السلام.

* ماذا عن خيارات أخرى؟

مهما حاولنا افتراض خيارات أخرى يمكن لها أن تشكِّل بدائل عمّا حصل، ستؤدي إلى محصلة مفادها: أن أي خيار غير الذي حصل ليس له نتائج مرضية، لأن أي عمل ـ صغيراً كان أم كبيراً ـ يُمكن القيام به، فمن الواجب دراسة نتائجه المتوخاة أو آثاره المرجوة، فإذا لم يكن يصب في الغاية المنشودة فهو عمل مرتجل وغير سليم، وليس من الحكمة الإصرار عليه طالما أن نتائجه هي عكس المراد والمرجو، ولنفترض هنا بديلاً عن الصلح وهو أحد أمرين: الحرب السجال التي يمكن لها أن تحقق نصراً على الأعداء، وهي الحرب المتكافئة من حيث الجنود والعدة والعدد، وفي تلك المعركة تكون فرص النصر موجودة ومتوفرة، والخيار الآخر اختيار القتل ولا نقول الحرب المتكافئة التي تمكّن من النصر

أحياناً ومن الهزيمة أحياناً أخرى، بل اختيار طريق الاستشهاد بعد إندحار وغدر بعض قادة الجيوش، وانسحاب الآلاف من الجنود، وهنا يكون طريق الاستشهاد كمن يمكّن العدو من نفسه ويطلب منه أن يضع حدّاً لحياته فيقتله، ولا يشكّل القتل والاستشهاد زلزالاً في المجتمع لأن إعلام معاوية ولسانه ونفاقه وجواسيسه، هو الذي سيقرأ للمجتمع البيان الرسمي الختامي الذي يشكل بدوره كسراً لهيبة الدولة الإسلامية، ويفتح الباب على مصراعيه لأمثال الطاغية أن يقتل ما يشاء ثم يصدر بيانه عقيب الحادثة، أنه قتل المتمرّدين ووضع حداً للعابثين بأمن المواطن والحكومة. فإذا كان استشهاد الإمام الحسن عليه السلام لا يؤدي دوره في يقظة الشعوب المعاصرة له، وتوعية الجيل الجديد، فإن معاوية هو الذي يصوغ البيان ويندِّد بالمشاغبين ويدعو إلى يقظة الجماهير كما يفعل حكّام عالمنا العربي مع أي حركة تريد يقظة الجماهير، أما عن المستقبل فأضراب معاوية وأشكاله هم الذي يكتبون التاريخ ويقتلون الحاضر ويدفنون المستقبل، فتكون النتائج ليست أقل من المرجو، بل عكسها ولن يتأتّى لمثل كربلاء أن تشكّل الصدى الذي لا يزال يتردد إلى الآن وإلى أن يبدّل الله الأرض غير الأرض والسماء، لأن الأذن التي تُصم عن سماع الحق، والعين التي تعمى عن الحقيقة الإلهية ستكون لها كربلاء محطة استلهام وعِبَر. لأن دماء الاستشهاد هي اللافتة التي تشير إلى وجهة الطريق، والبوصلة التي تؤشر إلى الحقيقة التي لا يألفها إلا القلة من المؤمنين الرساليين، وتبقى كربلاء أبد الدهر مدينة للإمام الحسن عليه السلام الذي أنضج ظروفها وأينع ثمارها سلام الله عليه، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الأئمة الأطهار عليهم السلام ليسوا

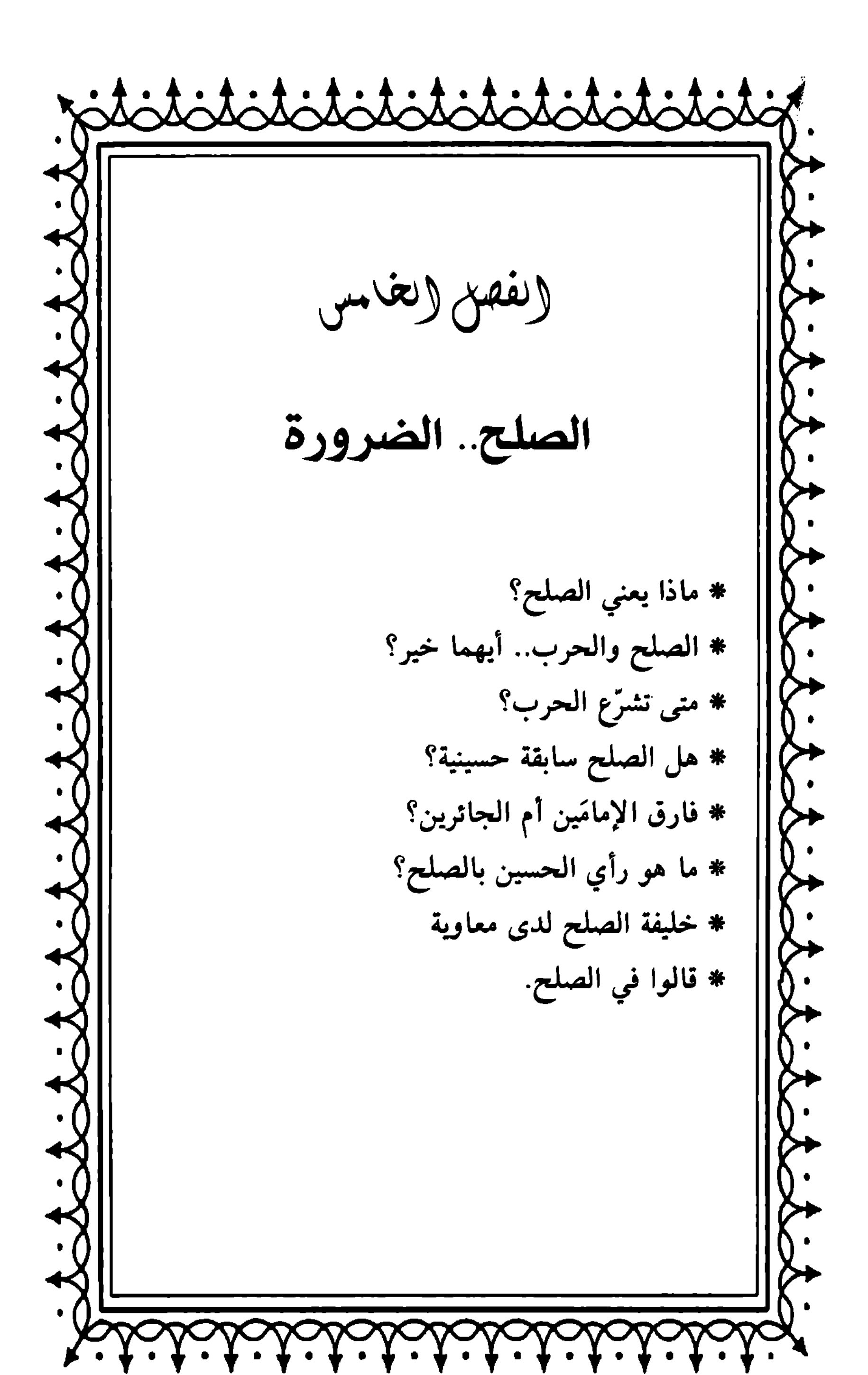
كالمسؤولين السياسيين الذين يعيشون هاجس أن يقطفوا ثمار النجاح ويظهر للعيان نجاحهم وتميزهم عن غيرهم[1] بحكم انقيادهم ﷺ إلى المصلحة العامة. فالقطاف عندهم هو الفائدة التي تقُدّم للإسلام وصالح المجتمع بشكل عام.

ولا يهمهم القطاف الفردي والاستفادة الشخصية ولا السمعة أو الشهرة. إن الذي يستولي على جوارحهم. همّ واحد لا أكثر وهو كيف يؤدون واجباتهم الشرعية؟ وما هي الطريقة المثلى لخدمة المجتمع، ليكون مجتمع الدين والرسالة؟ ومجتمع الحق والعدالة بعيداً عن سلطة القهر وطواغيت كل زمن وعصر.

ومن هذا المنطلق كانت كربلاء في ذهن إمامنا الحسن عليه السلام هي الحاضرة وهي البلسم لكل الجراحات النفسية والجسدية، وهي العناصر الإضافية للمجتمع الإسلامي الذي فقد المناعة وماء الوجه أمام نبي الرحمة وباقي الأنبياء. فكانت كربلاء الحافظة لماء وجه الأمة، والصائنة لمجد الأمة بعد صولات وجولات الطواغيت الذين أرادوا نسف قيم العدالة وأن يحكم غير الله!

---

(١) إن أبرز مثال على ذلك، هو التعاون الذي يسود أي مجموعة تحمل هماً واحداً، وعلى سبيل المثال فريق كرة القدم الذي يحقق نجاحات بقدر ما تجتمع جهود المجموعة، اما لو كان كل فرد يريد تحقيق الفوز الشخصي لنفسه فإن فشلاً ذريعاً سيكون بانتظارهم.



الفصل الخامس

الصلح.. الضرورة

* ماذا يعني الصلح؟
* الصلح والحرب.. أيهما خير؟
* متى تشرّع الحرب؟
* هل الصلح سابقة حسينية؟
* فارق الإمامَين أم الجائرين؟
* ما هو رأي الحسين بالصلح؟
* خليفة الصلح لدى معاوية
* قالوا في الصلح.



الصلح.. الضرورة

* ماذا يعني الصلح؟

هو الاتفاق على عدم الاعتداء، وبعبارة أخرى هو الاتفاق على عدم الحرب، وقد عبّر المحقق الحلّي في كتاب شرائع الإسلام عنه بقوله: «المهادنة وهي المعاقدة على ترك الحرب مدة معينة، وهي جائزة إذا تضمّنت مصلحة للمسلمين»[1] والمهادنة تعني المصالحة والمهادنة تعني الصلح. وعلى أي حال فإذا هاجم العدو أرض المسلمين فإن تحرير الأرض واجب، لكن إذا اقتضت المصلحة عقد الصلح فليكن ذلك إلى أمد معين، إذ لا يجوز أن تكون المصلحة مكرّسة للاحتلال إلى أجل غير محدود[2]، ويقول العلامة

---

(١) سيرة الأئمة الأطهار، تأليف مرتضى المطهري، ترجمة الشيخ مالك وهبي، دار الهادي، ص٦٢.

(٢) في الفقه الإسلامي يجوز الصلح في ظروف خاصة سواء كان الصلح اتفاقية أم كان مجرّد ترك حرب، فحين يكون هناك اتفاق يعبّر عنه بالصلح كما حصل مع النبي الأكرم ﷺ في صلح الحديبية، ومع الإمام الحسن عليه السلام في صلحه مع معاوية، وحين لا يكون أي اتفاق فيراد به اختيار طريق المسالمة وعدم الحرب كما كان المسلمون في بداية الدعوة الإسلامية.

الشيخ مرتضى مطهري «عندما لا يملك المسلمون القدرة والحرب فلا بد من الصبر حتى تحصل القدرة أو لما يحصل به الاستظهار، أي يُرجى في مدة الصلح كسب القوة أي التخطيط لتحصيل الدعم، أو لرجاء الدخول في الإسلام مع التربّص، أي يؤمل أن يدخل المحتل في دين الإسلام»[1]، هذا ما يمكن قوله وباختصار شديد بعيداً عن مطولات التعريف والإطناب.

* الصلح والحرب.. أيهما خير؟

التصدّي للدفاع عن ثورية الحسن وأنه عليه السلام يملك سجلاً بطولياً رائعاً في ساحات الوغى مهم جداً، لئلا يُنظر إليه على أنه محب للدعة والراحة، والهجوم الدائم على كل من يصف الإسلام بالإرهاب مهم أيضاً، لئلا يُرى من منظارٍ فيه من القساوة والعنف الشيء الكثير، ولا أدري لماذا علينا دائماً التصدّي للدفاع تارة عن ثورية الإسلام وأنه غير إرهابي، وللدفاع أخرى عن عفوه وسماحته، وأنّه لا يقبل لأبنائه الذل والهوان؟ كل هذا وذاك هو من أسر النظرة الضيقة التي يُفهم الإسلام من خلالها، فيبالغ المتحمس في وصفه للإسلام الثوري حتى يكاد يُشعرك بأن الإسلام ليس فيه إلا القتل ولا شيء عن الصفح والعفو، ويبالغ المحدود في ثقافته في وصفه للإسلام وسماحته وتواضعه لحدٍ يُشعرك بأن قيم الإسلام مبنية على أن تطأطأ رأسك للناس دوماً وبذلك تخدم الدين، كما يخيّل لصاحب هذه النظرية.

---

(١) سيرة الأئمة الأطهار، تأليف مرتضى المطهري، ترجمة الشيخ مالك وهبي، دار الهادي، ص٦٣.

فالإسلام ليس دين الحرب، لأن الحرب فيه استثناء وهي في الظروف الاستثنائية، وقد نزلت آيات القتال بعد أن تعرّض المسلمون للقتل والإيذاء والتشريد، وكانت الإجازة بالقتال بعد أن ذاق المسلمون الأمرّين، وبعد أن أذِن لهم النبي بالهجرة إلى الحبشة، إلى أن كانت هجرته ﷺ إلى المدينة المنوّرة، حتى نزلت آية القتال والدفاع عن النفس، كما قال سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1]. فلا يكون الإسلام دين الحرب، بل أن تشريع الحرب كان بمثابة الدفاع عن الوجود الإسلامي وبيضة الإسلام، فالإسلام دين السلم والحرب معاً، ومن هذا المنطلق يكون الصلح خيرٌ ومصلحة إذا كان يحمي المسلمين ويصون أعراضهم، فقد تجب الحرب في ظرف دون غيره، وقد يجب الصلح في ظرف دون غيره، والحرب ليست مطلوبة دائماً أو الصلح، فربما يكون في زمنٍ ما وجوب الحرب هو الحل الأمثل، وبعد فترة زمنية محددة يكون واجب الجهاد هو الأمثل، وعلى أي حال فلا الدين دين الحرب دائماً، ولا هو دين الصلح دائماً.. بل هو دين يقدّر مصلحة الناس، فلا يلقيهم في التهلكة ولا يتركهم يعيشون حياة الذل والمسكنة، وهو الذي يُلزم المسلمين ويقودهم ولا يتركهم يعيشون حياة الذل والمسكنة، وهو الذي يُلزم المسلمين ويقودهم إلى الحرب أو

---

(١) الحج: ٣٩ ـ ٤٠.

الصلح، بقدر امتلاكهم القوة وسيطرتهم وقدرتهم في الظرف الذي يعيشون، وأي حاكم وظالم يواجهون!

* متى تشرّع الحرب؟

تشرع الحرب في الإسلام في عدة مجالات:

١ ـ الحرب الابتدائية: وهي مع الكفار والتي يجيز الإسلام فيها للمسلمين مهاجمة المشركين للقضاء على الشرك، ويشترط فيها حضور الإمام المعصوم، وشرط هذا الجهاد أن يكون المجاهد بالغاً عاقلاً حراً رجلاً.

٢ ـ الحرب الدفاعية: وهي إذا هاجم عدو بلاد المسلمين يخشى منه على بيضة الإسلام، فيجب على الأمة المبادرة إلى الدفاع سواء كان المدافع رجلاً أم امرأة، حراً أم عبداً، ولا تحتاج إلى إذن الفقيه والحاكم الشرعي[1].

٣ ـ حرب البغاة: وهي إذا وقعت حرب داخلية بين طائفتين من المسلمين تريد إحدى الطائفتين أن تبغي على الأخرى، فعلى جميع المسلمين أن يسعوا أولاً إلى الصلح بينهما ويتوسطوا للمصالحة بين الطرفين فإن عاند أحدهما ولم يقبل الصلح فعلى المسلمين أن

---

(١) ويقول الفقهاء «ولا يختص الدفاع بمن قصدوه من المسلمين، بل يجب على من علم بالحال النهوض إذا لم يعلم قدرة المقصودين على المقاومة». كما في مسالك الأفهام، ج١ ص١١٦، «فكل من علم بالأمر عليه واجب الدفاع إلا إذا علم أن المقصودين بالهجوم قادرين على الرد، وإلا فيجب، وكلما كان الإنسان أقرب كلما كان الوجوب عليه آكد» كما في كتاب سيرة الأئمة الأطهار ـ تأليف مرتضى مطهري، ص٦٠.

يدخلوا الحرب لصالح الفئة المظلومة ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾[1] وكذلك الذين يخرجون على الإمام المعصوم، فيجب على الإمام محاربتهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، كما صنع الإمام علي عليه السلام يوم الجمل وصفين والنهروان.

* هل الصلح سابقة حسنية؟

حارب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله المشركين تارة وعقد الصلح معهم أخرى كما في صلح الحديبية[2] الذي عقده مع ألدّ أعدائه لمدة عشر سنوات، وقد أعقب الصلح هذا حيرة الأصحاب[3]، وقد وصف هذا الصلح الإمام جعفر الصادق عليه السلام بقوله: «وما كان قضية أعظم بركة منها»[4] وعقد صلى الله عليه وآله معاهدة مع اليهود والتي تضمنت بدورها

---

(١) الحجرات: ٩.

(٢) تعهد المسلمون وقريش بترك الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم على بعض كما نصت الوثيقة، وهناك بنود أخرى نذكر بعضاً منها وهي: من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه، ردّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممّن مع محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو الشام فهو آمن على دمه وحاله، كما في بنود الصلح وكما ذكر في مجمع البيان، ج٩ ص١١٧.

(٣) أوقع صلح الحديبية في نفوس المسلمين الاضطراب وقد ذهبوا مذاهب مختلفة ومتعدّدة جراء هذا الصلح، الذي تبين لهم فيما بعد أن المصلحة الإسلامية العليا تقتضيه، وقد كان من آثار هذا الصلح أن دخل المسلمون مكة فاتحين منتصرين، لكن تسرّع الناس في إطلاق الأحكام المسبقة هو الذي يُلقي بظلاله على المشككين والمرجفين.

(٤) سيرة سيد المرسلين، للشيخ جعفر السبحاني، دار الأضواء، ج٢ ص٣٤٨.

عدم تعرّض أي من الطرفين للآخر، وحارب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب تارة وسالم أخرى، حتى أن الزهراء عليها السلام وهي التي تعرف شجاعته وبطولته، سألته ذات يوم عن قعوده «ما لك يا ابن أبي طالب اشتملت شملة الجنين وقعدت حجرة الظنين... إلى أن قالت: ويلاي في كل شارق! ويلاي في كل غارب.. اللهم إنّك أشدّ منهم قوة وحولاً، وأشدّ بأساً وتنكيلاً؟ وتعني بذلك حبيبة المصطفى إنك يا علي الذي تفرّ عنك الأبطال ويخافك الرجال، فلِمَ أنت في بيتك تشبه الجنين الذي يجمع يديه ورجليه وهو في رحم أمه؟ ولِمَ حبستَ نفسكَ وكأنك المتهم الذي لا يحب أن يراه أحد؟ فأجابها عليه السلام: «لا ويل لكِ بل الويل لشانئك[1] ثم نهنهي عن وجدك[2] يا ابنة الصفوة، وبقية النبوة، فما ونيت عن ديني[3] ولا أخطأت مقدوري[4] فإن كنت تريدين البلغة، فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أُعدّ لك أفضل مما قطع عنك، فاحتسبي الله: فقالت حسبي الله وأمسكت»[5]. وطمأن المرتضى ابنة المصطفى أن المسالمة هي لحفظ الدين ولصالح الأمة، وهو القائل عليه السلام في الخطبة المعروفة بالشقشقية: «وَطفِقْتُ أرْتئي بين أن أصول بيدٍ جَذّاءَ[6] أو اصبرَ على طَخيَةٍ عمياءَ[7] يهرمُ فيها الكبيرُ، ويشيبُ فيها

---

(١) مبغضك.

(٢) أي كفي عن حزنك وخففي من غضبك.

(٣) ما كللت ولا ضعفت ولا عييت.

(٤) أي لم أترك ما قدرت عليه.

(٥) الاحتجاج للعلامة الطبرسي، مؤسسة الأعلمي، ص١٠٨.

(٦) مقطوعة أو مكسورة.

(٧) الظلمة الشديدة.

الصغيرُ ويكدحُ فيها مؤمنٌ حتى يلقى ربَّه، فرأيت أن الصَّبر على هاتا أحجى[١]، فصبرتُ وفي العين قذىً، وفي الحلق شجاً..»[٢]. فسلام الله على هذا العبد الصابر والمطيع لله وللرسول، كيف صبر وعانى القهر ليكون المنتصر هو الدِّين. لذلك كانت تحكمه مصلحة الدِّين ولو على حساب نفسه وكان المصداق لقوله هو عليه السلام حين وصف المؤمنين المجاهدين بقوله: «حملوا بصائرهم على أسيافهم»[٣]، وعلى ما تقدّم فالصلح ليس سابقة للإمام أبي محمد عليه السلام تفرّد بها عن غيره، وهو عليه السلام مسبوق بفكرة الصلح وهو حفيد الرسول صلى الله عليه وآله الذي كان يخبر أهل بيته بما سوف يواجهونه بدنياهم بعد وفاته صلى الله عليه وآله، وطالما كان يتذكر أقوال جدّه صلى الله عليه وآله وأبيه والتي أخبرته بما ستصل إليه الأوضاع، فذات يوم أخبره أبوه عليه السلام بقوله: كيف بك يا حسن إذا ولي هذا الأمر بنو أمية؟ وأميرها الرحب البلعوم.. فيستولي على غربها وشرقها، تدين له العباد، ويطول ملكه ويسنّ البدع والضلال، ويميت الحق وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله.. ويظهر الباطل، ويقتل من ناوأه على الحق»[٤].

فالإمام عليه السلام لا يقوم بأي عمل بمعزل عن رأي الإسلام، فهو من تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، ومعاذ الله أن يكون لإمامنا الحسن عليه السلام نهج يُخالف نهج السابقين له واللاحقين به من الأئمة الأطهار عليهم السلام.

---

(١) ألزم.

(٢) نهج البلاغة، د. صبحي الصالح، خطبة ٣، ص٤٨.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٠.

(٤) البحار، حياة الإمام الحسن، باقر شريف القرشي، دار البلاغة، ج٢ ص١٣٦.

فهو عليه السلام غُصن شجرة النبوة الذي لا يحيد عن الحق ولا يتزحزح عنه قيد أنملة، وكما لم يكن الصلح سابقة جديدة على الإسلام، لم يكن الأخير، فالإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قَبِلَ ولاية العهد للمأمون العباسي ضمن ظروف قاهرة فرضت عليه لمصلحة إلهية عليا لسنا الآن بصدد ذكرها، وللمصلحة ذاتها غيّب الله الإمام الثاني عشر (عج) عن الأنظار، وطالما هو في غيبته الكبرى، فهذا معناه أن الأمة لم تصل بعد إلى مستوى النضوج لظهوره، وأنّ الله ادّخره لأنه لا يأمن بعدُ على حياته الشريفة حيث لا يزال الخطر محدق به (أرواحنا لتراب مقدمه الفداء)، وكلما ارتقت الأمة في سُلّم الإيمان فهي تقرّب ظهوره المبارك الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً ويطهرها من الطواغيت والجبابرة ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[1].

* فارق الإمامَيْن أم الجائرَيْن!

هل هناك فرق على مستوى الشخصية بين الإمام الحسن عليه السلام وبين الإمام الحسين عليه السلام؟ وهل يرغب أحدهما بالقتال بينما يكرهه الآخر، أو يكره أحدهما الصلح ويحبه الآخر؟ وهل علينا أن نستسلم لمقولات سطحية حادت عن الحق حتى وصفت الإمام الحسن بأنه يميل إلى الترف، ولا خبرة له بشؤون السياسة العامة، وأنه ضعيف الإرادة. ولسنا هنا في صدد الردّ على ترهات هي مجافية للحقيقة، ولا تغرف إلا من حبر أكاذيب وإشاعات معاوية،

---

(١) القصص: ٥.

وعلى أي حالٍ فإن أحاديث الرسول الأكرم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى لم تفرّق بين الإمامين العظيمين، وهي وإن اختلفت في التعابير تجاه الحسنين، فهو اختلاف الدور والمهمة، فهما إمامان قاما أو قعدا، كما عبر جدهما ﷺ وهما معصومان عن الخطأ فلا يفعل أحدهما إلا ما هو الصالح العام للأمة..

فإن اختلفت ظروفهما فهما عليهما السلام على رأي واحد، وإذا طاول الشك الحسن، فقد طاول الحسين أيضاً، إذ لو كان الإمام الحسين عليه السلام يرفض الصلح، فهل يا تُرى يصل إلى القمة في الأدب مع أخيه عليه السلام؟ فهو عليه السلام لم يكن يكلم أخاه كلاماً عادياً توقيراً له، فكيف إذا كان الكلام اعتراضاً واستنكاراً؟

فهما واحد في جسدين، ونوران في شخصين.. لا يفقه الداخل بينهما والمفرّق بين شخصيتهما، إنه يتقحّم دخول النور الواحد والمعدن الواحد، وليس له نصيب في مغايرة الحقيقة وتزوير التاريخ، فكل منهما أدّى دوره بأمانة، فكُلِّف الأول بالصلح يعاضده أخوه، وكُلّف الثاني بالاستشهاد يهيئ ظرفه أخوه، وقد أحسن وأجاد السيد المرحوم عبد الحسين شرف الدين في مقالة له عنوانها (ثورة الحسين صدى لصلح الحسن) فقال (قده) عن الإمام الحسن عليه السلام «لقد كان الواجب عليه أن يتنازل مع عدم القدرة على تذليل العقبة من إخضاع الأموية المندفعة، لأن تنازله يأتي وفق الخطة التي رسمتها له مبادؤه. وليس عائبو تنازله أشد إحساساً منه بآلام التنازل وهو المجروح، ولكنها التضحية الضخمة فرضت عليه أن يتحمَّل آلام القعود التي كتبتها عليه مُثُله العليا ومبادؤه الحسنة. وهي تضحية لا تقل قدراً ـ إن لم تزد ـ عن تضحية الحسين عليه السلام

وكن الآن ما شئت فستنتهي آخر الأمر إلى نتيجة رائعة، وهي أن صلح الحسن مصدر من أكبر مصادر ثورة الحسين التحريرية، وإلى أن جوهر التضحية واحد عند الإمامين وإن اختلف مظهرهما والحق أن يوم الطف كان صدى ليوم المدائن صلى الله على سيدي شباب أهل الجنة»[١].

ولما انتقل الإمام الحسن عليه السلام إلى الرفيق الأعلى عبر اليد الآثمة لمعاوية بواسطة جعدة بنت الأشعث، وحيث من المفترض أن تُعمّق مشاعر الغضب في قلب الإمام الحسين عليه السلام حزناً على أخيه وحنقاً على قاتله، رُفعت إلى سيد الشهداء عدة رسائل من زعماء العراق وطوائفه يطلبون منه إعلان الثورة على معاوية فامتنع من إجابتهم لما يريدون ولقال لهم عليه السلام: «ما دام معاوية في قيد الحياة فلا أتحرك بكل شيء، وإذا مات نظرت في الأمر»[٢].

وهذا بدوره يؤكد على أن اختلاف الجائرين بين معاوية ويزيد هو الذي حتّم على معاصر الأول الصلح، وهو الذي أوجب على معاصر الثاني الحرب والثورة[٣] فالمناط هو في وجود معاوية

---

(١) عن جريدة الساعة الغراء عدد خاص بسيد الشهداء من السنة الرابعة، عدد ٩٠٨.

(٢) الإرشاد، ص٢٠٦.

(٣) ذكر بعض المؤرخين أن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن موافقاً على الصلح كما ذكر في تاريخ ابن خلدون وأسد الغابة وأنساب الأشراف وطه حسين، وواضح من خلال هذه الفرية على إمامنا الحسين عليه السلام أن المطلوب ضرب مقام الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام من خلال التأكيد على أن الحسن كان محباً للراحة والدعة وأن الحسين كان ثورياً ويرغب في القتال، في الوقت الذي أجمع فيه المسلمون على كون الإمام الحسين عليه السلام، هو من الشهداء الأبرار.

المتلاعب بالدّين والمزوّر للحقائق، والذي شكَّل وجوده حجر عثرة أمام أي تقدّم للدِّين وحركته التغييرية، وهو مصيبة من مصائب الدهر والتاريخ، الذي يترتب على حياته الصلح وعلى مماته الحرب سواء كان الحسن هو المتصدّي أم الحسين عليه السلام، فالمدخلية في شخصي معاوية ويزيد[1] وليست في الإمامين عليهما السلام خصوصاً إذا تعرّفنا على تهتك وفجور يزيد الذي لم يكن مضطراً للتستر بالدين والإسلام كأبيه معاوية الذي احترف التمثيل مع أن أفعاله الشنيعة كانت واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار.

* ما هو رأي الحسين عليه السلام بالصلح؟

مما لا شك فيه أن الإمام الحسين عليه السلام كان على توافق تام مع أخيه الإمام الحسن عليه السلام، وقد تقدم معنا أن الفارق لا يمكن في شخصيتي الحسنين عليهما السلام بل في شخصي وليد وحفيد أبي سفيان وهما معاوية ويزيد.

صحيح أن التاريخ لا يثبت أن الإمام الحسين عليه السلام قد وقّع على الصلح، وهذا طبيعي بحكم أن المتصدّي للقيادة والقائم بالأمر هو أخوه عليه السلام، وهو المعني وحده في التوقيع على وثيقة وبنود الصلح، أما الإمام الحسين عليه السلام فهو يومها الجندي في ظل قيادة أخيه، والمأموم في ظل إمامة السبط الآخر لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يسجل التاريخ خرقاً واحداً صدر عن الإمام الحسين عليه السلام ضد الصلح

---

(١) ذكر البلاذري في أنساب الأشراف وصفاً ليزيد فقال: «كان إنساناً صغير العقل، متهوراً، سطحي التفكير، لا يهم بشيء إلا ركبه»، ج٤ القسم الثاني ـ ١ ـ

واستنكاراً له، بل حدّث المؤرخون أن سيد الشهداء عليه السلام كان المندفع والمتحمس للصلح، لأنه كان يقرأ فيه آثاره الإيجابية، وطالما اجتمع حوله جمع من رافضي الصلح يريدون استدراجه لمناهضة صلح أخيه عليه السلام، لكنه كان دائماً يعلن رفضه لطلباتهم، بل وشجبه لمقترحاتهم، وكان يعلن ولاءه لقيادة أخيه وثقته في حكمته في معالجة الأمور، وحتى بعد استشهاد الإمام الحسن عليه السلام بقي موقف الإمام الحسين عليه السلام على حاله، حيث رُفعت إلى إمامنا الحسين عليه السلام العديد من الرسائل وهي تطلب منه إعلان الثورة على معاوية، لكن الإمام عليه السلام كان دائماً يمتنع عن الاستجابة ويوضح أن الثورة مرتبطة بهلاك معاوية[١]، رغم أنه عليه السلام كان يتمنى مجيء اللحظة التي يقاتل فيها جرثومة الفساد ويستأصلها من الوجود، إلا أنها الظروف التي حكمته وأخاه. هي التي ألزمتهما بالصلح في ظل جبروت معاوية، وقادت سيد الشهداء للاستشهاد حين تطلب منه الواجب ذلك، وذلك بعد موت معاوية.

نقول هذا ويعترينا أسف شديد ولوعة لا تشبهها لوعة، حين نقرأ في التاريخ المزيف والذي يُصوَّر فيه الإمام الحسين عليه السلام بصورة الرجل الذي يكره صلح أخيه، مع أن المعروف لكل من يقرأ التاريخ ويتمعن في سطوره، أن الإمام الحسين عليه السلام كان يجلّ أخاه ويحترمه ولا يسفه له رأياً، فقد تحدّث الإمام محمد الباقر عليه السلام عن ذلك الاحترام والإجلال بقوله: «ما تكلم الحسين بين يدي الحسن إعظاماً

---

(١) تقدّم الحديث تحت عنوان فارق الإمامين أمام الجائرين، وهو «ما دام معاوية في قيد الحياة فلا أتحرك بكل شيء، وإذا مات نظرت في الأمر» كما في الإرشاد، ص٢٠٦.

له»[1] هذا في ظل حياة الإمام الحسن عليه السلام. فقد كتب إليه عليه السلام أهل العراق يطلبون منه الثورة على معاوية لكنه لم يجبهم وكتب إليهم: «أما أخي فأرجو أن يكون الله قد وفّقه وسدّده فيما يأتي، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فألصقوا رحمكم الله بالأرض، واكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنّة ما دام معاوية حيّاً»[2].

ولقد صوّر الواقع الذي واجهه الإمام الحسين عليه السلام العلاّمة المرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين فقال: «لم يكن الإمام الحسين عليه السلام أقل إدراكاً لواقع مجتمع العراق من أخيه الحسن عليه السلام، فقد رأى من هذا المجتمع وتخاذله مثل ما رأى أخوه. فقد آثر أن يعدّ مجتمع العراق للثورة، ويعبّئه لها، بدل أن يحمله على القيام بها الآن. فقد كان رأي الحسين ألاّ يثور في عهد معاوية، وهو يأمر أصحابه بأن يخلدوا إلى السكون والهدوء، وأن يبعدوا عن الشبهات، وهذا يوحي لنا بأن حركة منظمة كانت تعمل ضد الحكم الأموي في ذلك الحين، وأن دعاتها هم هؤلاء الأتباع القليلون المخلصون الذين ضنّ بهم الحسن عن القتل فصالح معاوية، وانّ مهمة هؤلاء كانت بعث روح الثورة في النفوس عن طريق إظهار المظالم التي حفل بها عهد معاوية انتظاراً لليوم الموعود[3].

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب، ج٢ ص١٤٣.

(٢) الأخبار الطوال ٢١٢ ـ كان هذا رأي الإمام الحسين أثناء حياة الإمام الحسن عليه السلام حيث قال: «صدق أبو محمد، فليكن كل رجل حلساً من إحلاس بيته (لزمه) ما دام هذا الإنسان حياً». المصدر نفسه في الأخبار الطوال.

(٣) ثورة الإمام الحسين عليه السلام ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية، ص١٤٩ ـ ١٥٠ ـ ١٥١.

وخلاصة الأمر أن رأي الإمام الحسين عليه السلام في ظل حياة أخيه أو بعد استشهاده هو رأي الإمام الحسن عليه السلام نفسه، لا ينقص عنه أو يزيد مثقال ذرة، وليس هو خيار الإمامين الحسنين عليهما السلام فحسب، بل خيار الأئمة المعصومين عليهم السلام، وهو قرار الدين والإسلام، ولا يتحمّل الأمر تكبّد عناء التكلّف حتى تتعدّد وجهات النظر في رأي سيد الشهداء عليه السلام حتى تكتب الأقلام الرخيصة والمسمومة ما يحلو لها ضمن خلفية غير نظيفة وقلوب سقيمة تعبّر عن مكنونات أصحابها دون أن يكون لها صلة بمراقبة الأحداث المفصلية وترقّب نتائجها!

* خلفية الصلح لدى معاوية

أمور كثيرة كانت تضغط على معاوية ليطرح الصلح على الإمام الحسن عليه السلام وأسباب كثيرة هي التي حتّمت عليه أن يطلب الصلح. لقد كان معاوية يخشى كثيراً من كشف الحقيقة وهو صاحب تاريخ غير مشرّف في التدليس والتزييف لئلا تكشف عوراته وتظهر عيوبه، وهو الذي تذكر تلك الكلمات التي قالها له أحد رؤساء جنوده في صفين وهو النعمان بن جبلة التنوخي: «والله لقد نصحتك على نفسي، وآثرت ملكك على ديني، وتركتُ لهواك الرشد وأنا أعرفه، وجدتُ عن الحق وأنا أبصره، وما وفقت لرشد وأنا أقاتل عن ملك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله.. ولو أعطيناه ما أعطيناك، لكان أرأف بالرعية وأجزل في العطية، ولكن قد بذلنا لك الأمر، ولا بدّ من إتمامه كان غيّاً أو رُشداً، وحاشا أن يكون رشداً. وسنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها، إذا حرمنا أثمار الجنة وأنهارها»[1].

---

(١) المسعودي، هامش ابن الأثير، ج٥ ص٢١٦.

كل هذا كان يخطر في بال معاوية، لقد كان واقعاً كخفاشٍ يخشى من ضوء النهار وجلاء الحقيقة. رغم شخصيته الطاغوتية والمستخفة بالبشر. ففي المثل «كاد المريب أن يقول خذوني».

لذا استعجل الصلح لئلا يتراجع العراقيون عن تأييدهم له ويعودون إلى رشدهم، لأن الرجل خبير بنفسياتهم وأهوائهم، فهو لا يرغب أن يخسر ما ربحه، فاستغل فرصة خيانتهم قبل أن ينقلبوا عليه وهم الذين عُرفوا بسرعة التقلّب، فيطلب من الإمام الحسن عليه السلام سراً أن يستجيب للصلح، وإن كان هناك من يذهب إلى أن الإمام هو الذي بادر أولاً، وما يدل على الرأي الأول هو خطاب الإمام الذي ألقاه في المدائن والذي قال فيه: «ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عزّ وجلّ بظبا السيوف، وإن اردتم الحياة قبلنا، وأخذنا لكم الرضا» فناداه الناس من كل جانب «البُقية البقية، وأمضِ الصلح»[1] وعلى أي حال فحتى لو صحّ الرأي الثاني مع أنه لا محلّ له ومستبعد جداً، وهو ما يناقض كل الوقائع التاريخية فهذا لا يضرّ بسبب الظروف الصعبة والفتن التي عصفت بالبلاد والعباد مع أن الصحيح أن معاوية هو من طلب الصلح. أما لماذا رغب ابن أبي سفيان بالصلح؟ فهو أن الرجل رغم إدراكه أن الحرب باتت لصالحه فهو يعلم أن حكمه بالحديد والنار لا يعطيه صبغة الشرعية، أما الصلح فبإمكانه أن يغلّفه بثوب الشرعية وإنه ـ معاوية[2] ـ يمثّل

---

(١) ابن الأثير الكامل، ج٢ ص٢٠٤؛ ورواه الطبري وابن خلدون.

(٢) كان يحرص معاوية على أن يبرّئ نفسه عن ارتكاب الجرائم، ويصف نفسه بأنه=

الإسلام، فهو الذي استطاع أن يغرس في قلوب جيشه على أنه الحجة من بعد الخلفاء وأن النبي ليس له وارث شرعي غير بني أمية فهو يجسدهم بأعماله، هكذا أظهر معاوية نفسه للمغفلين، وقد كانوا كُثر وللأسف الشديد، مع أنه كان يعلم علماً يقينياً أن الإمام الحسن عليه السلام هو أحقّ بالأمر. وهو لا يريد أن يكشف ذلك للناس وأنه مغتصب لحق أهل البيت عليهم السلام. وقد قال ذات يوم لابنه يزيد: «يا بنيّ إن الحقّ حقّهم»[١]، وكان فيما كتبه إلى زياد بن أبيه: «وأما تسلّطه عليك بالأمر فحقّ للحسن أن يتسلّط»[٢]. إلاّ أنه مع ذلك كان يخاف من حرب مع الإمام عليه السلام، الأمر الذي يجرّده من مزاعمه وادّعاءاته الفارغة، ولم يكن الرجل يخاف من المعركة مخافة من الله، أو من الهزيمة، وهو يعلم أن حسم المعركة عسكرياً سيكون لصالحه، إلاّ أنه كان يتهرّب منها لئلا ينزع ثوب الشرعية عنه، ذلك الثوب الذي دثّر فيه نفسه ظلماً وقهراً وتزييفاً وتزويراً، وهو غير قادر على الإطلاق أن يكشف لعبة تغيير الحقائق وتسنّمه المواقع القيادية باسم الدين، وهل يستطيع معاوية أن يدّعي الحقّ وهو يحارب الإمام الحسن عليه السلام؟ وهل ستكون الآثار المعنوية لصالحه إن كانت النتائج العسكرية كذلك؟ فهو أجبن من أن يقدم على هذه الخطوة

=محبّ للسلام والصلح، فكان يقول للناس: «إنّي دعوت الحسن للصلح، ولكن الحسن أبى إلاّ الحرب، وكنت أريد له الحياة، ولكنه أراد لي القتل، وأردت حقن الدماء، ولكنه أراد هلاك الناس بيني وبينه». صلح الحسن عليه السلام للشيخ راضي آل ياسين، ص٢٥٦.

(١) شرح ابن أبي الحديد، ج٤ ص٥ و١٣، وص٧٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ج٤ ص٥ و١٣، ص٧٣.

الجبّارة. لأنه لن يستطيع بعدها التشدّق والتحدّث باسم الإسلام والقرآن، وهو قبلها لم يكن يستطيع ذلك لولا الجهل المطبق بأحكام الشريعة وبممثليها الشرعيين عند السواد الأعظم من الناس[1]، لقد تصوّر معاوية بأن تنازل الإمام الحسن عليه السلام عن الحكم سيشكّل بحدّ ذاته التنازل عن الخلافة، وساعتئذٍ سيتمكّن من إضفاء هالة شرعيّته العرفية كما توهّم، إن معاوية يعرف جيداً أن الإمام الحسن هو صاحب الحق دونه، فلا بدّ من إسكات صوته بأسلوب تفوح منه رائحة النفاق، وهو العارف الذي لا تنقصه معرفة في ذلك إن للإمام موقعيّته الروحية والمقام الرفيع عند الله والناس، ولا بد من إبقاء أهل الشام بمنأى عن تلك المعرفة لئلاّ يقصدون المنّ والسلوى ويتركون أعشاب الأرض الضارة والسّامة. وبعد هذا ألا يستغرب المرء كيف أوصل معاوية الناس إلى تلك المستويات الوضيعة رغم استخفافه واستهتاره بهم والذي كان يتصرّف ما يحلو له دون وازع من ضمير أو رادع من أخلاق، وهو القائل لعراقي حكم عليه معاوية أن الناقة ليست له وإنما هي للشامي حين أتى الشامي بخمسين شاهداً يحكمون أنها ناقته هو دون العراقي، فقال العراقي لمعاوية: «أصلحك الله إنه جمل وليس بناقة، فقال له معاوية: حكم قد مضى.. ثم أرسل إلى الأمير رسالة شفهية مع

---

(١) لقد استطاع من قبل أن يواجه والد الحسن عليه السلام أمير المؤمنين عليه السلام، إلاّ أن المعطيات وهي مقتل الإمام علي عليه السلام وتفاعل الناس مع حدث الاستشهاد، هو الذي جعل الجماهير تزحف نحو الحسن عليه السلام لتنصبه بعد تنصيب الله، إماماً وخليفة، وهو خليفة رسمي وشرعي بما تعني الشرعية المعروفة. كل هذه المعطيات هي عناصر تضاف إلى العناصر المعروفة لدى كلّ من ألقى السمع وهو شهيد.

العراقي وهي «أبلغ علياً اني أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرّق بين الناقة والجمل»[١] هؤلاء هم جنود معاوية، فهم لا يميزون بين الحق والباطل، ولا بين أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة وبين بيت الطلقاء وآل أبي سفيان.. وهم الذين استخف بهم معاوية مع اعتقادهم أنه للمؤمنين أمير، فقد حرص ابن أبي سفيان على إبقاء هذا الاعتقاد في نفوس الناس، وهو غير مضطر في ظل السذاجة السائدة في عصره، للمزيد من الحروب والمعارك، طالما أنّ سلطانه سيكون بخير وسينعم الرجل في ظل صلح يصبغ أعماله بطابع الشرعية، كل هذا فكّر فيه معاوية جيداً وعمل له ليل نهار، ولا أدري كيف كانت تنطلي حيله على المسحوبين على الإسلام؟ فهؤلاء واقعاً هم الذين يغيّرون المعطيات ويحوّلون النصر إلى هزيمة، والحرب إلى صلح، طالما أنهم بخدمة مشاريع معاوية، وهم يشكّلون الأرضية الخصبة التي ينبت فيها أمثال ابن آكلة الأكباد! فهل يشكّ أحد بعد ذلك أن خليفة معاوية الداعية إلى الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام هي خلفية سليمة وطاهرة؟

ولا أدري كم يتكرّر مثل أولئك النماذج اللابشرية[٢] وأشباه الرجال ولا رجال؟ لا أدري كم تتكرر صور أولئك في الحاضر والماضي؟ لا أراهم الله في ديار الأحبة لأنهم بحق كالخشب المسندة فهم لا يرون إلا كما يرى معاوية، ولا يفكّرون إلا بفكر معاوية، ولقد أجاد الشاعر حين نظم قافيته عن امرأة اسمها حذام فقال:

---

(١) مروج الذهب، ٢٠/ ٣٣٢.

(٢) ذاق المؤمنون في عهده أحلك الظروف وأصعب الأيام، وخصوصاً بعد عام الصلح=

إذا قــالــت حــذام فــصــدّقــوهــا

فــإن الــقــول مــا قــالــت حــذام[1]

وهل يمكن لمعاوية أن يذهب إلى الصلح ويطرحه إلاّ بعد أن أيقن بحساباته أنه لمصلحته؟ مع أنّ حسابات البيدر كذّبت حسابات الحقل كما يُقال. لقد ظنّ معاوية أنّ الصلح سيهيّئ المناخ لبيعة ولده يزيد من بعده، وليس مناخ الثورة عليه، ولأنه قرأ الأحداث المستقبلية بطريقة خاطئة لم يضع شروطاً على الإمام، ظناً منه أنه المنتصر فلا داعي للشروط والخوض في التفاصيل، فيما ترك للإمام أن يضع شروطه وهو قد قرّر سلفاً بأنه لن يلتزم بأيٍ منها، وساعتئذٍ سيتحدّث بمنطق الأقوى والمنتصر.

وقد خفيَت على معاوية اللباقة الدبلوماسية والحنكة السياسية لإمامنا الحسن عليه السلام، الذي أدرك جيداً أن قبول معاوية بكل شروطه إنما استهدف به شرطاً واحداً لا غير، وهو الملك، ولا شيء غيره، وكأننا به يقول: «يا حبّذا الإمارة ولو على الحجارة»[2]. فالملك هو

=الذي سمي زوراً وبهتاناً بعام الجماعة، وقد وصف ابن أبي الحديد ذلك العام بقوله: «ولم يبق أحد من المؤمنين إلاّ وهو خائف على دمه أو مشرد على الأرض، يطلب الأمان فلا يجده».

(١) كانت حذام بنت الريان مع أبيها، وأبوها ملك، غزاهم رجل حميري مع جماعة وكان بينهم قتال، ولما رجع الحميري إلى عسكره وهرب الريان وقومه، ولما بزغ النور علم الحميري بهروبهم، فصاروا يثيرون طيور القطا فلاحظت حذام الطيور وحذّرت قومها فقال الشاعر شعراً يؤيد تنبيه حذام وأن الحق معها في ما قالت وحذّرت. والشاعر هو جيم بن مصعب بن وائل.

(٢) مثل عربي يُضرب لمن يقصد الملك ويدفع من أجله الأثمان الباهظة.

غاية آماله ومطلوبه الذي تكمن فيه رغباته وملذاته، وهو حلمه الجميل ولو كان على حساب الدين.

* * *

* قالوا في الصلح

* «تهيّأ للحسن بهذا الصلح أن يغرس في طريق معاوية كميناً من نفسه يثور عليه من حيث لا يشعر فيرديه، وتسنّى له به أن يلغم نصر الأموية ببارود الأموية نفسها، فيجعل نصرها جفاءً، لم يطل الوقت حتى انفجرت أولى القنابل المغروسة في شروط الصلح، انفجرت من نفس معاوية يوم نشوته بنصره».

(سماحة السيد عبد الحسين شرف الدين في مقدمة كتاب صلح الحسن عليه السلام، للشيخ راضي آل ياسين)

* «لقد كان تنازل الإمام الحسن عليه السلام عن السلطة في ذلك الجو المحموم منتهى الحكمة والحنكة والسياسة الرشيدة كما كان أبوه أمير المؤمنين عليه السلام من قبل موفقاً في قبول التحكيم الذي فرض عليه بحد السيوف وأسنَّة الرماح».

(سماحة السيد هاشم معروف الحسني، في كتابه سيرة الأئمة الاثني عشر، ص٥٨)

* «فإذا بالحسن بن علي عليه السلام وعلى قصر عهده بالخلافة، من أطول الخلفاء باعاً في الإدارة والسياسة، والرجل الذي بلغ من دقّته في تصريف الأمور، وسمّوه في علاج المشكلات، أنه استغفل معاوية بن أبي سفيان أعنف ما يكون في موقفه منه حذراً وانتباهاً واستعداداً للحبائل... وإذا بالصلح الذي حاكه على معاوية أداته الجبارة للقضاء على خصومه في التاريخ، دون أن يكون ثمة أية

مساومة على بيعته أو على خلافة أو على مال. وإذا كل خطوات الإمام، وكل إيجاب أو سلب في سياسته، مخفقاً أو منتصراً ـ آية من آيات عظمته التي جهلها الناس وظلمها المؤرخون».

(سماحة الشيخ راضي آل ياسين في كتابه صلح الحسن عليه السلام، ص١٨)

* «ولقد أنشأت صلحاً مع معاوية، لا ليسلم معاوية متنعماً بأرض الغوطة، أو لتسلم أنت مكفكفاً في أرض يثرب، بل لتسلم يثرب في الشام، والشام في يثرب. لقد قالوا عنك أيها الإمام: لو لم تكن مهزوماً لما اتّخذت القرار، ولقد اتّخذته بالتمام لأنك كنت مخذولاً.. لقد خُذل جدّك العظيم قبلك فلم يطع في أحلامه وتمنياته.. لقد خُذل أبوك الفاروق في أصالة الوجدان، فأفرزته القبلية إلى الهزيمة.. وللهزيمة هنا مدلول آخر، إنّها هي التي تطال الأمة كلّها بأحلامها، وأمانيها، ووحدتها وكل تحقيقاتها البكر».

(الأديب سليمان كتاني، في كتاب (الإمام الحسن عليه السلام، الكوثر المهدور)، ص١٥٩)

* «وليس بغريب من قوم عابوا جدّك الحسن على صلح معاوية وهو كان بأمر جدّه وقد صالح جدّه الكفار وكان عذره في تلك أوضح الأعذار، فلما قام أخوه الحسين بنصرهم وإجابة سؤالهم وترك المصالحة ليزيد المارق كانوا بين قاتل وخاذل.. فهل يستبعد من هؤلاء ضلال عن الصراط المستقيم».

(السيد ابن طاووس، مخاطباً ولده، كشف المحجة لثمرة المحجة، ص٤٦)

* «نقع في خطأ كبير حين نساق إلى الاعتقاد بأن الإمام الحسن

قد اعتبر الصلح خاتمة مريحة لمتاعبه، فما صالح الإمام الحسن عليه السلام ليستريح. وإنما ليكافح من جديد ولكن على صعيد آخر، فإذا كان الناس قد كرهوا الحرب لطول معاناتهم لها.. فإنّ عليهم أن يكتشفوا بأنفسهم مدى الخطأ الذي وقعوا فيه حين ضعفوا عن القيام بتبعات القتال وسمحوا للأماني بأن تخدعهم ولزعمائهم بأن يضللوهم. ولا يمكن أن يكتشفوا ذلك إلاّ إذا عانوا هذا الحكم بأنفسهم».

(سماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين، كتاب ثورة الحسين عليه السلام، ص١٤٣)

* «لو لم يقبل الإمام الحسن عليه السلام بالصلح لأدانه التاريخ، لكنه عليه السلام عندما قبل فإدانة التاريخ توجّهت إلى معاوية.. صلح الإمام الحسن عليه السلام هيأ أرضية ثورة الإمام الحسين، فكان من الضروري أن يجلس الإمام الحسن عليه السلام جانباً إلى مدة حتى تتّضح ماهية الأمويين المخفية عن أعين الناس حتى يتوفر الأساس لنهضة تقام ضدّهم فتكون مبررة من الجهة التاريخة».

(العلامة الشهيد مرتضى مطهري، كتاب الأئمة الأطهار، ص٨٣، دار الهادي)

* «لو أنّ الحسن عليه السلام خاض المعركة اليائسة لكانت معركته تشبه إلى درجة كبيرة معركة ابن الزبير اليائسة التي لم تكن لتقدّم أي عطاء للإسلام ولرسالته الخالدة، ومن هنا جاءت قرارات الإمام عليه السلام الصائبة بأن يُهادن مؤقتاً ويقبل بالصلح، ويفسح المجال لمعاوية يستولي على العالم الإسلامي، لكي يكشف واقعه وواقع أطروحته الجاهلية، ولكي يعرّف هؤلاء المسلمين البسطاء، والذين

لم يكونوا بعرفون إلاّ ما يرون بأعينهم وحواسهم، من هو معاوية وما هو واقعه ودوافع حكمه؟ ومن كان علي بن أبي طالب عليه السلام؟ وماذا كانت أطروحته؟».

(عادل الأديب، كتاب الأئمة الاثنا عشر، دراسة تحليلية، ص٩٩، مؤسسة الأعلمي - بيروت)



الفصل السادس

خيار الصلح

* الخيار الأوحد.
* مواجهة المقدور.
* جنود الإمام.. داء أم دواء؟
* حين تكون الغصة بالماء!
* الانقلاب على الأعقاب..
* لماذا الصلح؟
* الصلح يفضح سريرة معاوية..
* بنود الصلح...
* شروطه عليه السلام الرسالة المفخخة.
* لماذا ينتصر الغدر أحياناً؟
* صاعق التفجير للثورات..
* جندي كربلاء المجهول.



خيار الصلح

* الخيار الأوحد

عرف الإمام أهداف معاوية وهو العارف بخلفيته والخبير بأطباعه والعالم بخبث سريرته، وأدرك أنه لو قُدّر له تحقيق الانتصار العسكري، لما أوقف إجرامه وإساءاته، ولن يتردد في القيام بأي عمل يراه مناسباً لأغراضه وأهدافه، أليس هو من اتّهم علياً أمير المؤمنين (عليه السلام) بدم عثمان؟ وهو من أسّس أساس لعن أهل البيت (عليهم السلام)، واستخدم الكتّاب والأقلام ووعّاظه ليكتبوا ويختلقوا عن رسول الله ﷺ ما لم ينبس به ببنت شفة؟ ألم يسبّب ابن هند بمقتل سيد الشهداء (عليه السلام) من خلال كُتّابه الذين ادّعوا أنّه ﷺ قال: «سيكون هناك هنّات وهنّات، فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمة وهي جمع فاضربوه بالسّيف كائناً من كان»[1]؟

ومَن جعل لعن وصي رسول الله ﷺ سنّة، بل فريضة غير معاوية؟، الذي لم يخطر في باله ولا للحظة أن يتّقي الله في

---

(١) ثورة الإمام الحسين، ظروفها وأسبابها، العلامة المرحوم سماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص١١٣، وفي البخاري وغيره.

علي عليه السلام فيوقف لعنه عليه السلام، بل تجاوز ذلك لحدّ وصف فيه المؤرخون عمق المشهد فقالوا: «وارتقى بهم الأمر في طاعته ـ معاوية ـ إلى أن جعلوا لعن عليّ سُنَّة ينشأ عليها الصغير ويهلك الكبير[1]؟ وهو الذي منع من ذكر أي رواية تتحدّث عن مناقب أهل البيت وفضائلهم عليهم السلام، وعمل على استئصال كل ما يمتّ إلى آل الرسول صلى الله عليه وآله بصلة.

أمام تاريخ معاوية الزاخر بالإجرام والحافل بالشّبهات والفتن، وأمام افتتان الناس به، واستسلامهم إلى قيادته وثقتهم العمياء بمشاريعه، اللهم إلاّ من رحم ربي، كان لا بدّ للإمام عليه السلام أن يتدارك ما يمكن تداركه لئلا يكون السقوط المريع لكل التاريخ النبوي العريق، ولئلا تندثر كل القيم والمبادئ التي ضحّى من أجلها رسول الإنسانية محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله فبعد أن اطمأن الإمام أن قيم الإنسانية ستُصان، وعرف أن حفظها يكمن في توقيعه عقد الصلح الذين لن يُعجب به المستعجلون، بادر إليه لأنه أيقن أنّ دين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لن يستقيم إلاّ بصلحه عليه السلام، وتاريخ الأنبياء جميعاً لن يُصان إلاّ به.

* مواجهة المقدور

كما واجه أمير المؤمنين عليه السلام بدعة رفع المصاحف التي انطلت على العراقيين وجعلتهم حيارى، حيث استطاعت هذه الحيلة تحويل النصر الذي كان على قاب قوسين أو أدنى إلى هزيمةٍ لجيش الإمام

---

(١) مروج الذهب، ج٢ ص٧٢.

علي ﷺ، حيث ذكر المؤرخون تفاصيل واقعة صفين والتي أوقعت العديد من الرجال الذين كان يفترض بهم عدم الانخداع لهذه المهزلة، والتي تبقى وصمة عار في جبين الذين انسحبوا من المعركة وانخدعوا بحيل معاوية يمليها عليه عمرو بن العاص، وقد رضي أمير المؤمنين بوقف الحرب مكرهاً بعد أن رأى جيشه وقد مزقته حيلة ابن العاص وقد عبّر عن هذا الواقع المؤلم بقوله ﷺ: «لقد كنت أمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت أمس ناهياً فأصبحت اليوم منهياً[1]»[2]، وكما جلس الأمير في بيته أو أُجلس وهو الفارس الضرغام، وبهذا كان حبيس جهل قومه قبل أن يكون حبيس بيته كما يعبر أحد المفكرين الإسلاميين.

كذلك قاد قدر الإمام الحسن ﷺ الصعب إلى مواجهة أمر هو من الامتحانات القاسية، وهو وبمثابة جزء من معاناة أبيه حين حبسه حقه في منزله، في وقت لا تستوعب فيه أمة النبي أن يحملها الوصي على المحجة البيضاء، وقد تقدّم معنا مرارة الأحداث التي واجهها الإمام الحسن ﷺ والتي شكّلت سدّاً منيعاً تحتّم عليه عدم المواجهة، وتجعله إما شهيداً مع ثلة قليلة من المؤمنين وإما أسيراً بيد معاوية الذي سيمنّ عليه بعد أسره بالحياة والحرية ليكون أسير إحسانه، وتنقلب المعادلة فيهب ابن الطلقاء[3] الحرية لابن النجباء

---

(١) لم تكن حسرة الإمام ﷺ في مسألة أن يكون آمراً غير مأمور، وناهياً غير منهي، بل حسرته ﷺ كانت تكمن في عدم طاعة الناس للحق وذوباهم في الشبهات والحيل بحيث كانت تنطلي عليهم قضية رفع المصاحب والتحكيم، والأمثلة كثيرة.

(٢) نهج البلاغة، محمد عبده، ج٢ ص٢١٢.

(٣) الطلقاء: جمع طليق، وهو الأسير الذي يطلق سراحه، والمراد بهذا المصطلح أن=

ليكون الإمام الحسن عليه السلام طول حياته أسير إحسان معاوية، لكن ماذا سيصنع إمامنا عليه السلام؟

والجواب في جوابه على سؤال يزيد بن وهب الجهني الذي دخل عليه بعد أن طُعن فقال: يا بن رسول الله، إن الناس متحيرون، فأجاب الإمام بكلماتٍ والأسى يعتصر قلبه «... والله لئن آخذ من معاوية عهداً أحقن به دمي وآمن به أهلي وشيعتي خير لي من أن يقتلوني فيضيع أهل بيتي، لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً، والله لئن أسالمه وأنا عزيز أحب من أن يقتلني وأنا أسير، أو يمنّ عليّ فتكون سبة علي بني هاشم إلى آخر الدهر، ولمعاوية لا يزال يمن بها وعقبه على الحيّ منا والميت»[1].

فاختار الإمام المسالمة والاقتصار على أقل الخسائر إنقاذاً لسلامة الدين وعزّة الإمامة وحياة الناس، ولو اختار الإمام أسلوب قلب الطاولة رأساً على عقب لعجلّ الفتنة التي لا تزال الأمة ـ غير الواعية ـ تحن إليها، ولفتح الباب على مصراعيه أمام الثورات الداخلية والفتن التي تجعل الحليم حيراناً، وكأننا به عليه السلام كمن يرى السيل الجارف يأخذ كل من يقع في طريقه وما يعترض دربه، فيبتعد عنه وينأى بنفسه جانباً مصطحباً معه ما يمكن إنقاذه، لأن الوقوف بوجه السيل العرم هو من المكابرة التي تجرف ولا تبقي ولا تذر،

=معاوية هو ابن أبي سفيان، وهو من جملة الذين خلى عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة ولم يأخذهم أسرى بل أطلقهم في بادرة أخلاقية، وسابقة لم يدوّن التاريخ الإنساني مثيلاً لها على الإطلاق.

(١) الاحتجاج للطبرسي، مؤسسة الأعلمي، ج٢ ص٢٩٠.

دون أن يكون للشجاعة فيها إلاّ معنى شجاعة الحكمة والتحلّي بما من شأنه أن يحفظ النفس لتكون في خدمة المشروع الإلهي الكبير، وعلى أي حال فقد عانى الإمام عليه السلام معاناة لا توصف بتعابير وكلمات، ولا يمكن للسطور مهما كثرت أن تصل إلى سبر أغوارها، وكما قال أحد كبار الصوفيين محمد بن عبد الجبال النفري: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة» وبالواقع لا يمكن وصف المجريات بعباراتنا المحدودة. وكما قيل: «كما لا يمكن وضع كل ماء البحر في إناء فلا يمكن للحروف أن تستوعب كل الحقيقة»[١].

* جنود الإمام.. داء أم دواء؟

أمام كل المحن التي صُبّت على الإمام الحسن عليه السلام والتي لو صُبّت على الأيام لصارت ليالي من شدّة ظلمتها، يتساءل الباحث عن العراقيين الذين واكبوا مسيرة التشيع وعاشوا في ربوعه، ولا تزال كلمات أمير المؤمنين تردّدها اصداء المآذن ويحملها الأثر مع كل آذان يشهد بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فأين أولئك الذين اعتادوا على سماع صوت علي يصدح في المساجد مع ترنيمة كل فجر؟ واعتادوا سماع هدير جهاده وسليل سيفه مع كل قتال في سبيل الله، أين اختفى هؤلاء حين عانى الحسن عليه السلام الغربة؟ ولماذا لم يرَ منهم إلا غدرهم لا إخلاصهم، وخيانتهم لا قتالهم؟

---

(١) قول معروف في الأدب الفارسي.

إن لوعة اللوعات ومصيبة المصائب أن يرى القائد جنوده وهم يلتحقون بمعسكر الأعداء، إلى الجانب الآخر بحيث يشكّل قوة تضاف إلى قوة الأعداء، بينما يتضاءل عدد الجيش الرسالي، وهل بيد جذاء مقطوعة سيصول عليه السلام؟

إنّ مظلوميّة كبرى تُضاف إلى سجل مظلومية إمامنا عليه السلام حين يتحول الدواء بين يديه إلى داء عضال، والجنود في معسكره إلى جنود في معسكر الأعداء، وهنا ماذا يُمكن أن يفعل عليه السلام؟ فهل سيُلقي السلاح (الجيش) وقد استسلم السلاح البشري وألقى ما في يده قبل أن يُلقيه هو عليه السلام؟ لقد كان عليه السلام يسمع من جنوده الخطابات النارية والرنّانة، لكن حين جدّ الجد صار شعار الأكثرية هو هاجس الهروب وقد صدق فيهم المثل القائل: «أسمع جعجعة ولا أرى طحناً».

لقد كان جنود الإمام واقعاً هم الداء الحقيقي ومكمن الألم والوجع والمرض الحقيقي الذي تصغر عنده كل الأمراض، وإلى هذا المعنى أشار المرحوم الشيخ رضي آل ياسين حين قال: «فانظر إلى أيّ حد كان قد بلغ التفسّخ الخلقي في الجيل الذي قُدّر للحسن أن يتخذ منه اجناده إلى جهاد عدوّه، قد يكون الفرد بذاته من ذوي الحسب، ولكنه إذا انسلخ بضعفه المتأصل في نفسه مع العاصفة الطارئة، واحتضنته الجماهير المتحمسة من حوله، كان جديراً بأن تغلب عليه روح الجماعة فلا يشعر إلاّ بشعورها، ولا يفكر إلاّ بفكرها، ويخالف مشاعره الفطرية مخالفة لا تنفك في أكثر الأحيان عن الندم الجارح عند سكون العاصفة وتبدّل الأحوال.. وهذا مثل

واحد ـ حفظه التاريخ ـ عن شيعتهم، فما ظنّك بخارجيهم وأمويهم وشكّاكهم؟»[1].

وعلى ضوء ذلك، فإن الله لن يعذر أحداً من هؤلاء الجنود، هذا فضلاً عن جماهير الإمام والأمة التي عاصرته، وإنّ أشدّ المعاناة التي تجرّعها عليه السلام تكمن في هؤلاء الجنود، وفي روحية التواكل لا الاتّكال على الله، في تلك الروح الانهزامية بدل الروح القتالية المتمردة، ومعلوم مدى تلك الروحية والعقلية من آثار سيّئة على مستوى المجتمع الإسلامي، فالفرد حينما يتهرّب من القيام بمسؤولياته حين تقتضي المصلحة قياماً ونهوضاً وثورة، يشكّل عائقاً كبيراً على مستوى تقدّم الأمة. وعليه يُقاس رقي أيّ أمة وتقدّمها وتخلّفها وتأخّرها. فالفرد هذا حتى لو كان من الأشراف ومن ذوي الفضائل والنوايا الحسنة، إذا لم يكن يملك الاستعداد الكامل لمواجهة الانحرافات والشبهات، فإنه سيكون عرضة للأعاصير العاتية، وسيتحوّل إلى شاهد زور في عالم التزييف، فبدل أن يستعدّ للمواجهة يستسلم وهو يطلق شعارات فضفاضة كأن يقول: «لا نستطيع مواجهة السيل العرم» أو «ألف كلمة جبان ولا كلمة رحمه الله»، وإذا كان كل فرد أو جندي من أفراد وجنود الأمة يحمل أفكاراً من هذا القبيل وخوفاً ورعباً من سطوة الجلاد وجلاوزة الجور والحكام، هنا ينبغي أن يُقام على المجتمع الإسلامي مأتماً وعويلاً، ذلك أن قيمة أي مجتمع تكمن بأفراده المتعددين ونوعيتهم فرداً فرداً، في الهمة العالية التي تطاول قمم الجبال الشامخة، فمن

---

(١) صلح الحسن، الشيخ راضي آل ياسين، ص٢٣٥.

يُذعن للرياح العاتية هو كالخشبة تتقاذفها الأمواج المضطربة. ولا يمكن الرهان عليه، ومن يُنظِّر للهزيمة والضعف مقابل قوة الأعداء هو كالريشة في مهب الريح. ولا أدري هنا كيف يمكن الحديث عن بأس الإنسان الرسالي وهمّته، وهو لا يملك المواقف الشجاعة؟ ومن هذا المنطق لن يجد الفرد من عذر إن استسلم لأنشودة حكام الظلم، وليس مهماً بعد ذلك الندم، فقد يقدم المرء على إبادة مجتمع كامل، وبعد الإبادة يندم على فعلته، حيث لا ينفع البكاء والنحيب والتمرّغ على قبور الضحايا، فالمهم أن لا يترك الباطل يستشري وينتشر، وأن لا يُترك الجائر لجوره وطغيانه لئلاّ يكبر ظلمه وعدوانه وبعد ذلك لن تقدر المبادرات مهما كبرت أن تنسف أساس الظلم بعد تجذّره وتعمّقه.

* حين تكون الغصّة بالماء!

حين يعاني الإنسان من منغصات العيش والحياة فإنه يلجأ إلى إخوان له يخفّفون عنه المصائب ويُسلّون قلبه وفؤاده، لكن حين يعاني المرء حتى من أقرب إخوانه وأخلص أعوانه فإن في الأمر مصيبة كبرى، ما أعظمها من مصيبة وأعظم رزيتها على الإسلام والمسلمين، فإذا غصَّ أحدنا بالطعام يبادر إلى شرب الماء ليتخلّص من غصته، أما إذا غصّ بالماء فمن يخلصه يا تُرى؟ وكما قال الشاعر نصر بن أحمد بن نصري البصري:

إلى الماء يسعى من يغص بلقمة
إلى أين يسعى من يغص بماء؟

وكما في المثل العربي (يا ماء لو بغيرك غصصت).

وحتى ننعش الذاكرة لئلا تخوننا في معرفة الأحداث، ونحن في الأثناء نندّد ونأخذ على الخونة مدى الغدر الذي توصّلوا إليه، وفداحة الارتكاب الذي يحتاج إلى قلبٍ ملوّث نتن. فلنسلط الضوء على بعض المنغصات التي دوّنها التاريخ والتي أدخلت إلى قلب مولانا الغصص، وقد تجرّعها ولم تخرج مع كبده المقطّع، وهي وبدون أدنى شك كثيرة كثيرة، ولا تستطيع السطور التعبير عن حقيقة الشعور، ولا تستطيع سرد الوقائع كما هي والتي لوت ذراع حفيد المصطفى ﷺ فإلى بعضٍ من تلك الصور.. وإلى بضعٍ من تلك الأحداث التي أسهمت في مفصلية تاريخية، وغيّرت في مجرى الأحداث وكانت لغة معسكر الإمام عليه السلام هي التالية: الذي لم يكن مع الإمام هو مع معاوية، فإذ باللغة تنقلب رأساً على عقب. وكانت مفردات جنود الإمام ولغتهم ومنطقهم الجبن والخيانة، المكر والطمع، الخوف والنفاق، الكيد واللؤم، وصارت المعادلة: انجوا بأنفسكم. فها هي دنانير معاوية لها وقعها في النفوس وتطرب لها الآذان.

وليعظّم الله أجر مولانا الحسن عليه السلام.. لقد أدّى والله الأمانة وأدّى جنوده الخيانة، وتُرِكَ للطعنات المعنوية والمادية، واستُفرِدِ بين اللئام الذين وصلوا إلى وقت حاولوا فيه أن يعلّموه أحكام الدين والجهاد. فيا سبحان الله، ويا لهم من معلِّمين ومرشدين، يعلّمون إمامهم وقائدهم ودليلهم! يقول تبارك وتعالى في محكم كتابه: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[١]، وصدق فيهم المثل القائل: «ليس أحد أشد عمى من أولئك الذين لا يريدون أن يبصروا».

---

(١) الحجرات: ١٦.

* الانقلاب على الأعقاب

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾(١).

لسنا في صدد شرح وتحليل أسباب نزول الآية الكريمة هذه، مع أنها تحمل دلالات جديرة بالبحث والتدقيق، فهي قول رب العالمين، والله لا يقول إلا الواقع والحق، فيا ليتنا نتوغل في عمق دلالتها فعسانا نكتشف الكثير من أسرارها ونحلّ العديد من رموزها! فهي تلفت أنظار المسلمين إلى أن بعضهم سينقلب على عقبيه، ونحن نعلم إلى أي مدى يمكن أن تصله الأمة في ظل هكذا أناس يعيشون الردّة عن الإسلام باسم الإسلام، وهم الجدار الكبير الذي يمنع من انتشار عدالة الإسلام في العالم «إن التخلّف المعنوي للبشر ليس القدر، إنه إرادة البشر أنفسهم، فإن العالم الأخلاقي لدى الفرد والمجتمع ليس عالماً معطى وجاهزاً يأخذه الناس كما يستعملون الوصفات الطبية أو المعادلات الرياضية، وإنما يتمّ بناؤه بالمعاناة اليومية للناس مع شهواتهم ورغباتهم الشريرة» كما يقول العلامة المرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين(٢). فالله سبحانه وتعالى يريد للناس أن يعملوا، وهو لا يتدخل في تفاصيل خياراتهم، يريدهم أن يكونوا بمستوى الرسالة وأن يدفعوا ثمن خياراتهم واختياراتهم، فحرية الإنسان هي التي يصوغ من خلالها المجتمع أو

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) حركة التاريخ عند الإمام علي، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص٢١٩.

الأمة التي يُريد، والإنسان نفسه هو الذي يُحقق عمارة الأرض وإحيائها، وهو من يرسم مستقبله بجهاده، وآخرته بعمله، فليحاذر أن يُحمِّل السماء فساد أهل الأرض، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

ولسنا هنا في وارد أخذ العيّنات عن مدى حالة الانقلاب التي عاشتها أمة النبي المنقلبة على أعقابها والتي تقلّبها الرّغبة والرهبة والرجاء والخوف، فتتحول إلى أمة مستلبة الإرادة والشخصية لتؤدي الردّة الحقيقية عن الإسلام، وهي تتستر على أفعالها الشنيعة بلبوس إسلامي وشعارات تقوائية فضفاضة لا تعبّر إلا عن النفاق، وهكذا هو حال الأمة التي أراد لها سبط الرسول الحياة، وأرادت له الموت، وليس الموت الجسدي فقط وإنما الموت المعنوي الأخطر بالنسبة للأولياء، لأن الأمة بذلك تسلب عن نفسها التأسي بهم، وتحرم من بركات معين توجيهاتهم، وما ذنب الأولياء إذا كان أفراد الأمة يستوحشون من الحق ويستأنسون بالباطل، فهم يؤدّون تكاليفهم ولا يضيرهم الإعراض، فكعبة الله لا تُكسى لأعواز، إلاّ أنها المصالح الإلهية العليا التي لا يمكن لأبناء الدنيا أن يستوعبوا أسرارها ويُحيطوا بأخبارها، إنهم لا يعلمون حقاً كما كان يعبّر رسول الله ﷺ مخاطباً ربّ العزّة والجلال، وإن علموا فإنهم في الغالب لا يعملون من وحي علمهم. وإن عملوا فيا ليت إخلاصهم هو المحرّك والباعث، وليست الدوافع الآنية والمصالح الضيقة.

---

(١) الروم: ٤١.

* لماذا الصلح؟

كثيرة هي الأسئلة التي تُختصر بسؤال واحد مفاده: ما هي الأسباب الحقيقية التي جعلت الإمام الحسن عليه السلام يقدم على الصلح؟

وقبل ذكر العديد من الأسباب نذكّر بأن هدف الإمام عليه السلام في الحياة، ليس الدنيا، فهي لا تستحق العناء والمكابدة، وما بين إمامنا عليه السلام ومعاوية ليس أمراً شخصياً، ومعاذ الله أن يسمح هذا العظيم لنفسه أن يختار أهدافاً غير نبيلة، فإقدامه على أي عمل كبير سيشكّل بدوره مفصلاً مهماً، لأن مثل الإمام لا يهتمّ بجزئيات هامشية، بل يركّز في حياته على عناوين استراتيجية من شأنها أن تغيّر من مجريات تاريخية مهمة. فلم يكن الإمام بالطامع بالحياة حتى يؤثرها على الآخرة، بل إن تخاذل الناس أعطى لإمامنا أسباباً إضافية ليكره الدنيا وأهلها أكثر، ولم يكن بالرجل العازف عن الاستشهاد في سبيل الله، لأنّ الشهادة أمنية كل مؤمن ومؤمنة، فكيف هو حال سبط الرسول صلى الله عليه وآله وابن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو المشتاق إلى الشهادة اشتياق أبيه الذي وصف شوقه لها كاستئناس الطفل بثدي أمّه، فالإمام لا يريد قتلاً كيفما كان، لأن القتل في سبيل الله له مكانه وزمانه المناسبَين، فهو يريد قتلاً يصنع الحياة لا أن يقتلها، ويريد شهادة تخدم دينه ورسالته وليس قتلاً ينسجم مع رغبته وشوقه، يريد دماً يَهْدِر ويتفجّر من أجل غاية نبيلة لا دماً يذهب هدراً، يريد قتلاً يدوّنه التاريخ بفخر وكبرياء، فيتحوّل الدم فيه إلى غدير مجد وشلال عطاء، لا قتلاً يحدث بظروف غامضة

يقتصر الحديث عنه على بعض من نسوة يتأثّرن بالمشهد فيبكين ويلطمن. ولقد أجاد العلاّمة المرحوم الشيخ راضي آل ياسين حين وصف ذلك بقوله: «فعثمان ـ مثلاً ـ مات مقتولاً بسلاح الثائرين من ذوي الحق في أمره، فلم يستطع التاريخ، ولم يوفق أصدقاؤه في التاريخ، أن يُسجّلوا له الشهادة كما تقتضي كلمة شهيد، أما ذلك العبد الأسود الفقير، الذي لم يكن له من الأثر في الحياة، ما يملأ الشعور أو يشغل الذاكرة (جون مولى أبي ذر الغفاري) فقد أرغم التاريخ على تقديسه، لأنه قُتل في سبيل الله فكان الشهيد بكل ما في الكلمة من معنى»[١].

بهذه المقدّمة ندخل إلى رحاب بعض الأسباب التي حتّمت على الإمام عليه السلام قبول الصلح. وهنا نورد الآتي[٢]:

أ ـ ضجر الناس وشعورهم باليأس والملل من كثرة الحروب المتتالية كالجمل وصفين والنهروان، والتي لم تعد بالنفع المادي والغنائم للمقاتلين والمجاهدين، لأن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن يعامل الأعداء معاملة الكفار ليقسّم الغنائم، وإنما كان يأمر بإرجاع المال إلى أهله.

ب ـ طبيعة الجيش في العراق، تحب الدعة والراحة وتكره القتال والحروب، والجيش نفسه لا يملك الصبر على المواجهة، ولا يتأنى في خطة أو منهج، وقديماً قيل: «الخطأ زاد العجول» وقد

---

(١) صلح الحسن عليه السلام، ص٢٢٢.

(٢) لن نستطيع إطلاقاً ذكر كل الأسباب التي دفعت الإمام الحسن عليه السلام للموافقة على الصلح، وما نورده هنا هو على سبيل المثال لا الحصر.

كره الحرب أكثر عقيب رفع المصاحف وواقعة النهروان، فأحب السلم واستسلم للراحة، وتناسى أن القتال خير له وإن كَرِهتْهُ طبيعة الإنسان المائلة إلى الدّعة قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(1). ومن منطلق كره الجيش للقتال، لمّا دعا معاوية إلى الصلح اعتبر الجيش أن الفرصة قد حانت فانخدع به مرة أخرى، تماماً كما خُدِع من قبل(2) وظنّ الجيش بمعاوية خيراً وأنه محب للسلم والصلح، ولم يدرك الأبعاد الحقيقية التي دفعت معاوية لطرح الصلح.

ج ـ وضعية جنود الإمام في مسكن والمدائن، فعلى سبيل المثال ضعف المقدمة بدوره أضعف الجنود في المدائن، لأن الرهان الحقيقي كان على المقدّمة فهي كما يُقال: «أوثق سهم في كنانتي» فقد انسحب منها ثلثا الجنود، وساهم عدم تلقي الدعم على مستوى العناصر البشرية، في تقوية احتمالات عدم النصر، وشكّل وجود الخليط من أصحاب الفتن والطمع والخوارج أرضية خصبة لكل أنواع الفتن فالمفتون فتن بمعاوية، والطمّاع طمع حتى بأمتعة الإمام عليه السلام، والخارجي استغل فرصته الذهبية لأنّ مشروعه يكمن في إضعاف أي طرف من المتنازعين المتقاتلين ويبقى الثابتون الذين لن يستطيعوا وحدهم صنع النصر.

د ـ أجواء التقاتل القبلي التي كانت هي السائدة في تلك

---

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) يوم رفع المصاحف ودعوة الأمير لبدعة التحكيم وقد تقدّم ذلك قبل صفحات.

المجتمعات، وكانت الانقسامات على أشدّها حيث كثرة التيارات والأحزاب والشيع، أضف إلى ذلك، أن معاوية قد وضع الزيت على النار ونفخ في صدور الناس من حمية الجاهلية حتى صاروا حيارى، وأسرى لنفثاته حتى صارت كلماته أسرع لقلوبهم من سواها، في جاهلية لم يكتب التاريخ مثيلاً أو شبيهاً لها على الإطلاق، وقد وصف الإمام الحسن عليه السلام أهل الكوفة فيما وصف فيه الناس بقوله كما روى ابن الأثير (وليس أحداً منهم يوافق أحداً في رأي ولا هوى، مختلفون لا نية لهم في خير ولا شر)[1].

هـ ـ رشوات ابن هند كانت بدورها تنهال على معتوهي المعتقد من كل حدب وصوب، فصارت تبدّل الأفكار وتهدِّم ما بناه الرسول صلى الله عليه وآله وتسحق الرجال وزعماء القبائل والعشائر، وكأننا برشاوى معاوية ما يشبه الجراد الذي يأكل الأخضر واليابس، أو النار يفعل فعله في الهشيم، ولا أدري لماذا لم تصمد كلمات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والتي دعا فيها إلى الاستقامة وعدم الخضوع لأشباه معاوية؟ إلاّ أنها الدنيا الغدّارة تسحق طلابها وتمحق عُبّادها!

و ـ الإشاعات الكثيرة والرائجة والتي كانت تخدع الناس والجيش بأكاذيب عديدة، فتارة كان يُشاع أن الحسن قد صالح. وأخرى أن قيس بن سعد التحق بمعاوية، وكانت الإشاعات تلك لها الأثر السلبي الكبير في نفوس الناس، وكأن تحذير الله للمؤمنين من مغبة الأخذ بخبر الفاسق كلها لم تنفعهم، ولم تشكل حاجزاً يمنعهم من الانصياع للشائعات، يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) ابن الأثير، ج٣ ص٦٢.

ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[1].

ز ـ سلسلة الخيانات التي طالت قائد الجيش عبيد الله ومعه ثمانية آلاف من أصل اثني عشر ألفاً من مقدمة الجيش، ما سبَّب باضطراب الجيش وهزيمته نفسياً، وغير خافٍ على أحد مدى ما تحدثه الهزيمة النفسية في نفوس المقاتلين من أثر سلبي قاتل[2]، لقد خلقت خيانة عبيد الله وحدها جواً من الإحباط والتشاؤم، ولم يقتصر على الجنود في مسكن حتى تعدّى ذلك إلى المدائن.

ح ـ تنكّر المسلمين لأبسط المسلّمات العقائدية والتاريخية وهو ما سبّب أن يزهد الإمام في الحياة مع نماذج محسوبة على المسلمين والبشر وهم ليسوا كذلك، وهو القائل عليه السلام: «وقد زهدني فيكم اغتيالكم أبي»[3] فإذا كان مصير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في هكذا مجتمع القتل لذنبٍ واحد ارتكبه الإمام إنه يريد أن يحمل الناس على المحجة البيضاء واسترداد المال المغصوب حتى لو زُوّجت به النساء ومُلّكت به الإماء[4]، فالشجرة تُعرف من

---

(١) الحجرات: ٦.

(٢) في الحروب العسكرية تشكّل المعنويات قبال العدد والعدة لدى أي جيش في العالم نسبة الثمانين في المائة، فمن الطبيعي أن انسحاب قائد الجيش ومعه الآلاف يقضي على معنويات نسبة لا يُستهان بها لدى الجيش غير العقائدي، وإن كان عقائدياً فإنّ النسبة قليلة، والأمر مرهون بمدى الإيمان والالتزام، فالمؤمن لا يستوحش مهما كان أهل الحق قلّة، والمذبذب هو كالبورصة التي تنساق تبعاً للعرض والطلب.

(٣) حياة الإمام الحسن ـ باقر شريف القرشي، دار البلاغة، ج٢ ص١٣٢.

(٤) من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان،=

ثمرها كما يقال، والمؤمن يُعرف في وقت الشدّة والشدائد، ولا أدري بماذا كان يُعرف المسلمون في ذلك الوقت؟ وأي ثمرة أو نتيجة يمكن لها أن تُتوخى منهم؟

ط ـ حرص الإمام على حقن دماء المسلمين، فالحرب إذا لم يكن لها مبرراتها فإن أي ثمن سيُدفع لن يؤدي إلى نتائج إيجابية، وهو القائل في المدائن عليه السلام: «أيها الناس، إن الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إنما هو حق أتركه لإصلاح أمر الأمة، وحقن دمائها»[1].

ي ـ حوادث المدائن القاسية كانت غاية في الشدّة والمرارة، حيث حَكَم على الإمام عليه السلام من يُفترض بهم الوقوف معه وخلفه بالتكفير، وقد تعاطوا معه بأخلاقية لا تمت إلى الدين والأخلاق بصلة، حيث أساؤوا الأدب في حضرته عليه السلام وقد نهبوا أمتعته وحاولوا اغتياله مراراً وتكراراً، في الوقت الذي كان فيه الإمام يتعاطى معهم بأخلاقية الرسل والرسالة، وقد صدق فيهم المثل القائل: «لو ألقمته عسلاً عضّ إصبعي»[2].

ك ـ قوة العدو وضخامة قواه العسكرية الذي كان يُعدّ بستين ألفاً من الأعداء الأشدّاء، وهو رقم كبير مقابل جيش الإمام قبل خيانة الآلاف منهم فكيف سيكون الحال بعد الخيانة والتحاق من التحق

=فقال عليه السلام: «والله لو وجدته قد تُزوِّج به النساء وملك به الإماء لرددته، فإنّ في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»، نهج البلاغة، خطبة ١٥.

(١) أعيان الشيعة، ج٤ ص٤٢.

(٢) هذا مثل يُضرب بالأشخاص الذين لا يقابلون الإحسان بالإحسان.

بجيش معاوية؟ وهل باستطاعة أربعة آلاف مقاتل مواجهة أكثر من ستين ألفاً؟ وحتى هذا الرقم لجيش الإمام الحسن عليه السلام لم يصمد طويلاً.

وهناك المزيد من الأسباب التي تقدّم ذكرها في مطاوي الحديث، ولن نرهق القارئ الكريم في ذكرها اعتماداً منا على نباهته وبصيرته على أن اللبيب تكفيه الإشارة عن الشرح والتفصيل.

* الصلح يفضح سريرة معاوية

أدرك ابن آكلة الأكباد بأن الحرب باتت لصالحه بعد سلسلة الخيانات، لكنه مع ذلك ألحّ على الصلح، لأنه كان على يقين بأن أي انتصار على ابن بنت النبي لن يصب في مصلحة مشروعه التمهيدي وهو الحريص على الظهور بمظهر أنه محب للنبي وآل البيت، لذا كان شديد الحرص على أن لا تسفك الدماء ليس من منطلق خوفه من الله وإنما من أجل أن لا يتورّط في حرب تُظهر مضموره، وهو الموهوب في اقتناص الفرص عندما يتعلق الأمر بالفتن، والمشهود له بالتّخصص في تعهّد حروب الفتن والحروب الباردة.

ووافق الإمام الحسن عليه السلام بدوره على الصلح، لأنه سيُظهر سريرة ابن أبي سفيان ويكشف حقيقة ما يبطنه ويخفيه، وما خطط له الإمام سرعان ما ظهر فتكشّفت أوراق معاوية السرية لأن كبرياءه وشعوره بجنون العظمة، لم يعد يسمح له إلا بالعدوانيّة، فهو لّما رأى أن سلطانه قد اتسعت رقعته، وأن العراق الذي كان يشغل باله صار تحت إمرته شمخ بأنفه، وبدأ يتعامل مع كل الذين اشتراهم

بماله باحتقار، وصار يمارس معهم عملية الإذلال ويوجّه لهم الإهانات ويفضحهم بالأسماء، وأنه اشترى فلاناً زعيم القبيلة الفلانية بكذا وآخر بمبلغ كذا.. إلى أن بلغ الذروة في التكبّر والخيلاء لأنه لم يعد يشعر بضرورة إخفاء شخصيته الحقيقية فأظهر مكنوناته وأخرج ما في قلبه وصدره من شحناء وبغضاء لبيت النبوة والإمامة ومن حب وشغف كبيرين للزعامة والإمرة حتى اعترف بخطابه الفرعوني بأنه لم يقاتل من أجل صلاة وصيام، لأنه كان يعلم بأن الناس تصلي وتصوم، بل قاتل من أجل الإمرة، فهو لم يقاتل لا من أجل عثمان ولا من أجل الدين والمتديّنين، فقال في محفل حاشد من العراقيين «والله إني ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا، ولا لتحجوا، ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون»[1][2] ولم يكن يترك مناسبة إلا وكان يوجه فيها جام غضبه على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وولده الحسن عليهما السلام.

لقد كان الصلح ـ الضرورة ـ كاشفاً بحق لحقيقة مستور معاوية وفاضحاً لسرائره ونواياه، ومن يدقق في شروط الإمام الحسن على معاوية في بنود الصلح يدرك أن الإمام كان يعلم أن الرجل سيتفلّت منها، لكن إمامنا المجتبى عليه السلام أراد إظهاره بمظهر حكّام الجور وأنّه

(١) أعيان الشيعة، ج٤ ص٢٦؛ وفي بحار الأنوار، ج٤٤ ص٤٩.

(٢) في رواية أبي إسحاق السبيعي أن معاوية قال في خطبته: «ألا وإن كل شيء أعطيت الحسن ابن علي تحت قدميَّ هاتين لا أفي به»، وقد ذكر ذلك ابن أبي الحديد في النهج.

غادر فاجر[١]، هذا فضلاً عن كونه لا علاقة له بأي شكل من أشكال الدين، أو مظهر من مظهره، اللهم إلاّ من بعض الشكليات التي تخدع السذج من الناس، وهم النماذج المستنسخة الذين تجدهم دائماً في كل عصر ومصر، وما أكثرهم وأخطرهم على الرسالات السماوية وعلى الشعوب الطامحة لتحقيق العدالة العالمية.

* بنود الصلح

اختلف المؤرخون وكتّاب السِّير في بنود الصلح الموقّعة، فقد ذكر جماعة من المؤرخين: «إن الإمام الحسن اتفق مع معاوية على العديد من النقاط، أهمها:

١ ـ أن يسلِّم له ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنّة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين.

٢ ـ ليس لمعاوية أن يعهد بالأمر إلى أحد من بعده.

٣ ـ الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم.

٤ ـ أصحاب علي آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وعلى معاوية الوفاء بعهد الله وميثاقه.

٥ ـ أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد

---

(١) كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يصف معاوية بأنه داهية وغادر كما يقول عليه السلام: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة» و«لكل غادر لواء يُعرف به يوم القيامة»، نهج البلاغة، نص ٢٠٠.

من أهل بيت رسول الله ﷺ غائلة سراً ولا جهراً ولا يخفي أحداً منهم في أفق من الآفاق.

٦ ـ أن تكون الخلافة للإمام الحسن من بعده، فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين وليس لمعاوية أن يعهد به لأحد.

٧ ـ أن لا يسميه أمير المؤمنين.

٨ ـ أن لا يقيم عنده شهادة.

٩ ـ أن يضمن نفقة أولاد الشهداء من أصحاب الإمام علي عليه السلام.

١٠ ـ ترك سبّ الإمام علي عليه السلام والعدول عن القنوت عليه في الصلاة.

١١ ـ أن لا يتعرض لشيعته لسوء ويصل إلى كل ذي حق حقه»[(١)].

وروى الطبري أن معاوية أرسل إلى الإمام صحيفة بيضاء وختم أسفلها بخاتمه وترك للحسن أن يكتب ما يشاء ويقترح ما يريد[(٢)]، وهذا ليس كرم أخلاق من معاوية، إنما هو التنصّل من أي بند أو شرط طالما أنه سيكون المنتصر، وصدق من قال في المثل العربي (قالوا للسارق احلف يمين، فقال: جاء الفرج) لأن من يسرق لن يخاف من أن يحنث بيمينه.

وفي تاريخ أبي الفداء أن الحسن كتب إلى معاوية واشترط عليه شروطاً وقال: إن أجبت إليها فأنا سامع مطيع، فأجاب معاوية

---

(١) المنظمة العالمية للحوزات، تاريخ الإسلام، ج٢ ص٥٤.

(٢) كتاب سيرة الأئمة الاثني عشر، للسيد هاشم معروف الحسني، ج١ ص٥٨٢.

إليها، وكان الذي طلبه الحسن أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة، وخراج دار أبجرد من فارس، وأن لا يسب علياً. فلم يجبه إلى الكف عن سب علي فطلب الحسن أن لا يشتم علياً وهو يسمع فأجابه إلى ذلك، ثم لم يف له به[1]. وقد ذكر الرواة أن عقد الصلح اشتمل على بعض البنود الأخرى من قبيل أن الأمن العام لعموم الناس، الأسود والأحمر منهم سواء فيه، وأن لا يتتبع معاوية أحداً بما مضى، وأن لا يُسمي معاوية نفسه بأمير المؤمنين، وأن لا يقيم عنده الشهادة، وأن يترك سبب أمير المؤمنين عليه السلام وأن لا يذكره إلا بخير، والأمن لشيعته وعدم التعرّض لهم بمكروه، وأن يوصل إلى كل ذي حق حقه، وأن ينفق على أيتام من قُتل مع أمير المؤمنين في حربي الجمل وصفين ألف ألف درهم، وهناك مصارد أخرى وهي كثيرة، فبعضها ينقص من البنود وبعضها الآخر يزيد منها.

وعلى أي حال فلو صحّت الرواية المتضمنة اشتراط الإمام لنفسه ما في بيت المال في الكوفة، فهذا ما يُعبّر عنه فقهياً بالاستنقاذ، فهو عليه السلام يريد إنقاذ مال الفقراء والمساكين والأيتام من أيدي الظالمين والطواغيت والجبابرة، وإلاّ فإنّ المال بالنسبة للإمام الحسن لا يعني له شيئاً، فهو عليه السلام الذي قاسم الفقراء أمواله ثلاث مرّات، وخرج من ماله مرتين.

* شروطه عليه السلام... الرسالة المفخخة

مما لا شك فيه أن موافقة الإمام على الصلح، كانت بحكم

---

(١) تاريخ أبي الفداء، ١/ ١٩٢.

الضرورة التي فُرضت عليه بناءً لمعطيات قدّمنا بعضاً مما نعرف أو حاولنا، ولم نوَفَّق لمعرفة بعضها الآخر، والتي شكّلت أسباباً ضاغطة حتى اضطرّ لعقد الصلح.. ولا تعني الضرورة أن الصلح لم يكن وجيهاً ومُوجَّهاً وحاملاً للعديد من الرسائل الحسنية التوجيهية للأمة التي أدمنت الخذَر واعتادت الغدر، فالإمام الحسن عليه السلام الذي تنكّرت الدنيا له حتى بات بلا ناصر ونصير، والذي لم يستوحش رغم مرارة الغربة التي كان فيها، وكأننا به يسمع كلمات أبيه أمير المؤمنين عليه السلام والتي تعطي الطمأنينة لأهل الهدى والحق.

فيقول عليه السلام: «أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهُدى لقلّة أهله، فإنّ الناسَ قد اجتمعوا على مائدةٍ شِبْعُها قصيرٌ، وجوعُها طويل»[1] فهو عليه السلام من أهل بيت يفيضون بالمعنويات، فلا يسقطهم الغدر ولا تقعدهم الخيانة، وإنما يبدّلون الأساليب لتكون في خدمة الهدف الواحد الذي لا تغيّره الظروف ولا الأحداث وهو التقرّب منه عزَّ وجلّ.

فإذا أُقعد الواحد منهم عن القيام بمهامه الجهادية فهو يختار أسلوباً آخر من أساليب الجهاد، فالإمام علي عليه السلام وإن أُقعد في بيته خمسة وعشرون عاماً لكنه لم يغب عن ساحة التبليغ للرسالة والتسديد لرأي الحاكم، والتصويب لفتوى متصدٍّ للفتيا وليس من أهلها، والإمام زين العابدين حينما يُضيّق عليه بعد شهادة أبيه الإمام الحسين عليه السلام يختار أسلوب الدعاء ويُخبر عن وقائع عاشوراء حتى

---

(١) نهج البلاغة من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام، شرح الدكتور صبحي الصالح، ص٣١٩.

تتحول دموعه الباكية على سيد الشهداء إلى دموع ثائرة وإلى رسالة تُنطِق الدم الكربلائي.

هذا فضلاً عن مدرسة الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام وبقية الأئمة الأطهار عليهم السلام، والإمام الحسن عليه السلام أراد بصلحه إيصال رسائل متعدّدة، مهما حاولنا التعرّف عليها فإن قول الله تبارك وتعالى بشكل الجواب الشافي لكل معلوماتنا مهما بلغت، فيقول عزَّ من قائل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

فقد أراد أن لا يفرح معاوية كثيراً بانتصاراته من خلال شروطه التي كانت أبعد من أن يفقه مداليلها معاوية، وهو الماكر والعارف من أين تؤكل الكتف كما يقال؟ وإن فهمها واستوعبها فهو غير قادر على الرجوع من حيث بدأ، لأن مصلحته تقع في عقد الصلح، وهو وإن لم يبال بالبنود والتفاصيل والشروط التي اشترطها الإمام، فذلك لأنه لم يكن في باله الالتزام وهو ممّن عُرف عنه نقضه للعهود وعدم وفائه بالوعود. وقد مرّ معنا في رواية الطبري أن معاوية قبْل الصلح أرسل إلى الإمام الحسن عليه السلام صحيفة بيضاء ختم في أسفلها، ليكتب الحسن شروطه التي وافق معاوية عليها سلفاً، ومهما يكن من أمر، فسواء صحت رواية الطبري أم لم تصح، فإن الرجل وأمام الانتصارات الكبيرة له والتي لم يكن يحلم بها، لم يعد يبالي بالتفاصيل، فمن يستخف بأوامر الله وتوصيات رسوله، لن يحرص على التزامه بالعهود والمواثيق.. كل هذا لم يكن غائباً عن ذهن إمامنا الحسن، لأنه عليه السلام حينما أخذ الأيمان والعهود من معاوية لم

(١) الإسراء: ٨٥.

يأخذها ليتأكد من صدقه، بل ليكشفه للسذّج من الناس، وتفاصيل بنود الصلح تكشفه أمام المخدوعين بشعاراته، والتي كان من أبرزها أن عدم التزام معاوية بها كشفت مكره وخداعه وألّبت عدداً ضخماً من الشخصيات البارزة عليه.

فحينما يشترط ولاية العهد بعد هلاكه له عليه السلام ولأخيه من بعده، فهذا معناه أن الإمام يعلم أن معاوية يريد تحويل ولاية العهد لأبنائه وأحفاده، وإن خالف وقد حصل ذلك ستظهر حقيقة نقضه بالعهود، وتركيز الإمام على صيانة موقعه وموقع أخيه الحسين عليه السلام يدلّ بوضوح على عناوين ومفاصل اساسية تتعلق بأمور القيادة وموقعية القائد، وحينما يشترط عليه ان لا يسميه بأمير المؤمنين، فهذا اعتراف شرعي لغصبية معاوية لهذا الاسم واللقب، وحين يشترط الإمام على معاوية بأن لا يعدو الكتاب والسنّة، فهذا معناه أنه يعدوهما ويتعدّى حدودهما وأنه من أبعد الناس عن تطبيق ما في الكتاب والسنّة.

وحين يشترط عليه عدم إقامة الشهادة عنده، دلّ على أنّه من حكام الجور لأن الشهادة تقام عند الحاكم الشرعي، وليس عند حكّام الظلم والطغيان، وإلزامه بشرط عدم التعرّض بسوء لشيعة أمير المؤمنين دلّت على أنّ الرجل يتعرّض لهم ويؤذيهم، وهكذا هي بقيّة الشروط التي وافق عليها معاوية سلفاً ولم يُدرك أنّها تكشف حقيقته وتعرّي صورته وتُظهره على واقعه الحقيقي بعيداً عن تدليساته وعمليات التجميل لبشاعة قُبحِه، والحديث طويل نقتصر على ما تقدّم والله نسأل أن يُسدّد ويؤيد حتى لا نكون من ظالمي الإمام باسم الدفاع عن مظلوميته.

تبقى الإشارة هنا إلى أن ما فعله الإمام الحسن هو عبارة عن معاهدة وليس بيعة لمعاوية. ولا يعدّ هذا الصلح أو تلك المعاهدة اعترافاً من الإمام بمشروعية معاوية. وما يؤكد هذا المعنى هو اشتراطه في بنود الصلح أن لا يسمي معاوية بأمير المؤمنين.

* لماذا ينتصر الغدر أحياناً؟

هل يحرم الصدق فرصة النصر لأولياء الله، بينما يُقدّم الكذب والنفاق لأصحابه الخدمات الكثيرة والاستهدافات الخطيرة؟ ولماذا يُعطى معاوية فرصة النصر الآني وهو الذي استعمل أدوات محرّمة وأساليب غير شريفة لغاية دنيئة رخيصة؟ ولماذا لم يستخدم الإمام الحسن عليه السلام تلك الأدوات طالما أن الغاية هي من النبل بمكان، وهي مقدّسة كقداسة طهره عليه السلام؟

وباختصار شديد نقول: إن المؤمنين الرساليين لا يلجأون إلى أساليب غير شريفة، حتى لو كان الهدف نبيلاً، فالغاية لا تبرّر الوسيلة في منظارهم الإلهي. فكما تكون الغاية، كذلك هي الوسيلة، فلا يُطاع الله من حيث يُعصى، ولا يُرجى النصر بالجور، ولا هزيمة الأعداء بالخداع، حتى لو كلّف ذلك تضحيات جسام، فعن الإمام الحسن عليه السلام: «إن الغدر لا خير فيه، ولو أردت لما فعلت؟»[1]. وإلى تلك المعاني وغيرها أشار أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) البحار، العلامة محمد باقر المجلسي، ج٤٤ ص٥٧، الطبعة الحديثة، والمقصود بقول الإمام عليه السلام: «ولو أردتُ لما فعلت» أي لو أردت الغدر لما فعلت واضطررت إلى الصلح.

بقوله: «إنّ الوفاء توأمُ الصّدق[١]، ولا أعلم جُنّة أوقى منه، وما يَغدِرُ من عَلِمَ كيف المَرْجِعُ، ولقد أصبحنا في زمانٍ اتّخذ أكثرُ أهله الغدر كيْساً (أي فطنة وذكاء)»[٢]. فالقادة هم حرّاس العقيدة والمعتقد، والتعاطي مع المجتمع والدولة لا ينبغي أن يكون على حساب المبدأ، فقيمة الهداة الميامين تكمن في ثباتهم الذي يتحدّى الجبال الشامخة، وليس في التقلّب حسب هبوب العواصف وتغيّر المصالح، فهم الأنموذج الذي يؤسس للمستقبل، والقدوة لكل الأجيال، وهم طلاب الآخرة، وما سعيهم في الدنيا إلاّ لأجل سعادة الدارين. فقد تبدو أفعالهم مستغربة لدى كل من يريد الانتصار العسكري بأي ثمن، لكنّهم هم الأمناء على الدين، الأمناء على تبليغ الرسالة كما هي بعيداً عن الانتصارات الآنية والمصالح الشخصية، فهم لا يبحثون عن أمجاد لهم من بين الأطلال ولا عن جاهٍ لهم ما بين الجماجم والرؤوس المقطعة والأيدي والأرجل المتطايرة، إنّ نصرهم هو أن ينتصر الحق وإنْ طال ليل الباطل، وعزّهم أن يُعزّ الدين وإن توهّم البعض بأنّه ذُلّ.

إن انتصاراتهم الحقيقية تكمن في زرع شتلات الحق غرسة تلو أخرى، وتربية الأجيال لخدمة الحق والدين، لا أن يبحث الواحد منهم عن مجده وعزّه هو، بل عن مجد الإسلام وعزّه. إنّ غاية

---

(١) على ضوء ذلك فالخيانة توأم الكذب، فكما لا جُنة أكثر وقاية من الوفاء، فمن يتترس بالغدر لا يدوم له غدره، وقد قيل: تستطيع أن تخدع بعض الناس وليس كل الناس، ولبعض الوقت وليس كلّ الوقت.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٤١.

المنى لهؤلاء العظام إقامة حدود الله المعطّلة، وأن يحكم الله وهو خير الحاكمين، وتأصيل التجربة الإسلامية كواقع معاش، ليأمن كل مظلوم ومحروم، فالوصول إلى تلك الغاية هو النّصر بذاته، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان. ولا التماس شيء من فضول الحطام. ولكن لنردّ المعالم في دينك ونظهر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك. وتقام المعطّلة من حدودك»[1].

فلو كان الهدف له علاقة بدنيا أو منافسة في سلطان، أو التماس شيء من حطام، لكانت الخسارة تقاس بحدود خسارة السلطان الزائل والحطام البالي، لكنه مرتبط بمواكبة أهل الأرض لأهل السماء، وبإعطاء النموذج الأفضل لمسلمين يريدون أن يعيشوا الإسلام حياً مترجماً، وعلى ذلك يمكننا الإجابة عن سؤال قد يتبادر إلى أذهان من يقرأ سيرة معاوية والتي يبدو فيها انه أمام انتصارات لا هزائم، ونجاحات لا إخفاقات، وقد لا يعجب القارئ بهذه النتيجة التي هي بمثابة سؤال يأتي أو شبهة ترد.

والحقيقة أن أهل الباطل وإن ربحوا العديد من الجولات في عملية صراعهم للحق والعدل لكنّهم في نهاية المطاف أصحاب انتصارات محدودة في حدود آفاقهم الضيقة التي هي أضيق من صدورهم، فهم يستعجلون لتحقيق بعضٍ من انتصاراتهم الوهمية كما يخدعون أنفسهم، وهؤلاء لا يقرأون حركة التاريخ ولا قوانين السنن التي ينتصر فيها الحق وتكون العاقبة للمتقين. قال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) نهج البلاغة، النص ١٢٩.

ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[٢] هذا وعد الله.. وهو يبشر بالمستقبل ويضع الإنسان أمام مسؤولياته الشرعية ليكون كل فرد من أفراد هذا المجتمع مفردةً من مفردات الوعد الإلهي، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[٣][٤].

* صاعق التفجير للثورات

إن أهمّ ما في الصلح أنه يخطط ليوم آخر سيأتي، وظرف آخر سيتغير فتتغير معه خارطة الأولوية والخطة، وتسل السيوف من أغمادها، لتعرف الخيلُ فرسانها، فقد اشتاقت لهم.. لجيادهم.. لهمهماتهم.. اشتاقت العاديات إلى فرسانها والمجاهدين.. إلى من ينفّس كربة المكروبين الذين عانوا الأمرّين، عانوا الوحدة والقلّة والغربة، من الردة والقهر والغلبة للنفاق.. حتى يمكننا القول إن الإمام الحسن هو أمير الوحدة والغربة، أمير المظلومين وكهفهم، معزّ المؤمنين وناصرهم.

وكربلاء الحسين نتاج صبره وصلحه.. وثمرة مظلوميته وغربته،

---

(١) الأعراف: ١٢٨.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

(٣) المعارج: ٦ ـ ٧.

(٤) الأحداث التي تغيّر مسار الجنس البشري لا تقاس بأعمار الأفراد أو الجماعات ولا بالحركة التاريخية في هذا النطاق أو ذاك، وإنما تُقاس بما يتناسب مع حجم النوع الإنساني كله ومع حركة التاريخ العالمي كلها. كما يقول العلامة المرحوم الشيخ مهدي شمس الدين في كتاب حركة التاريخ عند الإمام علي، ص٢١٨.

فماذا قدّم الحسن بصلحه إلى مستقبل الإسلام، وإلى كربلاء بالتحديد؟ ولو لم يكن من ثمارٍ للصلح إلا كربلاء الحسين لكفى..

صحيح أن الإمام المجتبى انحنى بأصحابه القليلين جداً وأهل بيته أمام العاصفة الأموية بانتظار المتغيرات وتبدّل المعطيات، وهو في الأثناء كشف بشروطه في بنود الصلح عن حقيقة معاوية، وهذا بحدّ ذاته أجّج مشاعر الغضب وحرّك حسّ المخدوعين بشعاراته، وجعل الناس المتضرّرين من وجوده بمثابة الجمر تحت الرماد، وكما قيل: «الحقّ كالنار، عندما نحاول تغطيته يحترق»[1] لقد جعل معاوية الناس أشبه بالبركان المتأجج يريد أن يقذف ويُلقي بحممه، بينما استطاع سبط الرسول أن يستفيد من قدرات الناس ويستثمر طاقاتهم، بعد ان انتظر بفارغ الصبر أن يفيقوا من سكرتهم، لأنهم ما لم يفيقوا فلن يسمعوا كلام الإمام، ولن يصدّقوه إذا أخبرهم بمكره، وما لم يستجمعوا قوى عقولهم فلن تقوى الكلمات على تثبيتهم ولا حتى الشلالات من دماء الشهداء على إيقاظهم من سباتهم العميق، فمن الطبيعي أن لا يُخاطِب العاقلُ المخمورَ حتى يعود إلى صوابه ويفيق، وهكذا كان حال إمامنا الحسن عليه السلام مع السيل العرم من السواد الأعظم في ظل وجود معاوية الذي كان يتمتّع بقدرات ذهنية لا يُستهان بها، حتى بات وللأسف يعني للناس كما يعني لهم العقل والمخ الذي يحرّك الجسد مهما كبر وعظم طولاً وعرضاً.. ومن هذا المنطلق كان تركيز الإمام الحسن على عدم القيام بأيّ تحرك عسكري طالما أن معاوية على قيد الحياة، وكانت

---

(١) مثل عربي يعبّر عن الواقع الذي لا يمكن فيه التعامي عن الحقائق.

توجيهات الإمام الحسين بعد شهادة أخيه الحسن هي نفسها لا تنقص ولا تزيد، وقد قيل والتعبير دقيق «صلح الحسن صلح حسني حسيني، وكربلاء الحسين كربلاء الحسن والحسين».

* جندي كربلاء المجهول

جهّز الإمام وهيّئ، وأعد للثورة، ولأن الظروف لم تساعده في عصره فقد وضع كل إمكانياته وقدراته، كل رصيدٍ له، كل صبر تحمّله، بل كل وجوده، وضعه وبحماس منقطع النظير في خدمة الثورة الحسينية. وكأني به عليه السلام وهو يتحمّل عواقب الصلح ونتائجه يسمع صوت أبي عبد الله الحسين في كربلاء، التي كان يشعر حيالها بالجندية، بل بمسؤولية تحمّل أعباء إنضاج الظروف لها، وتهيئة أجوائها، وهي مسؤولية القيادة التي ترى المستقبل بعين البصيرة، وترى الثورة بالصلح، والمستقبل الزاهر بكربلاء، والنتائج الباهرة لثورة الحسين عليه السلام بعين أخيه الحسن عليه السلام المضحّي والمدافع والجندي الكربلائي المجهول، الذي لم يُظلم في عصره فقط، وإنما طاولته المظلومية حينما لم يُذكر في عِداد شهداء كربلاء ولا من جملة قيادييها الكبار والكبار جداً، وظُلم حتى في بعض الكتب الشيعية والأدعية والزيارات، ويُظلم من قبل بعض خطباء المنبر الحسيني، حيث لا يتحدّثون عنه في ذروة الحضور لمحبي أهل البيت في ليالي عاشوراء، وحتى في ليلة القاسم فبدل الانشغال بعرس القاسم وتفاصيل عن ذلك، كان الأجدر بهم الحديث عن الإمام الحسن، فهو عليه السلام مِمّن أسّسوا أساس العدل الذي أراد اجتثاث أساس الفساد من جذوره، وهو الذي اختير لمهمة صعبة

ودقيقة حسّاسة وخطيرة. وعلى أي حال فإن صلحه عليه السلام لم يكن صلح الحسن وحده، وإنما كان صلح الحسن والحسين، وإن كربلاء الحسين لم تكن كربلاء الحسين وحده، وإنما كانت كربلاء الحسن والحسين عليهما السلام، فهما معاً خطّطا للصلح وعملا لإنجاحه، وهما معاً خطّطا للثورة وعملا لإنضاجها وإنجاحها، وهما معاً سيدا شباب أهل الجنة وشهداء الحق ضد الباطل مع فارق الظرفَيْن واختلاف القاتلَيْن والجائرَيْن واتحاد بيتهما الأموي وتقاسم القتل بين الولد والوالد، واختلاف المقتولَيْن والشهيدين بالاسمين ما بين حسن وحسين، واتحاد بيتيهما ببيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي ومختلف الملائكة، واختلاف أوان المعركة وطريقة الاستشهاد التي كانت تارة على يد جعدة[1] بنت الأشعث الزوجة المطيعة لابن هند والقاتلة لزوجها، وأخرى على يد يزيد ابن معاوية مشتركاً بالقتل كل من باء بإثمه وارتكب أفظع واقعة في التاريخ، وأكبر جريمة يشهدها العالم، حتى أن إمامنا الصادق عليه السلام يعبّر عنها بقوله وهو يخاطب جدّه الحسين «لا يوم كيومك يا أبا عبدالله»، وهذا ما قاله الإمام الحسن عليه السلام لأخيه الحسين عليه السلام بالنص نفسه[2].

---

(١) ورد أن الإمام الحسن عليه السلام أخذ جمعاً من الناس بعد أن غدر به أهل الكوفة بقوله: «إني أموت بالسم..» فسُئل عن الفاعل فأجاب عليه السلام: «امرأتي جعدة بنت الأشعث بن قيس، فإنّ معاوية يدسّ إليها ويأمرها بذلك، فقالوا له: أخرِجها من منزلك، وباعدها من نفسك. قال: كيف أُخرِجها ولم تفعل بعدُ شيئاً؟! ولو أخرجتُها ما قتلني غيرها، وكان لها عذرٌ عند الناس» كما ورد في جلاء العيون للسيد عبد الله شبّر، ص٣٦٨.

(٢) أمالي الصدوق، ص١٧٧.



الفصل السابع

الصلح.. آثار وأبعاد

* ماذا بعد الصلح؟
* خطاب تاريخي.. لمجتمع جاهلي.
* سُنن التاريخ.
* عزّ المؤمنين.. لا ذلّهم.
* تناقض أم تكامل؟
* جولة في درر كلماته عليه السلام..
* كلمة لا بدّ منها.
* يثرب محطّ الرّحال.
* أصداء دعوته عليه السلام.



الصلح.. آثار وأبعاد

* ماذا بعد الصلح؟

اجتمع الإمام مكرهاً بمعاوية في النخيلة[1]. وقيل بالكوفة[2]. وقد حضر الاجتماع جموع حاشدة تريد معرفة ما يقول الحسن عليه السلام الذي ألجأته الظروف القاهرة إلى الصلح، وما يقوله معاوية بعد ظفره، وبالفعل فقد صعد معاوية المنبر وأخرج خبث ذاته ونتونة مكنوناته بكلمات قاسية ونابية، إلى أن قال: «أيها الناس، ما اختلف أمر أمّة بعد نبيّها إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها. ثم ندم على مقولته لأنها ليست لصالحه وقد صدق من قال «الحق ينطق منصفاً وعنيداً» فاستدرك قائلاً: «إلا هذه الأمة»[3].

وبدأ توضيح مراميه من كل قتاله، فهو قاتل العراقيين ليتأمّر عليهم فقال: «والله إني ما قاتلتكم لتصلوا ولتصوموا ولتحجّوا ولا

(١) ابن أبي الحديد، ٤/١٦.

(٢) اليعقوبي، ٢/١٩٢، الإرشاد، ١٧. مثل عربي يتحدث عن واقع الحق الذي يظهر ولو على فلتات اللسان.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديدن ج٤ ص١٦.

لتزكّوا، إنكم لتفعلون ذلك، ولكني قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون. ألا وإني كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها»[١].. وعلى أي حالٍ سواء كان خطاب معاوية في النخيلة وهي في طريق الكوفة أم كان في الكوفة، فهو في خطاب للعراقيين وخصوصاً لأهل الكوفة. وغير خافٍ على أحد أن الكوفة كانت عاصمة الأمصار والبلدان، وبعد أن ربح معاوية جولته صارت تابعة لدمشق، وفي العاصمة السابقة يمارس معاوية عهره وطغيانه دون أن يحسب حساباً لأحد. أما في البلد الموالي لأهل البيت والذي لا يوجد زاوية من زواياه إلاّ ولآل الرسول فيها ذكريات لا تزال محفوظة، وكلمات لهم لا تزال ترنّ في الأسماع وتصغي إليها آذان القلوب، ففي هذا البلد يقف معاوية متحدّياً كل القوانين وخارقاً لكل المعاهدات والعقود والبنود، فيشتم تارة أمير المؤمنين عليه السلام وأخرى ولده الحسن عليه السلام دون رادع أو زاجر، وهو لا يبالي بما يفعل، حتى أن عبد الرحمن بن شريك الكوفي كان كلما تذكّر فعل معاوية يقول: «والله هذا هو التهتك».. والإمام عليه السلام الذي لم يمر بمحنة مثل تلك المحنة حيث يشاهد مظهر المتهتك وهو يشمخ بأنفه عالياً بكل خيلاء واستخفاف بمن حضر يتألم لحال هذه الأمة ولهذا الاستهتار بقيمها ومبادئها، فيصعد عليه السلام المنبر ويُلقي خطاباً بليغاً مُسدداً، أقل ما فيه أنه يستحق أن يُكتب بماء الذهب[٢] وقد صدق الشاعر حين قال:

---

(١) أعيان الشيعة، ج٤ ص٢٦؛ بحار الأنوار، ج٤٤ ص٤٩، مرّ خطاب معاوية الفرعوني هذا، خطاب الإمرة والسلطان تحت عنوان (الصلح يفضح سريرة معاوية).

(٢) هل استطعنا نحن اليوم وقد أخذتنا الآلة الحديثة والكمبيوتر والإنترنت=

لـقـد أسـمـعـت لـو نـاديـت حـيـاً
ولـكـن لا حـيـاة لـمـن تـنـادي
ونـاراً لـو نـفـخـت بـهـا أضـاءت
ولـكـن أنـت تـنـفـخ فـي رمـاد[١]

* خطاب تاريخي.. لمجتمع جاهلي!

اضطر الإمام الحسن عليه السلام في خطابه للدفاع عن النفس وتعريف نفسه ومكانته وقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث جاء في خطابه عليه السلام: «أيها الناس أن أكيس الكيّس التقى، وأحمق الحمقى الفجور، والله لو طلبتم ما بين جابلق وجابرس[٢]، رجلاً جده رسول الله صلى الله عليه وآله ما وجدتموه غيري وغير أخي الحسين، وقد علمتم أن الله هداكم بجدي محمد صلى الله عليه وآله فأنقذكم به من الضلالة، ورفعكم به من الجهالة، وأعزكم به بعد الذلة، وكثّركم به بعد القلة، إن معاوية نازعني حقاً هو لي دونه، فنظرت لصلاح الأمة، وقطع الفتنة، وقد كنتم بايعتموني على أن تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت، فرأيت أن أسالم معاوية وأضع الحرب بيني وبينه، وقد بايعته، وقد رأيت أن حقن الدماء خير من سفكها، ولم أرد بذلك إلا صلاحكم وبقاءكم، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين»[٣].

=والفضائيات، أن نقرأ خطابه عليه السلام هذا فضلاً عن التدبّر في معانيه العميقة، والتي تدلل على عمق الفجوة بين الإمام الحسن عليه السلام وأتباع يحسبون أنفسهم عليه وعلى أبيه وجده!.

(١) الشاعر عمرو بن معدي كرب بن ربيعة الزبيدي.

(٢) جابلق: مدينة بأقصى المغرب ـ وجابرس: مدينة بأقصى المشرق.

(٣) كشف الغمة، ص١٧٠؛ البحار، ج١ ص١١٤ الطبعة القديمة.

كان الإمام يبين مقامه لا عن فخر وتفاخر، إنما من أجل توعية أصحاب القلوب المريضة والنفوس الخبيثة، وهو عليه السلام يعلم أنهم يعرفون ارتباطه بالرسول، وأنه صالح حقناً للدماء وليس حفظاً لنفسه، وعلى أي حال بيَّن لهم أن الصلح فتنة وامتحان لهم، ثم بدأ يبين مدى مظلومية أهل البيت فقال عليه السلام: «وإن معاوية زعم لكم أني رأيته للخلافة أهلاً ولم أرَ نفسي لها أهلاً، فكذب معاوية. نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله عزَّ وجلّ وعلى لسان نبيه...».

إلى أن قال: «وأقسم بالله لو أن الناس بايعوا أبي حين فارقهم رسول الله لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولما طمعت فيها يا معاوية، فلما خرجت من معدنها تنازعتها قريش بينها، فطمع فيها الطلقاء[1] وأبناء الطلقاء، أنت وأصحابك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما ولّت أمّة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه إلا لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا.. وتركت هذه الأمة أبي وبايعوا غيره، وقد سمعوا رسول الله يقول له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة، وقد رأوا رسول الله نصّب أبي يوم غدير خم، وأمرهم أن يبلغ أمره الشاهدُ الغائبَ، وهرب رسول الله من قومه وهو يدعوهم إلى الله حتى دخل الغار، ولو أنه وجد أعواناً لما هرب... وجعل الله النبي في سعة حين دخل الغار ولم يجد أعواناً، وكذلك أبي وأنا في سعة من الله حين خذلتنا هذه الأمة، وإنما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً»[2].

---

(١) تقدم معنى الطلقاء، وهم الذين أطلقهم الرسول صلى الله عليه وآله في مكة حين دخلها فاتحاً.

(٢) البحار، ج١٠ ص١١٤.

هنا يتحدث الإمام عن السنن والقوانين الجارية، والتي يتحمّل مسؤوليتها المقصِّر والجاهل بحق النبي وآله، فالتخلّف عن أئمة الهدى هو الذي يضع الناس وجهاً لوجه أمام شخصية الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي، فالرسول ﷺ هرب بدينه إلى الغار لأنه لم يجد الأعوان، والإمام علي عليه السلام سالم لقلّة الناصر والمعين فترتب على ذلك المصلحة في القعود في بيته.

والإمام الحسن هو في سعة من الله كأبيه عليهما السلام حين خذلتهما الأمة، والإمام الحسين عليه السلام ثار بالعدد الذي لم يتجاوز الثمانين، لكن هل توفّر لدى الحسن مثل هذا العدد الذي توفّر لأخيه الحسين عليه السلام الذي شكّل كل فرد منه ما يشبه القنبلة البشرية؟

وهل توفّر لأمير المؤمنين مثل الذي توفّر لولده الحسين عليه السلام؟ ولماذا غيّب الله حفيد الرسول الإمام محمد بن الحسن العسكري؟ ألم تكن غيبة الإمام المهدي سر إلهي، فمن جملة أسرارها أن الله سبحانه لا يأمن على حياة البقية الباقية لأهل البيت عليهم السلام؟

ألا تعني الغيبة الصغرى والكبرى لمولانا القائم المهدي (عج) أن الأمة لم تصل بعد إلى مستوى ظهوره، لأنها خانت، وغدرت، وقتلت أئمتها عليهم السلام حتى ذهبوا إلى الله ما بين مقتول بالسيف ومسموم بالسُّم، فعندما يُحمّل الحسن مسؤولية الصلح فهذا بدوره ظلم يُضاف إلى قائمة المظالم التي طاولته عليه السلام.

لقد أراد عليه السلام في خطابه أن يقول للحاضر والغائب.. لكل الناس.. للأمة المزايدة: أن أهل البيت لا تنقصهم شجاعة القتال، ولا بطولة وإقدام الرجال، ولا تنقصهم الخبرة في شؤون المجتمع

والحرب، ولا المعنويات، فهم طافحون بها، الذي يفتقرون إليه. وعليه تترتب أمورٌ كثيرة، هو توفر المضحّين الثائرين الذي يُشكّل وجودهم معادلة في وجوب الحرب أو الصلح.. ثم يكمل عليه السلام خطابه ببعض الكلمات المعبّرة فيقول: «فوالذي بعث محمداً بالحق لا ينقص من حقنا ـ أهل البيت ـ أحدٌ إلا نقصه الله من عمله، ولا تكون علينا دولة إلاّ وتكون لنا العاقبة ولتعلمنَّ نبأه بعد حين»[1] وهو بذلك عليه السلام يخبر عن المستقبل المشرق للإسلام المحمدي الأصيل ولأهله الذي يتحملون الصعاب ويبذلون الغالي والنفيس وذلك من أجل إعلاء كلمة الله، فهم وإن ضعفوا في أيام المحن، وحاولت العواصف اقتلاعهم، لكنهم بثباتهم يبقون ويتحدون كل الأعاصير من أجل رضا الله، فهم وإن صالحوا فذلك من أجل الدين وإن ثاروا فكذلك، فالمستقبل بهذه الروحية للمؤمنين، والعاقبة لهم، وأول نافذة للمستقبل هي كربلاء بتجلياتها المشرقة التي تنطق باسم الوحي والسماء. ثم يلتفت عليه السلام إلى معاوية فيردّ عليه سبه لأبيه عليه السلام فقال: «أيها الذاكر علياً أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وأمي فاطمة، وأمك هند، وجدي رسول الله، وجدك عتبة بن ربيعة، وجدتي خديجة، وجدتك فُتيّلة، فلعن الله أخملنا ذكراً، وألأمنا حسباً وشرفاً، قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً!! وارتفعت الأصوات من جميع جنبات الحفل بقول (آمين آمين)[2]».

وهنا لا أطلب من الباحث أو القارئ، إلا أن يتأمّل ويتبصّر!

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) شرح ابن أبي الحديد، ج٤ ص١٦.

فهل يجد المتأمّل ضعفاً في هذا الخطاب أو مداهنة؟ إن الضعف كله يتجسّد في مجتمع الإمام عليه السلام وناسه. المجتمع الذي يخذل الأبطال والرجال مهما كانوا أقوياء. فلو كان الأسد يرأس مجموعة كبيرة من الثعالب والذئاب فلن يستطيع القيام بمهامه كما عادته وديدنه! وقلّة الأسود معه لن يحسم معركته. وهذا أبسط مثال وعلى اللبيب أن يعي ما نريد قوله.

* سنن التاريخ

تأسيساً على ما ورد في خطاب الإمام الحسن عليه السلام والذي قال فيه «وأقسم بالله لو أن الناس بايعوا أبي حين فارقهم رسول الله لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولما طمِعْتَ فيها يا معاوية»، إلى أن قال سلام الله عليه: «وإنما هي السنن والأمثال يتبع بعضها بعضاً»[1]. أمام هذه الكلمات والتي تصلح جواباً لكثير من الأسئلة، وردوداً على الكثير من الشبهات، وهي باختصار قوانين وضعها الله لتكون في خدمة الإنسان، إذا ما أحسن التعامل معها بموضوعية. وقد تقدّم معنا في سياق الفصول حيث طرحنا جواباً على هذه الإشكالية والتي مفادها، لماذا انتصر غدر معاوية؟ ولماذا كانت دفّة الأمور وزمامها بيد الطاغية ابن أبي سفيان؟ وأين تكمن نصرة الله للمؤمنين إذا قاموا بما عليهم من واجبات، ذلك أن السنن الإلهية الجارية مفادها كما يقول عزّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) البحار، ج١٠ ص١١٤، تقدم ذكر الحديث تحت عنوان: الخطاب تاريخي والمجتمع جاهلي. وقد تحدّثنا عن سنن التاريخ باختصار شديد.

ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]. فالنصر الإلهي قريب التحقق لكنه مشروط دوماً بجهاد المؤمنين. وإلا فما هي فلسفة البلاء والابتلاء؟ وما هو السر في امتحان الله لعباده؟

فهو تبارك وتعالى لا يريد لهم الاستسلام لمشيئة الطواغيت. لأنهم إن فعلوا ذلك فلن ينصرهم، ولو نصرهم وهم لا يحرّكون ساكناً، فلن يكونوا بمستوى الحفاظ على النصر الإلهي إن جاءهم على طبق من فضة أو ذهب. وقد قال الشاعر:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا[2]

فالاختبار الإلهي للبشر هو بمثابة من يدّعي أمامك أنه سبّاح ماهر وأنه يقطع سباحة الأشواط الطويلة في مدة زمنية قصيرة، فتقول له: دعني أرى مزاعمك، وقد تلقيه في البحر لتختبر ادّعاءاته، أو بمثابة من يزعم أنه من أهل السير والسلوك في العالم الأخلاقي، فتنتظر حتى تجرّبه في لحظة غضب أو نكبة أو سفر أو ما شابه، وإلاّ فما أكثر المزاعم والادّعاءات الفارغة! وعلى ضوء ذلك نستطيع التعرّف على السنن الإلهية التي هي قوانين السماء التي تقول: لو ان تفاحة سقطت من على الشجرة فإنها تسقط على الأرض ولا تصعد إلى السماء، ولو أن شخصاً ألقى بنفسه من على شاهق فإنه سيموت حتماً، ولو أن طاغوتاً وجبّاراً مارس كل أنواع عدوانه، ولم يوقفه أحد عند حدّه وإجرامه، فإنه سيتجاوز حقوق الناس وحدودهم

---

(١) محمد: ٧.

(٢) الشاعر العباسي حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام.

وسيتطاول على حرماتهم ومقدساتهم، وبالمقابل لو أن الناس لم يسمعوا كلام الله ورسوله أو أحداً من أهل بيته ﷺ بل تعاملوا معها بإعراض، فإنه تبارك وتعالى لن يتدخّل لخرق السنن والنواميس إلاّ باستثناءات محددة، وهي حين لا يكون للمؤمنين فيها حيلة أو وسيلة، ساعتئذ تتدخل السماء لنجدة أهل الإيمان كما حصل مع نبي الله إبراهيم عليه السلام حينما أُلقي في النار فصيّرها الله برداً وسلاماً على إبراهيم. فلولا السنن القائمة لانحرف الإنسان عن مساره، ظناً منه أن الفوضى هي الحاكمة، ولولا تلك الضوابط المقرّرة، لما قام أهل الدنيا بواجباتهم اعتماداً منهم على أنّ الله لن يرضى للظالم أن يسود إجرامه وينتشر ظلمه، وليس هذا محصوراً في عالم مجابهة الطواغيت، بل له علاقة حتى بجوع الناس وفقرهم وغناهم، وإلى هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾[1] ويقول عزّ من قائل: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾[2]. ويقول أيضاً في موضع آخر من كتابه العزيز الحميد: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[3].

وهذا ليس بالضرورة عقاباً إلهياً، بقدر ما هو سنّة واضحة الدلالة والآثار، فعدم الإيمان هو مقدّمة للظلم الفردي

(١) الجن: ١٦.
(٢) المائدة: ٦٦.
(٣) الأعراف: ٩٦.

والاجتماعي، والظلم يؤدي إلى خلق مجتمعات متناحرة متباغضة تسودها الأنانيات والعصبيات التي تؤدي بدورها إلى تمزيق قدرات المجتمع وتشتيت طاقاته الهادرة، وبهذا لا يستطيع الإنسان أن يسيطر على موارد الطبيعة طالما أنه غير موحّد ومتكامل، وبالمقابل فإن المجتمع الذي تسوده القيم الإلهية والذي يستجمع كل طاقاته وقدراته لتكون في خدمة الإنسان، هو إنسان يسير ضمن برنامج متكامل يؤدي به إلى سعادة الدارين، وهكذا الأمر على مستوى السنن الاجتماعية، فقد تجد الظالم مسيطراً وحاكماً وممسكاً بمفاصل المجتمع لفترة معيّنة تطول أو تقصر. لكنّه في نهاية المطاف يزول وتتلاشى معالم إمارته بسبب تراكم الظلم الذي يخلّفه في مجتمعه حتى يصير كالسيل الجارف يأخذ كل ما يعترض طريقه، حتى الظالم نفسه، لأن العدوان على الناس وظلمهم سيخلق غضباً وحنقاً في نفوس المظلومين، وهذا بدوره يخلق فيهم ثورة لا تهدأ، وهذه هي سنن التاريخ والمجتمعات. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[1]، ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[2]. ويعلّق الفيلسوف الشهيد السيد محمد باقر الصدر على بعض الآيات المتعلقة بالسنن بقوله: «لقد كشف القرآن عن وجود السنن الاجتماعية وعرض العديد منها، لأنه يؤمن بأن على الإنسان أن يعرف هذه القوانين من أجل أن يكون فاعلاً ومؤثراً

---

(١) آل عمران: ١٣٧.

(٢) الحج: ٤٥.

وممسكاً بزمام الأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية»[١]. فمعرفة السنن ضرورية، وعلى ضوء معرفتها يمكن لنا استكشاف المزيد منها وفك رموزها، فكما أن الاستقامة على الطريقة تعطي نتائج إيجابية جيدة على مستوى الوضع الاقتصادي، وكما أن الأمم والمجتمعات لها آجالها كما يقول الله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٢]. وكما أن العقاب الدنيوي لا يستثني أشخاصاً بل يشمل الجميع. يقول تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٣]، وكما أن أساس التغيير الاجتماعي يبدأ من تغيير النفوس والمضمون الداخلي لها، كما يقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٤]، يقول الشهيد السيد محمد باقر الصدر (السنن الاجتماعية والتاريخية ذات طابع علمي لأنها تتميز بالاطّراد، وذات طابع رباني لأنها تعبير عن حكمة الله وحسن تدبيره للساحة التاريخية والاجتماعية، وذات طابع إنساني لأنها لا تفصل الإنسان عن دوره الاجتماعي ولا تعطل فيها إرادته وحريّته واختياره، وإنما تؤكد أكثر فأكثر مسؤوليته على الساحة التاريخية والاجتماعية)[٥].

على ضوء ذلك يمكننا فهم ما أراده الإمام المجتبى عليه السلام في خطابه، والذي حمّل فيه مسؤولية التقصير للأمة التي لا تكون

---

(١) التفسير الموضوعي للشهيد السيد محمد باقر الصدر، المحاضرة الرابعة.

(٢) يونس: ٤٩.

(٣) الأنفال: ٢٥.

(٤) الرعد: ١١.

(٥) التفسير الموضوعي للسيد محمد باقر الصدر، المحاضرة الخامسة.

بمستوى النصر والعزة، فالأمة هذه في منظار إمامنا الحسن عليه السلام لو أنها بايعت وعملت من وحي بيعها للرسول صلى الله عليه وآله لأعطتهم السماءُ قَطْرَها والأرضُ بركتها ولما طمع فيها معاوية. إلاّ أنها السنن الجارية والقوانين الاجتماعية التي هي نتاج وثمار عمل البشر، فالقوانين هذه هي التي حتّمت على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الهروب بدينه لأنه لم يجد الأعوان، وهي التي حتّمت على أمير المؤمنين عليه السلام أن يسالم لقلّة الناصر، وهي التي تطلبت من الإمام الحسن عليه السلام الموافقة على الصلح أو الهدنة لقلّة الناصر أو عدمه وكثرة المتخاذلين المستسلمين المهزومين، وقد نقل الإمام عليه السلام في ذلك الخطاب التاريخي في رواية عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وهي من جملة القوانين والسنن التي لا ينبغي المرور عليها مرور الكرام فقال عليه السلام: «وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما ولّت أمة أمرها رجلاً وفيهم من هو أعلم منه إلاّ لم يزل أمرهم يذهب سفالاً حتى يرجعوا إلى ما تركوا»[1].

ومفاد حديث رسول الله صلى الله عليه وآله أن أي أمة حينما تولّي أمرها إلى رجل ليس الأعلم فيها بمعرفة الشريعة والدين، بل في ظلّ من هو أعلم منه وأتقى وأورع، فأمر هذه الأمة يتسافل تدريجياً كلّما تسافل اختيارها وهكذا تتراجع القهقهرى، إلاّ أن ترجع إلى وضعها السليم فلا تسحقها السنن والقوانين الإلهية، فالاختيار الحسن والصائب الذي هو خيار وإرادة الله للولي إنما يعبّر عن مدى وعي الأمة وبصيرتها ورشدها، أما الاختيار السيئ فهو نتاج تخبط المجتمع.

---

(١) البحار، ج١٠ ص١١٤، تقدّم ذكر الحديث والمصدر.

فتكامل الأمة وسيرها نحو الأهداف النبيلة والمثل العليا يتوقّف على الطابع الإلهي وحسن تدبيره عزّ وجلّ، والطابع الإنساني الذي لا يفصل الإنسان عن دوره الاجتماعي ولا يقتل فيه الإرادة والحرية والاختيار كما ذكر السيد الشهيد الصدر ﷺ، بل أنها تؤكد مسؤولية الإنسان على الساحة التاريخية والاجتماعية أكثر فأكثر.

إن أكثر ما يحزّ في النفس هو ما يُساق من عناوين وأمثلة تُلقي المسؤولية عن كاهل الإنسان حينما يتهرّب الكثيرون من تحمّل مسؤولياتهم فيقولون: اتركوها ربّانية، وقد غفل هؤلاء وتغافلوا أن الله ربّنا ترك للإنسان فيها دوراً هاماً، وكأنه يقول له: إني جعلتها بشرية وأنا من خلفك، وإن لك شغلك ومهامك وعملك. وعليك مسؤوليات لا بد من تأديتها، فالتخلّف عن تحمّلها يغيّر الكثير من الآثار والنتائج، والغفلة عن القيام بالأدوار الحقيقية يُؤخر تقدم المجتمعات إلى عقودٍ أو قرون..، وكلّما كان التخلّف شديداً وموغلاً في أعماق الفكر للشعوب كلما كانت الشعوب متراجعة ولا يُرجى منها خير، أما إذا تقدّمت الأمم في وعيها وبصيرتها، في إطاعتها وطاعتها لرسل السماء، فإنها تسير قدماً إلى الأمام، وستصل إلى شاطئ الأمان بأقرب فرصة ممكنة، أما لو ضيّعت الفرص ـ لا سمح الله ـ وغابت عن لعب دورها المطلوب وعاشت على هامش الحياة، فإنها ستتحمل وبدون أدنى شك مسؤولية التخلف. وقد التقط هذا المعنى تولستوي حينما تحدّث عن ذلك وعلى طريقته فقال: «إننا كالأطفال نفكّ أجزاء الساعة ونجعل منها ألعوبة، ثم نُدهش بعد هذا إذا أصبحت الساعة لا تدور»، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ

﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]. ومن هذا المنطلق فالمسؤول الحقيقي عند عدم قيام الإمام الحسن عليه السلام بالثورة على معاوية، هو وضع الناس وغيابهم وتخاذلهم، تماماً كمسؤولية الناس عن عدم نزول المطر مع أنه بأمر الله. فللإنسان مدخلية كبرى لا نستطيع تغييبه عمّا يتحمّل من مسؤوليات وأعباء، فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «ما من سنة اقل مطراً من سنة، ولكنّ الله يضعه حيث يشاء، إنّ الله عزّ وجلّ إذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدّر لهم من المطر»[2]. وعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «ما اختلج عرق، ولا عثرت قدم إلاّ بما قدّمت أيديكم، وما يعفو الله عنه أكثر»[3].

هذا قانون الطبيعة وتلك مجريات الأحداث التي غيّبت رجالها الكبار حين أُذعِن لقدر المهزومين، بينما كان الحضور بقوة للشخصيات الهزيلة التي استخدمت الوسائل المحرمة تنتهك بها المحرمات والحرمات. وعلى أي حال فإذا ما ساد معاوية بظلمه فذلك لأنّ الناس أيّدته وناصرته، وهذا بدوره كان له تردّداته على مستوى عدم نصرة ريحانة المصطفى صلى الله عليه وآله، والحديث عن السنن التاريخية والاجتماعية لا ينتهي، تاركين للقارئ الكريم أن يلتقط المزيد من الإشارات والرموز، التي تشكّل بدورها ليس جواباً على عمل رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام، بل تشكّل الأجوبة

---

(١) الروم: ٤١.
(٢) ميزان الحكمة، ج٦ ص٤٦٧.
(٣) ميزان الحكمة، ج٣ ص٤٦٦.

الكافية والشافية لمعرفة السنن الإلهية التي يجازي الله بها عباده بناءً على تصرّفاتهم وأفعالهم، وحسناتهم وذنوبهم. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[1].

ولنختم الحديث هنا في سنّة من تلك السنن الإلهية، والتي لها دخالتها في القضايا الجهادية. ألا وهي سنّة دفع الله المؤمنين بعضهم ببعض، فلولا هذا القانون لهدمت الصوامع والبِيَع والصلوات والمساجد، قال الله في كتابه العزيز الحكيم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ[2] وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[3]. فالله عزّ وجلّ يدفع الناس للدفاع عن بيوت الله وحرماته، ويطلب منهم أن يكونوا أعزّة بهذا الدين، وحين يتخاذلون عن النّصرة فإنهم سيُحرمون من نصر الله، لأنه تعالى أجلّ وأكرم من أن ينصر مَن ليس له أدنى استعداد للجهاد ودفع ضريبة للجهاد.

* عزّ المؤمنين.. لا ذلّهم

لا أدري لماذا يحضرني دائماً كلما أردت الحديث عن أسباب الصلح وأهميته، وعن الخلفية التي جعلت الإمام يقدم على الصلح،

---

(١) الأنعام: ٦.

(٢) الصوامع: هي معابد رهبان النصارى، والبيع: هي معابد عامة للنصارى وهي عبارة عن كنائسهم، أما الصلوات فهي معابد اليهود.

(٣) الحج: ٤٠.

دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة: «أَيكونُ لغيركَ منَ الظُهورِ ما ليسَ لكَ حتى يكونَ هو المظهِرَ لكَ متى غِبتَ حتى تحتاجَ إلى دليلٍ يدلُّ عليك»[١] لأن من يريد الاستدلال على وجود الله ليس أوضح وأظهر من وجوده سبحانه، فهل يعقل أن يدل الإنسان على الله؟ وأي متى كان الإنسان أظهر من الله الظاهر والباطن؟ فأي متى غبت يا رب حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ وهل لغيرك من الظهور ما ليس لك؟ وهكذا إذا كان الحديث مع الإمام أبي محمد عليه السلام فهل يحتاج هو منّا أن ندافع عنه، ونفلسف صلحه عليه السلام؟

وهل نملك طهوراً لا يتوفر بأحد مصاديق قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾حتى نبرّئ ساحة الإمام الحسن من تهمة التخاذل التي يحاول الجاهلون إلصاقها به عليه السلام، وكأننا الأطهر والأقدس وهو المُدان المتهم؟ فهو سلام الله عليه قد سمع المزيد من الاتهامات، وجُعل في قفص الاتهام فدافع عن نفسه مُبرراً عمله، وقد آذاه واتّهمه الكثيرون ممّن كانوا يحسبون أنفسهم عليه عليه السلام. فقد دخل عليه مالك بن ضمرة الضمري وتكلم معه بلغة شديدة وقاسية فأجابه عليه السلام: «إني خشيت أن يُجتثّ المسلمون عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين ناعٍ»[٢].

وأخبره عليه السلام لو أنه خاض الحرب مع معاوية في الظروف المعروفة لما بقي مسلم على وجه الأرض[٣]، وهو سلام الله عليه

---

(١) مفاتيح الجنان، ص٣٣٩، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

(٢) البحار، وفي كتاب حياة الإمام الحسن، باقر شريف القرشي، ج٢ ص٢٦٩.

(٣) عن جنان بن سدير عن أبيه سدير عن ابي سعيد قال: لما صالح الحسن بن علي بن=

افتتح بصلحه عهد الجهاد المدّخر إلى وقته، وأعطى المؤمنين بيارق عزّتهم، وجعل مجدهم قطوفاً دانية لهم، حينما تحوّل صلحه عليه السلام إلى عنقود، بل إلى عناقيد من العزّة والكرامة والعزّ والشموخ.

ودخل عليه سفيان ابن أبي ليلى الذي كان يؤمن بفكرة الخوارج، وتكلم بلغة غير مؤدبة تنمّ عن نفسية حاقدة قائلاً: «السلام عليك يا مذلّ المؤمنين» فأجابه عليه السلام: «ويحك أيها الخارجي، لا تعنفني فإن الذي أحوجني إلى ما فعلت قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي، وإنكم لمّا سرتم إلى صفين كان دينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ويحك أيها الخارجي!! إني رأيت أهل الكوفة قوماً لا يوثق بهم، وما اعتزّ بهم إلا من ذل وليس أحد منهم يوافق رأي الآخر»[(١)].

وفي رواية أخرى ذكرها سفيان ابن أبي ليلى نفسه، وهي مختلفة بالسياق والأسلوب في الحوار بينه وبين الإمام عليه السلام فقال: أتيت الحسن بن علي حين بايع معاوية فوجدته بفناء داره وعنده رهط. فقلت: السلام عليك يا مذلّ المؤمنين. قال: وعليك السلام يا سفيان. ونزلت فعقلت راحلتي ثم أتيته فجلست إليه، فقال عليه السلام: كيف قلت يا سفيان. قلت: السلام عليك يا مذلّ المؤمنين. فقال: لِمَ

=أبي طالب معاوية بن أبي سفيان، دخل عليه الناس فلامه بعضهم على بيعته فقال عليه السلام: «ويحكم ما تدرون ما عملت، والله للذي عملت خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت، ألا تعلمون أني مفترض الطاعة عليكم، وأحد سيديّ شباب أهل الجنة بنص من رسول الله عليّ؟» كتاب الاحتجاج، للعلامة الطبرسي، ج٢، ص٢٩٠.

(١) تذكرة الخواص، ص٢٠٧. ورواه ابن أبي الحديد في شرح النهج.

جرى هذا منك إلينا؟ قلت: أنت والله بأبي وأمي أذللت رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيعة وسلمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ومعك مائة ألف كلهم يموت دونك (أنا لا أدري أين كان المائة ألف في وقت حاجته إليهم؟ إلا أنها المزايدات وللأسف الشديد) ويكمل سفيان، فقد جمع الله عليك أمر الناس. فقال الإمام عليه السلام: يا سفيان إنّا أهل بيت إذا علمنا الحق تمسكنا به وإني سمعت علياً يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا تذهب الليالي والأيام حتى يجتمع أمر هذه الأمة على رجلٍ واسع السرة ضخم البلعوم يأكل ولا يشبع لا ينظر الله إليه ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر ولا في الأرض ناصر وأنه لمعاوية وإني عرفت أن الله بالغ أمره. ثم أذّن المؤذن وقمنا على حالبٍ يحلب ناقة فتناول الإناء فشرب قائماً ثم سقاني وخرجنا نمشي إلى المسجد فقال لي: ما جاء بك يا سفيان؟ قلت: حبكم والذي بعث محمد بالهدى ودين الحق. قال: فأبشر يا سفيان، فإني سمعت علياً يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يرد عليّ الحوض أهل بيتي ومن أحبهم من أمتي كهاتين يعني السبابتين أو كهاتين يعني السبابة والوسطى إحداهما تفضل على الأخرى أبشر يا سفيان فإن الدنيا تسع البر والفاجر حتى يبعث الله إمام الحق من آل محمد صلى الله عليه وآله ـ إلى آخر الحديث[1].

«ودخل ابن الفضل سفين بن الليل على الإمام الحسن عليه السلام وقال له: السلام عليك يا مذلّ المؤمنين! فقال له الإمام: لست بمذلّ المؤمنين، ولكني كرهت أن أقتلكم على الملك»[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مجلد ٤، ص١٦، دار الهدى الوطنية ـ بيروت.

(٢) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ج١٢ ص٥٤٤.

«وفي جواب آخر للإمام عليه السلام حين أتاه المسيب بن نجبة معترضاً متعجباً فقال له الإمام عليه السلام: يا مُسيب، إني لو أردت ـ بما فعلت ـ الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء، ولا أثبت عند الحرب مني، ولكني أردت صلاحكم»[١].

ودخل بشير الهمداني على الإمام وهو في المدينة. فقال له: «السلام عليك يا مذل المؤمنين» فأجابه عليه السلام وعليك السلام، اجلس، فلمّا استقر به المجلس خاطبه الإمام بقوله: «لست مذلاً للمؤمنين، ولكني معزّهم، ما أردت بمصالحتي إلاّ أن أدفع عنكم القتل، عندما رأيت تباطؤ أصحابي ونكولهم عن القتال»[٢].

وفي جوابٍ على أبي سعيد الذي عاتبه على صلحه فقال: «... إذا كنت إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يُسفه رأيي فيما أتيته من مهادنة أو محاربة، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبساً، ألا ترى الخضر لمّا خرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، سخط موسى فعله لاشتباه الحكمة عليه، حتى أخبره فرضي، هكذا أنا سخطتم عليّ بجهلكم وجه الحكمة، ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلاّ قُتل...»[٣].

ونكتفي بهذه الإشارات التي دلّت على أن الإمام كان يعيش في ظروف قاسية وكان عليه دائماً أن يُبرّر للقاصي والداني، فالإمام في كل قيامه وقعوده، لم يسعَ ولو للحظة أن يُذل المؤمنين، فهو بحق

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ج٢ ص٢٢٥.

(٢) الدينوري، ص٢٠٣.

(٣) علل الشرائع، للشيخ الصدوق.

معزهم وناصرهم ومخلّصهم، ولقد اختصر الإمام الباقر عليه السلام المسافات والكلمات حينما عبّر عن أهمية الصلح بقوله عليه السلام: «والله للذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس»[1]. ويحضرني هنا قول الشاعر أبو القاسم الآمدي الذي يحاكي جهل الناس وهم يجهلون جهلهم:

إذا كنت تدري ولم تكُ بالذي
يسائل مَن يدري فكيف إذن تدري
جهلتَ ولم تعلم بأنك جاهل
فمن لي بأن تدري بأنك لا تدري
ومن أعجب الأشياء أنك لا تدري
وأنك لا تدري بأنك لا تدري

* تناقض أم تكامل؟!

قد يشعر الباحث أو يتوهم أن في سيرة الإمام أو في كلماته ما يبدو وللوهلة الأولى أنّ فيه بعضاً من التناقض، فهو عليه السلام وقبل توقيع الصلح المندفع للقتال والمشتاق إلى حرب معاوية، والمتمني أن يستأصل معاوية من الوجود لما يُمثل من خطر على الإسلام والمسلمين، وهو من كتب إلى معاوية «كأنك تحب اللقاء وما أوشك ذلك فتوقعه إن شاء الله»[2].

---

(١) روضة الكافي، ج٤ ص٣٣٠، وفي رواية أن الإمام الحسن عليه السلام يقول: «ما تدرون ما فعلت والله للذي فعلت خير لشيعتي مما طلعت عليه الشمس».

(٢) الإرشاد، ص١٨٨.

فحينما يعرض معاوية عليه الصلح يخاطب أصحابه والألم يعتصر قلبه بقوله: «ألا إن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة...»[١] وهو عليه السلام وبعد توقيع عقد الصلح يخبر الناس أهمية ما فعله وأنهم سخطوا عليه بجهلهم وجه الحكمة فيقول عليه السلام: «ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قُتل»[٢]، ويقول عليه السلام: «ما أردت بمصالحة معاوية إلا أن أدفع عنكم القتل عندما رأيت من تباطؤ أصحابي عن الحرب ونكولهم عن القتال، ووالله لإن سرنا إليه بالجبال والشجر ما كان بد من إفضاء هذا الأمر إليه»[٣].

والجواب باختصار: إن الصلح لم يكن وارداً ومطروحاً من قبل إمامنا الحسن عليه السلام، ولم يسعَ ولو بخطوة واحدة إليه، لأنه كان يعلم أن معاوية لا تصلح معه إلا لغة واحدة وهي لغة السيف والقتال وزواله من الوجود بما يُمثل من مرض سرطاني لا يُرجى إصلاحه، ولأن الظروف كلها لم تكن لصالح المعركة، وللأسباب الكثيرة التي ذكرنا نذراً يسيراً منها، والتي حتّمت على الإمام وألزمته أن يلجأ إلى الصلح لتدارك ما يمكن إدراكه. أمّا وقد وقع الصلح ووقع ما لا بد منه اضطراراً فيكون الصلح هو المنقذ لكل ما تبقى ومن تبقّى، ويكون هو الحل الأمثل بعد أن استنفذت كل الحلول؛ ما جعل الإمام يوضح حقيقته والحكمة من ورائه التي خفيت على الأعم

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج٣، ص٢٠٤، ورواه الطبري وابن خلدون.
(٢) تقدم المصدر في الصفحة السابقة.
(٣) الأخبار الطويلة، ص٢٢١.

الأغلب من الناس، حتى على بعض أصحابه، وهو الذي كان يرد عليهم اتهامهم عليه السلام «إنك قد أذللت رقابنا».

فيقول عليه السلام: «والله، إني ما سلمت الأمر إلا لأني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه، ولكن عرفت أهل الكوفة وبلوتهم، ولا يصلح لي منهم من كان فاسداً، إنهم لا وفاء لهم ولا ذمّة في قول، ولا فعل، إنهم لمختلفون ويقولون لنا: إن قلوبهم معنا، وإن سيوفهم لمشهورة علينا»[1][2].

وواضح من كل ما تقدّم أن الإمام لم يكن في وارد الصلح وأن شخصيته غير مائلة للدّعة كما يرغب أصحاب الأقلام المسمومة والموجَّهة أن يدّعوا، فهو لم يرغب بشيء مثل رغبته بأداء تكليفه الشرعي، وقد كان التكليف بالصلح من أصعب التكاليف لدى إمامنا عليه السلام، وهو ابن من قاتل قتال الأبطال وابن من سالم سلام الرجال، وقيمة الشجاعة والبطولة تكمن في أداء والتزام التكاليف التي هي غير محببة للنفس البشرية، من هنا كنت عظمة الإمام

---

(١) الاحتجاج، للطبرسي، ص١٤٩ (ط. بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٢٩١.

(٢) حدّث الرجل في تلك الرواية التي رواها عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد، أن الإمام حينما كان يكلّمه بهذه الكلمات قال: وهو يكلمني إذ تنخع الدم، فدعا بطست فحمل من بين يديه مليء مما خرج من جوفه من الدم. فقلت له: ما هذا يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله! إنّي لأراك وجعاً؟ قال: أجل دسّ إليّ هذه الطاغية من سقاني سماً فقد وقع على كبدي وهو يخرج قطعاً كما ترى..»، المصدر نفسه من كتاب الاحتجاج.

الحسن عليه السلام ومظلوميته ومقامه بين المزايدين، وتحمّله كل العبارات النابية وغير المؤدبة في حضرته عليه السلام. إن عظمة سبط المصطفى تكمن في شخصيته الإلهية ووجوده النوراني وتكليفه بأمرٍ غير محبب للجماهير، لكنه عليه السلام الفدائي بتقديم جسده وبذل روحه، والمضحي بكل ما يملك وتحمّله لإتهامات لا تمت بصلة إلى سمو مكانته، وهو يفعل ذلك وهاجس كبير يحكمه وهو التخطيط للثورة الحسينية، وعلى أي حالٍ فمن لا يقدِّر قيمة الجواهر، لا ينبغي أن يتصدّى لتقييم أو تقويم جوهرة نفيسة ودرّة يتيمة ليست من جواهر الجماد، لأنها من جواهر الرجال، ونعم الرجال.

* جولة في درر كلماته عليه السلام

بعد أن استعرضنا خطاب الإمام الحسن عليه السلام التاريخي والذي فضح فيه معاوية، ودحض حجج الواهمين بأن الصلح لم يكن فيه مصلحة للإسلام، وبعد استعراضنا لكلمات الإمام عليه السلام قبل الصلح وبعده، وقد خلصنا إلى نتيجة مؤداها، أنّ الإمام عليه السلام لم يكن في وارد الصلح، لكن التخاذل الذي مُني به من خلال مجتمعه وجنوده، هو الذي حتّم عليه عقد الهدنة. ونظراً لأهمية معرفة خلفية الإمام تلك التي دفعته للقبول بالصلح، فلا بدّ من جولة بسيطة في رحاب كلماته وبياناته، والتي كان يضطرّ فيها إلى الدفاع عن وجهة نظره، مقتصرين في النصوص على ما تقدّم معنا سواء في خطابه التاريخي بعد توقيعه للصلح أم في غيره من كلماته عليه السلام. وسنقتطع بعضاً منها اعتماداً منا على ذكرها في مطاوي العناوين السابقة، وإلى القارئ الكريم والمنصف قبساً من كلماته عليه السلام: «ما أردت بمصالحة

معاوية، إلاّ أن أدفع عنكم القتل»[١]. فالأساس في التزام الصلح. هو دفع القتل عن المسلمين، خصوصاً أن الحرب باتت غير متكافئة، مبرّراً إقدامه عليه السلام على هذه الخطوة بأن أصحابه لا يرغبون بالحرب (تباطؤ أصحابي عن الحرب) وواضح أن الهاجس الذي كان يحكم إمامنا ليس حفظ نفسه، بل حفظ المسلمين ومصلحتهم، وهو القائل عليه السلام: «حقن الدماء خير من سفكها»[٢] وقد بيّن الإمام المجتبى عليه السلام أن الأمر نفسه الذي دعا جدّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى دخول الغار هرباً بدينه، فالأسباب نفسها والدواعي ذاتها، هي التي حملته عليه السلام على القبول بالهدنة أو الصلح، وأظهر عليه السلام أن الذي أحوجه إلى ما فعل، هو أن الامة لا تقف الوقفة البطولية لتصل في رقيّها إلى مستوى القائد، وهي التي قتلت الإمام الحسين عليه السلام وقبله قتلت أمير المؤمنين عليه السلام في ظل صمت مطبق، وكأنّ صمت الجماهير كان بمثابة الإذن من قبلها للاستفراد بأمير المؤمنين عليه السلام وقتله على حين غرّة أو غفلة من أهلها، وهي ذاتها الأمة المسحوقة ومسلوبة الإرادة طعنت قائدها وإمامها ونهبت متاعه، في ظل إساءة أدب مارسه المجتمع الإسلامي مع رمز من رموزه، وهو القائل عليه السلام: «الذي أحوجني إلى ما فعلت قتلكم أبي، وطعنكم إيّاي، وانتهابكم متاعي»[٣] وليس معنى تلك المقالة الشريفة أن الإمام عليه السلام استسلم لفرديّته، وتعاطى بعقدة شخصية دفاعاً عن نفسه

---

(١) هذا النص سبق ذكره مع مصدره، الأخبار الطويلة، ص٢٢١.

(٢) كشف الغمة، ص١٧٠، تقدم النص في الخطاب تاريخي والمجتمع جاهلي.

(٣) تذكرة الخواص، ص٢٠٧، ورواه ابن أبي الحديد في شرح النهج.

ومتاعه وما شابه، وهو إذ يذكر تلك النماذج البشعة التي تعامل معه مجتمعه فيها كإشارات ودلالات. فالمكتوب يقُرأ من عنوانه كما يُقال، فمن يقتل خير الناس بعد رسول الله ﷺ، ويطعن سبط الحبيب المصطفى، وينهب متاعه، ويسحب البساط من تحت قدميه الشريفتين وهو في حالة الصلاة وو.. من يجرؤ على التعدّي ويصل في جرأته إلى تلك المستويات الوضيعة، فهذا حتماً لن يكون مناصراً للحق وذائداً عنه وبائعاً جمجمته لله، وإمامنا الحسن عليه السلام يريد لجهاده رجالاً، أين منهم الرجال، وأبطالاً تشهد لهم الساحات والرايات، وتعترف لهم الأحداث المفصلية بأنهم أصحاب مواقف رائدة، وليسوا أصحاب دنيا يتصاغرون أمام رغباتها، لأنهم إن فعلوا ذلك فلن يكونوا أبطالاً ورجالاً! ويوضح الإمام الحسن عليه السلام للناس سبب تخاذلهم وقد كانوا من قبل أصحاب بأس وشكيمة، فهو عليه السلام ينعش ذاكرتهم ويذكّرهم ببطولاتهم في صفين، بينما لا تُرى تلك البطولات في زمن الإمام عليه السلام والسرّ في ذلك. ما أوضحه عليه السلام بقوله: «وإنّكم لمّا سرتم إلى صفين، كان دينكم أمام دنياكم، وقد أصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم»[1]. فحين تتراءى الدنيا لطلابها لتصبح الهاجس الأكبر فإنها تضعِف إرادة أهلها وأبنائها، فالناس هم الناس الذين شهدت لهم صفين بأروع الانتصارات، لكن الذي تغيّر هو الأولوية، فهل هي للدين أم للدنيا؟ وعلى ضوء ذلك فالتفاصيل هي أكثر من أن تعدّ أو تحصى، فهؤلاء الناس الذين ينبهرون بالدنيا، لا يمكن على الإطلاق أن

---

(١) المصدر السابق، والحديث نفسه في تذكرة الخواص.

يكونوا في خدمة الدين، ولا يستطيع عاقل أن يعوِّل عليه أو يعلِّق الآمال أو يثق بهم. وهو القائل عليه السلام: «إني رأيت أهل الكوفة قوماً لا يوثق بهم»[١] وواضح أن الإمام عليه السلام لم يكن يتعاطى مع مجتمعه، وكأن آتٍ للتوّ من كوكب آخر، فهو الخبير بنفسياتهم وأمراضهم المعنوية، وقد وصف الإمام عليه السلام الصلح بأنّه «خير مما طلعت عليه الشمس»[٢] وأوضح في عدد من المحافل أنه معزّ المؤمنين: «لست مذلاً للمؤمنين ولكني معزّهم»[٣] وقال في موضع آخر عليه السلام: «لست بمذل للمؤمنين، ولكني كرهت أن أقتلكم على الملك»[٤] فالصلح هو من منظار الإمام عليه السلام خير مما أشرقت عليه الشمس أو طلعت، فهي تشرق على مسافة جغرافية واسعة لا يُستطاع معرفة سعتها وحجمها، ومؤدى ذلك أن حجم صلح الإمام ومستوى إيجابيّاته مما لا يقدر وصفه إنسان، وهو عليه السلام لديه كامل الثقة بالله بأنّه معزّهم لا مذلّهم. ولكنّه كره القتال على المُلْك. فالقتال يجب أن يكون من أجل الله، ولا يوجد في قاموس المؤمنين بحق أن القتال يكون من أجل حطام الدنيا، وقد خاف عليه السلام وخشي أن يُجتثّ المسلمون عن وجه الأرض لو لم يصالح معاوية (إنّي خشيت أن يُجتثّ المسلمون عن وجه الأرض)[٥]. وربما يبدو

---

(١) المصدر السابق، تذكرة الخواص، ص٢٠٧، وهو تكملة لحديث الإمام الحسن عليه السلام.

(٢) كتاب الاحتجاج، للطبرسي، ج٢، ص٢٩٠.

(٣) الدينوري، ص٢٠٣.

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر، ج١٢، ص٥٤٤.

(٥) حياة الإمام الحسن عليه السلام، باقر شريف القرشي، ج٢، ص٢٦٩.

للوهلة الأولى أن الأمر ليس بهذه السهولة، فهل هناك خوف حقيقي على المسلمين، إذ لم يوافق الإمام عليه السلام على اتفاق الهدنة؟ والجواب بالإيجاب، فلو لم يوافق عليه السلام على الصلح، فالله وحده يعلم أي المصائب ستجرّ على المسلمين، بل وأي النكبات ستنهال على الوجود الإسلامي، وستكون التجربة الإسلامية الرائعة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عرضة للزوال ومرشّحة للانقراض وساعتئذ ستبرز شيطنة معاوية على كل المستويات وسيكون أمثاله عناوين الأمة ورموزها، وقد أوضح الإمام عليه السلام أنه لم يكن يريد الدنيا، ولو أرادها ولو على مستوى الفرضية، فإن معاوية ليس بأصبر عند اللقاء، وهو القائل عليه السلام: «لو أردت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء، ولا أثبت عند الحرب مني، ولكني أردت صلاحكم»[1] فهو عليه السلام ليس طالب دنيا، ولو كانت الدنيا مقصوده وهدفه، فلن يكون معاوية أصبر عند اللقاء، لكنه عليه السلام أراد صلاح الناس، وإن كان ثمن ذلك التضحيات الكبرى والضخمة، وطالما بيّن الإمام أنّ الصلح فيه من الحكمة ما لا يمكن لأي أحد معرفتها، وقد ضرب لذلك العديد من الأمثلة (وإن كان وجه الحكمة فيما أتيته ملتبساً.. ألا ترى الخضر لمّا خرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، سخط موسى فعله لاشتباه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي ـ هكذا أنا سخطتم عليّ بجهلكم وجه الحكمة ـ ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل»[2]، فالإمام كان دائماً يطلب من المحيط حوله

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ج٢، ص٢٢٥.

(٢) علل الشرائع، للشيخ الصدوق.

أن يستوعب ما فعل عليه السلام، وما سخط النبي موسى عليه السلام وغضبه إلا لجهله بالحكمة من وراء العديد من الأفعال التي قد تبدو وللوهلة الأولى غير صحيحة، ثم يبيّن عليه السلام أنه لولا ما أتى من الصلح، لا يبقى أحد من شيعة أهل البيت إلا قُتل، أمام هذا، فالحديث لا يكمن في حياة الإمام أو موته، بل يكمن في حياة الأمة أو موتها، في عزّها وسعادتها، أو في ذلّها وشقائها، ومَن لا يستوعب الحكمة من وراء فلسفة الصلح، ما عليه إلاّ أن يدقّق في مطاوي كلمات الإمام ونصوصه، ليتعرّف على عمق المظلومية التاريخية التي طالت إمامنا العظيم عليه السلام. صحيح أنّ الإمام عليه السلام صالح معاوية، لكنه صالحه بعد أن تفرّق الجمع بين يديه وانفضّ من حوله، ولو وجد الانصار كما وجد أخوه الحسين عليه السلام من بعده، لقاتل معاوية قتالاً أيسره أن تطيح الرؤوس وتتطاير الأيدي. لكن ماذا على إمامنا عليه السلام أن يفعل في ظل مجتمع يعشعش فيه الفساد وينخره سوس النفاق والمكر؟ وقد قال عليه السلام لمن استشكل عليه بأنه سلّم الأمر إلى معاوية، ولو وجد أنصاراً قاتل بهم ليلاً ونهاراً، فقال في جوابه: (إني ما سلّمت الأمر إلاّ لأني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه)[١]. هذا ما يمكن رصده لدى شخص يحاول قراءة الواقع كما هو، فيخرج بهذه النتائج التي تبقى أسيرة معلومات محدودة، وعلى ضوئها تكون النتيجة التي ستتأثر بالطبع بكل المعطيات والمعلومات والمقدّمات[٢].

---

(١) الاحتجاج، للعلامة الطبرسي، ص١٤٩.

(٢) يقول أهل المنطق أن النتيجة تتبع لأخس المقدمات.

كلمة لا بدّ منها: بعد الذي تقدّم من كلمات تعبّر عن مدى الأسى الذي بنى في قلب إمامنا المجتبى عليه السلام بيتاً للأحزان، فهو عليه السلام الذي اضطرته قلة الرجال وخيانتهم إلى القبول بالصلح مستسلماً للمصلحة الكبرى، وهو أيضاً المضطر لشرح مواقفه وتبرير صلحه لأناسٍ لم يمت بعضهم إلى الإنسانية بصلة. مع أن المحتاج إلى التبرير هم وليس هو عليه السلام، فهم من أخذوه إلى ما لا يريد، وتخاذلهم قاده إلى صلحٍ لم يكن يريده[1]، وجبنهم هو الذي حتّم عليه القبول بالهدنة، لأنّ الذي حصل ليس صلحاً بمعناه الدقيق، بل هدنة معيّنة لوقت غير بعيد، فالمجتمع الذي عاصره الإمام والجنود بآلافهم المؤلفة وتاريخهم الجهادي العريق هم المضطرون للسيل من الأجوبة. فماذا فعل جنود الإسلام مع إمامهم وقائدهم؟ ولماذا ألقوا السلاح وتركوا سِبط نبيّهم يواجه الغربة والوحدة وقلّة الناصر؟ هل شحذوا الهِمم ليكونوا المدافعين المجاهدين معه أم أن الدنيا سلبت منهم روح الجهاد والتضحية؟ وهل يحقّ لهم الاعتراض على إمامهم مع أنّ الاعتراض عليهم هو العنوان البارز والعريض، والذي يفضح فيهم كل مزاعمهم الإيمانية، ولقد صدق الشاعر حين قال:

أنا في الحرب ما جرّبت نفسي
ولكن في الهزيمة كالغزال[*]

(١) صدق في هؤلاء المثل الشعبي اللبناني والذي يقول: ضربني وبكى وسبقني واشتكى. وهو يستعمل في تلك الحالة التي يكون المضروب فيها هو المحتاج إلى الشكوى، لكن الضارب يسارع إلى الشكوى.

(*) لم نجد لقائل هذا البيت من أثر، ما أعرف عنه لقبه وكنيته «أبو الشجعان»، ويقول في تلك القصيدة: ترى الفئران تهرب من أمامي... إذا ما شاهدت يوماً خيالي.

فهم في الحروب يولّون الأدبار، ويفرّون فرار الثعالب والأرانب، أمّا في السلم وعالم التنظير فهم غزلان البراري. نقول هذا ونحن نسوق شاهداً آخر على أن الإمام لم يكن يرغب في إعطاء معاوية ما يريد، فيقول عليه السلام لمعاوية: «والله لو وجدتُ صابرين عارفين بحقي غير منكرين ما سلّمت لك ولا أعطيتك ما تريد»[1].

وعلى ذلك فهل أجوبة الإمام وتبريراته منطلقها الدفاع عن نفسه، وأنه لم يخن الأمانة، أم أن الأمر أبعد من ذلك؟ خلاصة الأمر: أنه عليه السلام ليس في صدد الدفاع عن نفسه كشخص، فهو يريد لمنصب الخلافة أن يبقى طاهراً نقياً من الشوائب، وكلما دافع عن الصلح، كلما دافع عن المنصب الإلهي المقدس، وهو يريد إبقاء ما يمكن إبقاؤه بعد سلسلة الخيانات والاستسلامات لمعاوية، ويريد إنضاج الظروف أكثر لفرصة تاريخية أخرى.

* يثرب.. محطّ الرحال

بعد كل الأحداث المؤلمة والخطيرة، وما عاناه الإمام من شيعته وأنصاره، وبعد أن استقرّ بنو أمية في عاصمة أهل البيت (الكوفة) حيث انتزى على منبر علي بن أبي طالب عليه السلام شخص مثل زياد بن أبيه أو ابن سمية، في خضمّ تلك الأيام المرة والأجواء الصعبة يتوجه الإمام الحسن إلى المدينة المنورة والتي كانت تنتظر قدومه

(١) البحار، محمد باقر المجلسي، ج٤٤، ص٤٥؛ الطبقة الحديثة، وهو جواب الإمام على رسالة أرسلها معاوية إليه عليه السلام.

على أحرّ من الجمر، وقد هبّ أهلها لاستقباله عليه السلام تماماً كما هبوا لاستقبال جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله من قبلُ، هبّوا لاستقبال الرجل الذي عانى القهر والغربة في عاصمة المسلمين والمؤمنين، هبّوا والفرح يغمر قلوبهم ويعتمر نفوسهم بسبب البركة التي ستحلّ عليهم بوجود سبط الرسول صلى الله عليه وآله، وكان بيته عليه السلام، هو الحرم الثاني في المدينة الذي كان يُزار بعد الحرم النبوي الشريف، توجه الإمام إلى المدينة بعد إدراكه أن البقاء في الكوفة فيه الكثير من أنواع الإذلال، وما هي إلاّ اشهر من استيلاء معاوية حتى بدأ يُنكّل بالشيعة ويلاحقهم في كل حدب وصوب، فصاروا ونتيجة الاضطهاد الذي لا يُحتمل يُطاردون من بلد إلى آخر، ويفرون من جور معاوية حتى التحقوا بالإمام الحسن عليه السلام الذي شكّل بدوره مدرسته الكبرى في يثرب، وراح يعمل في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، ويتفرّغ لنشر العلم ودعوة الناس إلى مكارم الأخلاق، وقد التحق بالمدرسة كبار العلماء الذين وجد فيهم المعين لأداء رسالته عليه السلام، وهو بذلك يختار واجباً إلهياً آخر، وهو واجب التعليم والتربية. فلقد عانى عليه السلام من الجهل والجاهلين أشدّ المعاناة وتلقّى أسوء الاتهامات، ما يدل على عمق الفجوة بين الناس والعلوم الإلهية، فالمجتمع الذي عاصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نسي أو تناسى كل توصياته، فلا بد من إعادة تأهيله حتى لا يكون السقوط مريعاً إلى الحد الذي افتقر فيه مجتمع الإمام المجتبى عليه السلام إلى حسن السلوك مع إمامهم، وحتى لا يتكرّر هذا الأنموذج البشع، فلا بد أيضاً من إخضاع هذه الأمّة إلى مراقبة شديدة ووضعها في العناية الفائقة لتصحو من غفوتها، ليأتي الزلزال الكربلائي، لتكون كربلاء هي

الصدمة التي توقظ النائمين، ورجع الصدى الذي يعيد الهائمين على وجوههم إلى الصراط المستقيم.

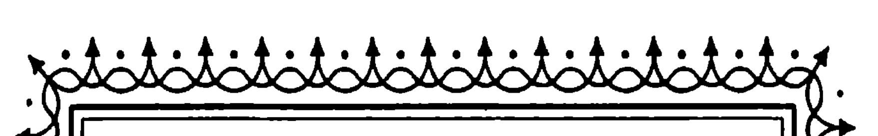
* أصداء دعوته عليه السلام

أزعجت مدرسة الإمام أبي محمد أزلام الحكم الأموي، الذين كانوا بدورهم يرصدون حركته عليه السلام وكانت تأتيهم التقارير من جواسيسهم وعيونهم التي كانت تُجمع على أن الإمام عليه السلام كان يقوم بدور يشكِّل خطراً حقيقياً على الزعامة المزيّفة، التي تسرق أمجاد المسلمين وتضعها في أرصدة حساباتها الشخصية الدنيئة، وطالما عقد أقطاب تلك الزعامات أمثال عمرو بن العاص والوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعتبة بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة، وعلى رأسهم رأس الفساد وقمة النّفاق معاوية بن أبي سفيان، حيث عقدوا الكثير من الاجتماعات للتداول في نشاط الإمام عليه السلام حيث جاء في كلمات البعض الموجّهة إلى معاوية (أن الحسن قد أحيا أباه وذكره، قالَ فصدقَ، وأمر فأُطيع، وخفقت له النعال، وإن ذلك لرافعه إلى ما هو أعظم منه، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسيء إلينا)[1] وواضح من خلال هذا النص أنّ القوم يشعرون بفداحة الخطر الذي يشكّله عليهم الإمام الحسن عليه السلام، حتى تعبيرهم بأن النعال تخفق له، فهذا اعتراف منهم أن المؤمنين يسيرون خلف إمامهم حذو النّعل بالنّعل، وهنا يكمن السرّ في أولياء الله الذين إن خسروا معركة، فإنّهم يختارون موقعاً آخر وآخر، غير مستسلمين لشعارات البكاء على

---

(١) أهل البيت، توفيق أبو علم، ص٣٤٣، عن شرح النهج لابن أبي الحديد.

الأطلال، وقد نمت حركة الإمام فعلاً حتى بلغ نشاطه عليه السلام إلى دمشق عاصمة الحكم الأموي، حتى كسب الرأي العام في الشام، واستطاع جذب الكثير من المؤيدين لأهل البيت عليهم السلام، ما جعل الحكم الأموي يفقد صوابه فيتّخذ قراره الحاسم بتصفية الإمام العظيم عليه السلام واغتياله، بعد أن ضاق ذرعاً من حكمته وصبره وجلده وعلمه، ظناً منه بأنه يستطيع إطفاء نور الله.



الفصل الثامن

معراج الروح

* الاستشهاد الصامت.
* وصية عتبة الموت.
* إلى جوار الله..
* وقع الفاجعة على الفاجع.
* الخاتمة
* وأخيراً
* المصادر والمراجع
* فهرست



معراج الروح

* الاستشهاد الصامت

آن للمجتبى عليه السلام أن يستريح من وعثاء السفر، فلقد اضناه التعب وأثقله الهجر، ولم يعد جسده الشريف يحمل ويتحمّل أكثر.

لقد أتعبته الدنيا والمجتمع، وجار عليه زمانه، وظَلَمَهُ أعوانه باستثناء الثلة الطاهرة، وقسى عليه الدهر العنود، فالموت بالنسبة له هو نهاية مطاف الرحلة الشاقة في دنيا اللئام. ففي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: (وأصْلِحْ لي آخرتي فإنّها دار مقرّي، وإليها من مُجاورة اللّئام مفرّي)[1] فهو نهاية وبداية في آنٍ واحدٍ،.. نهاية التكليف والكدح والكبد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[2] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾[3]. ونهاية الامتحان الصّعب والذي تعدّدت صوره وتنوّعت أساليبه واختلفت أنواعه مستهدفاً المقام الشامخ لإمامنا عليه السلام وبداية الالتحاق بالرفيق الأعلى، حيث

---

(١) دعاء يوم الثلاثاء، مفاتيح الجنان، للشيخ عباس القمي، دار الملاك، ص٦٥.

(٢) الانشقاق: ٦.

(٣) البلد: ٤.

لا همّ ولا حزن ولا نَصَبَ ولا خونة، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، في جنّة الخلد، وهو سيّد من سيّديّ شبابها، وهناك يحسن الجزاء. حيث لا نماذج تشبه البشر شكلاً لا مضموناً تريد النيل منه عليه السلام. إنما الجزاء بما صبر وعانى.

لقد خاف معاوية أن يأتي أجله، وهو بعدُ لم يتخلّص من الإمام الحسن عليه السلام ليهيّئ الجو لولده يزيد، وهذا الخوف بدوره، لمثل معاوية الذي كان يحسب حساباً لموته لا ليحسِّن من سلوكه أو يغيّر من طبيعته الإجرامية، بل ليخلف من بعده أمثال يزيد وليتحمّل وِزر تصرّفاته وليكون شريكاً، بل مؤسساً لكل الأحداث والفجائع التي عصفت بالحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه في كربلاء.

فما كان من الرجل إلاّ اتّخاذ قرار قتل الإمام، بعد أن باءت العديد من محاولاته بالفشل، وقد قلنا فيما تقدّم أن معاوية يعتبر العسل المسموم من جنوده، بل من أخلص جنوده، فأرسل الرجل إلى ملك الروم يطلب منه سُمّاً فتاكاً، فما كان من ملك الروم إلاّ الإمتناع عن إجابته وقد كتب له: أنه لا يصلح في ديننا أن نعين على قتل من لم يقاتلنا، فأجابه معاوية أن الرجل الذي أردتُ قتله هو ابن الرجل الذي خرج في أرض تهامة ـ يعني رسول الله ـ وقد خرج الآن يطلب ملك أبيه، وأنا أريد قتله بالسمّ لأريح منه العباد والبلاد، فأرسل إليه سُماً مميتاً[1]، ولما وصل السم إلى يد معاوية صار يفكّر فيمن يضعه للإمام عليه السلام إلى أن تفتّقت عبقريّته الخبيثة إلى

(١) البحار، ج١٠، ص١٧٣.

اختيار زوجة الإمام، وهي جعدة بنت الأشعث، فهي ابنة من اشترك في دم أمير المؤمنين عليه السلام كما جاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام: (إن الأشعث اشترك في دم أمير المؤمنين عليه السلام وابنته جعدة سمّت الحسن عليه السلام وابنه محمد بن الأشعث اشترك في دم الحسين عليه السلام)[1] فبئس الأسرة هي، وتَعساً لهذا البيت الحافل بتاريخ الإجرام والخيانة. واستطاع معاوية فعلاً إغراء جعدة بالأموال فوعدها أن يدفع لها مائة ألف درهم إن دسّت إليه السّم ومات منه. ووعدها بأن يزوّجها من ولده يزيد. فما كان منها إلا الاستجابة وتنفيذ طلبه فأخذت السّم أداة جريمتها، وكان الإمام صائماً والجو حاراً فوضعت السّم في اللبن فتناول منه الإمام جُرعة، فما إن وصلت إلى جوفه (سلام الله عليه) حتّى تقطّعت أمعاؤه، فلمّا أحسّ بألم السّم الشديد قال عليه السلام: (إنّا لله وإنّا إليه راجعون، الحمد لله على لقاء محمد سيّد المرسلين، وأبي سيد الوصيين، وأمي سيدة نساء العالمين، وعمي جعفر الطيار، وحمزة سيد الشهداء) ثم التفت إلى جعدة فقال لها: (يا عدوّة الله، قتلتيني قتلك الله، والله لا تصيبين مني خلفاً، ولقد غرّك ـ يعني معاوية ـ وسخر منك يخزيك الله ويخزيه)[2].

وقد أخزاها الله فعلاً كما دعا الإمام عليه السلام حيث صارت تُلقّب بمسمّمة الأزواج[3]. إنّ هكذا مظلومية هي قاسية وصعبة حين يكون العدو في الداخل وفي البيت نفسه وتحت سقف واحد، فالزوجة

---

(١) سيرة الأئمة الاثنى عشر، السيد هاشم معروف الحسني، ج١، ص٦٢٧.

(٢) تحف العقول، ص٣٩١.

(٣) أعيان الشيعة، ج٤، ص٧٦.

ينبغي أن تكون شريكة الحياة لا ناهيتها، تخفّف الآلام وتبلسم الجراحات، لا أنها الجارحة والقاتلة. أمّا عن وعد معاوية لها بتزويجها من يزيد بعد أن حاولت استبدال نور الإمامة بديجور الأموية، فقد سخر منها معاوية بعد طلبها منه أن يفي بوعده لها بزواجها من يزيد فقال: (إنّا نحب حياة يزيد، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه)[١]. وهذه القضية معروفة ومشهورة، ومسألة أنّ معاوية هو الذي دسّ إليه السّم هي من المسائل التي اتّفق عليها أكثر المؤرخين، وقد ذكر ذلك صاحب الاستيعاب، والإصابة، والإرشاد، وتذكرة الخواص، ودلائل الإمام للطبري، ومقاتل الطالبيين، والشعبي، واليعقوبين وابن سعد في الطبقات، والمدائني، وابن عساكر، والواقدي، وابن الأثير، والمسعودي، وابن أبي الحديد، والمرتضى في تنزيه الأنبياء عليهم السلام والطوسي في أماليه، والشريف الرّضي في ديوانه، والحاكم في المستدرك وغيرهم وغيرهم...

وقال الحاكم في المستدرك: «أن الحسن بن علي سُمّ مراراً، كل ذلك يسلم حتى كانت المرة الأخيرة التي مات فيها، فإنه رمى كبده»[٢]. وقد بقي الإمام يعاني آلام سكرات الموت وأوجاعه وازدياد فعالية السم في جسمه لفترة استمرّت إلى أربعين يوماً[٣]. وقيل: شهرين[٤]. وقيل أنه مكث يومين بعد التسمّم لا غير[٥]..

---

(١) مروج الذهب، ج٢، ص٣٠٣.

(٢) المستدرك، ج٦، ص٥، طبع باريس.

(٣) دائرة المعارف، فؤد فرام البستاني ج٧، ص٣٨؛ شرح ابن أبي الحديد، ج٤، ص٤.

(٤) حياة الحيوان، للدميري، ١/ ٥٣.

(٥) تحف العقول، ص٣٩١.

وجيء له بطبيب وفحصه فحصاً دقيقاً فلمّا يئس من حياته التفت إلى أهله قائلاً لهم: «إنّ السّم قد قطّع أمعاءه»[1]، وروى أبو الحسن المدائني قائلاً: «سُقي الحسن عليه السلام السّم أربع مرات»[2].

* وصية عتبة الموت

في تلك الفترة الدقيقة الموجعة والمؤلمة يدخل عليه الصّحابي الجليل جنادة بن أبي أمية ويطلب منه ان يعظه، فيجيب الإمام عليه السلام لطلبه وهو في تلك الأوضاع الحرجة فيقول عليه السلام: «يا جنادة، استعدّ لسفرك، وحصّل زادك قبل حلول أجلك، واعلم أنّك تطلب الدنيا والموت يطلبك، ولا تحمل همّ يومك الذي لم يأت على يومك الذي أنت فيه، واعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلاّ كنت فيه خازناً لغيرك، واعلم أنّ الدنيا في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، وفي الشّبهات عتاب، فأنزِل الدنيا بمنزلة الميتة خذ منها ما يكفيك، فإن كان حلالاً كنت قد زهدت فيه، وإن كان حراماً لم يكن فيه وِزر، فأخذت منه كما أخذت من الميتة، وإن كان العقاب فالعقاب يسير، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فاخرج من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعة الله عزّ وجلّ، وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا صحبته زانك، وإذا أخذت منه صانك، وإن مددْت يدك بفضل مدّها، وإن بدت

---

(١) البداية والنهاية، ج٨، ص٤٣.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مجلد ٤، ص٤، دار الهدى - بيروت.

منك ثلمة سدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن سألته أعطاك، وإن سكت عنه ابتداك. وإن نزلت بك إحدى الملمات واساك، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق، وإن تنازعتما منقسماً آثرك»[١].

بهذه الكلمات ودّع إمامنا الحياة واختصر لنا الدنيا بكلماته الدرر والجواهر، وصَف لنا إمامنا عليه السلام قصة حياتنا وموتنا. فقد أراد لجنادة ولنا أن نستعدّ للسفر ونتزوّد للآخرة، فنحن ما بين طالب للدنيا ومطلوب للموت، فلا نحمل همّ الغد الذي لم يأتِ بعد، وإن الذي نكسبه من المال فوق قدرتنا هو لغيرنا وليس لنا، فالدّنيا فيها من الأفخاخ والمصائد ما ينبغي الحذر عندها لئلاّ تصطاد أهلها ونكون منهم. فهي كالميتة لمن يخاف على نفسه الهلاك، ومن أراد العزّة فهي في طاعة الله، ومن أراد صحبة الرجال فلا يصحب إلا من يصون ويعين. وقد ذكر المؤرخون أن الإمام الحسن عليه السلام خاطب الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «إن الذي أوتي إليّ سمّ أُقتل به، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله، وقد ازدلف إليك ثلاثون ألفاً يدّعون أنهم من أمة جدّنا محمد صلى الله عليه وآله، وينتحلون دين الإسلام، فيجتمعون على قتلك، وسفك دمك وانتهاك حُرمتك، وسبي ذراريك ونسائك»[٢]. أما فيما يخص قضية استشهاده فقد أوصى أخاه الحسين عليه السلام بقوله: «هذا ما أوصى به الحسن بن علي إلى أخيه الحسين، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له،

---

(١) أعيان الشيعة، ج٤، ص٨٥.

(٢) البحار، ج١٠، ص١٢٣.

وأنه يعبده حقّ عبادته لا شريك له في الملك، ولا ولي له من الذل، وأنه خلق كل شيء فقدّره تقديراً، وأنه أولى من عُبِدَ، وأحقّ من حُمِدَ، من أطاعه رشِد، ومن عصاه غوى، ومن تاب إليه اهتدى، فإنّي أوصيك يا حسين بمن خلّفت من أهلي وولدي وأهل بيتك، أن تصفح عن مسيئهم، وتقبل من محسنهم وتكون لهم خلفاً ووالداً، وأن تدفنني مع رسول الله ﷺ فإنّي أحق به وببيته، فإنْ أبوا عليك فأُنشِدك الله وبالقرابة التي قرّب الله منك، والرّحِم الماسة من رسول الله ﷺ أن لا يهراق من أمري محجمة من دم حتى تلقى رسول الله فتخصمهم وتخبره بما كان من أمر الناس إلينا»[1]. قال ابن عباس رحمه الله: أول ذل دخل على العرب موت الحسن عليه السلام. وقيل لأبي إسحاق السبيعي: متى ذُلّ الناس؟ فقال: حين مات الحسن وادُّعي زياد وقتل حجر بن عدي[2].

* إلى جوار الله..

لمّا اشتدّ بالإمام عليه السلام الوجع وبدت عليه علامات الموت، وازدادت معاناته من شدّة ألم السُم الذي انتشر في بدنه الشريف، وصار على قاب قوسين أو أدنى من الموت، التفت إلى أهله قائلاً: أخرجوني إلى صحن الدار، أنظر في ملكوت السماء، فحملوه إلى الصحن، فأخذ يناجي ربّه، وكان من جملة ما دعا الله فيه: «..

---

(١) أعيان الشيعة، ج٤، ص٧٩؛ أمالي الصدوق، عيون المعجزات للسيد المرتضى؛ مرآة العقول، ج١، ص٢٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٨.

اللهم آنس صرعتي، وآنس في القبر وحدتي» وأخذ يتلو من آيات الذكر الحكيم ويناجي الله حتى فاضت نفسه الشريفة والتحقت بالرّفيق الأعلى، فارتفعت الأصوات من بيوت الهاشميين، وعلا الصراخ والعويل من بيوت يثرب، وهرع الناس إلى بيت الإمام عليه السلام وهم يلطمون على صدورهم بعيون باكية دامعة حزينة، حتى أنّ أبا هريرة ذهب إلى مسجد الرسول وهو ينادي بأعلى صوته: (يا أيها الناس، مات اليوم حبّ رسول الله صلى الله عليه وآله فابكوا)[١]. وبعد أن جهّز سيد الشهداء جثمان أخيه الشهيد حيث الغسل والكفن والحنوط، أمر عليه السلام بحمل الجثمان الطاهر إلى مسجد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى يُصلَّى عليه[٢]. وقد كان التشييع حافلاً بكثرة المشيعيين وزاخراً بالعديد من المعاني، وقد حدَّث ثعلبة ابن مالك عن كثرة المشاركين في مراسم التشييع فقال: «شهدت الحسن يوم مات، ودفن في البقيع، ولو طرحت فيه إبرة لما وقعت إلاّ على رأس إنسان»[٣]. واتّجه موكب التشييع نحو مرقد المصطفى صلى الله عليه وآله، فتكتّل الأمويون للحيلولة من دفنه بجوار الرسول صلى الله عليه وآله وقد أثاروا حماسة عائشة، ما جعلها تتصدى وهي دائمة التصدّي لهكذا مواقف وللأسف الشديد فجيء لها ببغلة[*] فامتطتها مقبلة على موكب التشييع، وهي تصرّ على أن لا يدفن الحسن عليه السلام بجوار جدّه، ولم يملك الحسين عليه السلام

---

(١) تهذيب التهذيب، ج٢، ص٣٠١؛ تاريخ ابن عساكر، ج٤، ص٢٢٧.

(٢) تاريخ ابن عساكر، ج٨، ص٢٢٨.

(٣) الإصابة، ج١، ص٣٣٠.

(*) قال لعائشة بعض من حضر: يوم على جمل ويوم على بغل يا أم المؤمنين، تجمّلتِ وتبغّلتِ ولو عشتِ تفيّلتِ، لك التسع من الثمن وبالكل تملّكتِ أو تحكّمتِ.

في تلك اللحظات الحسّاسة والحرجة إلّا الالتزام بوصية أخيه بعدم إراقة نقطة دم أو محجمة من دم في سبيل أمره عليه السلام رغم أن بعض الهاشميين هَمَّ بالهجوم على كلّ من يمنع من دفن الإمام عليه السلام في المسجد النبوي، وقد صاح بهم الحسين عليه السلام قائلاً: «الله الله يا بني هاشم، لا تضيّعوا وصية أخي، واعدلوا به إلى البقيع، فإنّه أقسم عليّ إنْ أنا مُنعت من دفنه مع جدّه، أن لا أخاصم فيه أحداً وأن أدفنه في البقيع مع أمه» ثم التفت عليه السلام إلى الأمويين وقال لهم: «والله لولا عهد الحسن إليّ أن لا أهريق في أمره محجمة من دم لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها، وقد نقضتم العهد الذي بيننا وبينكم، وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا»[١].

ثم أمر الحسين عليه السلام بحمل الجثمان المقدّس إلى البقيع، فأودع بجوار جدّته فاطمة بنت أسد[٢] وبعد الفراغ من دفنه عليه السلام أقبلت الناس تقدم العزاء لأخيه الحسين عليه السلام. روى المدائني عن جويرية بن أسماء قال: لما مات الحسن عليه السلام أخرجوا جنازته، فحمَل مروان بن الحكم سريره فقال له الحسين عليه السلام: تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرّعه الغيظ، قال مروان: نعم كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال»[٣]. فرحمه الله من ولي من أوليائه البررة الأخيار، فقد قيل: عندما تجف مياه الينبوع نفطن إلى قيمته، ورحمه الله من إمام قام أو قعد، من عظيم عاش أم مات، وعظّم الله أجور المفجوعين لرحيله والمصابين بأفدح المصائب لمصابه.

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام، شريف القرشي، ج٢، ص٤٩١.

(٢) كفاية الطالب، ص٢٦٨.

(٣) شركة نهج البلاغ، ابن أبي الحديد، مجلد ٤، ص٥.

* وقع الفاجعة على الفاجع

كان معاوية ينتظر وعلى أحرّ من الجمر خبر مقتل الإمام عليه السلام بعد أن أحكم خطة القضاء عليه، وكان يترقّب أخبار بريد يثرب لحظة بلحظة، وما إن وصله خبر استشهاد الإمام لم يستطع أن يتمالك نفسه فخرّ ساجداً وكبَّر، فكبّر من كان معه في الخضراء، فلمّا سمعت زوجته فاختة بنت قرضة صوت تكبيره خرجت من خوخة[*] لها فرأت زوجها والسرور قد غمره، فقالت له: سرّك الله يا أمير المؤمنين، ما هذا الذي بلغك فسررت به؟ فقال لها: موت الحسن، فاستَعْبَرت وقالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ثم بكت، وقالت: «مات سيد المسلمين، وابن بنت رسول الله»[1].

وقد وفد على معاوية المقدام بن عدي بن كرب وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام فقال له معاوية مظهراً الشماتة: «يا مقدام، أعلمت أن الحسن بن علي توفي؟ فاسترجع المقدام، فالتفت إليه معاوية والسرور على وجهه قائلاً له باستهزاء: «أترى موت الحسن مصيبة؟» فقال مقدام: «ولِمَ لا أرها مصيبة؟ وقد وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله في حجره، وقال: هذا منّي، وحسين من علي»[2].

لقد فرح معاوية بموت الحسن عليه السلام لأنه أزاح عقبة رئيسة كانت دائماً تشكّل حجرة عثرة أمام طموحاته. فرح لأنه أزال أمام يزيد

(*) هي الكوة التي تسبب في دخول الضوء إلى المنزل، وهي الباب الصغير في الباب الكبير.

(١) مروج الذهب، ج٢، ص٣٠٥.

(٢) كفاية الطالب، ص٢٦٨.

ولده ما يشكل عائقاً ومانعاً من تحقيق أحلامه التسلطية المستمرة عبر أولاده وأحفاده إن قَدِر.

وذكر المؤرخون أن ابن عباس دخل على معاوية فرآه مسروراً بموت الإمام فقال معاوية: «يا ابن عباس هلك الحسن! فقال ابن عباس: نعم هلك، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، قال ذلك مكرراً. وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته، أما والله ما سدّ جسده حفرتك، ولا زاد نقصان أجله في عمرك، ولقد مات وهو خير منك، ولئن أُصبنا بمن كان خيراً منه جدّه رسول الله ﷺ فجبر الله مصيبته، وخلف من بعده أحسن الخلف»[1]، وشهق ابن عباس من الحزن والبكاء فبكى من حضر في بلاط معاوية، وأظهر معاوية نفسه باكياً حيث تباكى رياءً ونفاقاً.

فسلام عليك أيها الإمام يوم وُلدت ويوم جاهدت ويوم تبعث حياً..

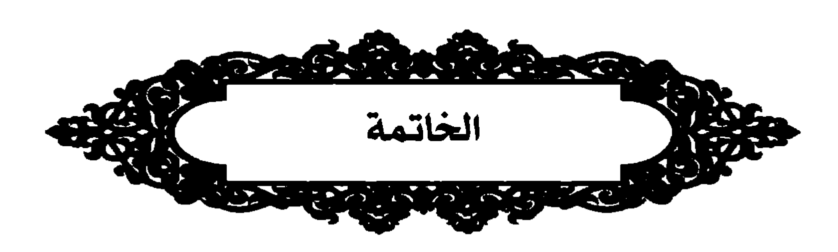
.. سلام على روحك وبدنك، على مضجعك ومدفنك.

.. سلام عليكِ أيتها الجنة تستقبلين سيد شبابك.

.. تعساً لك أيتها الدنيا تقتلين صفوة الخلق وآية الخُلق لينعم بمتاعك الغرور كل مغرور.

---

(١) حياة الإمام الحسن عليه السلام، باقر شريف القرشي، ج٢، ص٤٩٩.



الخاتمة

كما البداية النهاية، وكما بدأنا مع عظيم من آل المصطفى ﷺ به نختم عليه السلام، وبينما أنا على وشك وضع اللمسات الأخيرة وإعلان الختام لكتابي هذا وكتابتي المتواضعة، يحزّ في نفسي أن أكتب سطوري وصفحاتي هذه وأنا في مقام المدافع النظري لا العملي ليس إلّا!

أحاول أن أرفع وأدفع الاتهامات الباطلة عنه عليه السلام والتي وجّهها المؤرخون الذين يدورون في فلك أئمة الكفر، إني وإن لم أكن معاصراً له لأفخر بجنديتي لقيادته وأكون المدافع والحامي بالسيف لا اليراع(*)، وبالدم لا الحبر، وأكون المنضوي تحت رايته، ذائداً عن حياضه عليه السلام، متصدّياً لكل من تعرّض له بسوء، خصوصاً أولئك الذين عرفوا منزلته ومقامه في قلب جده الرسول الأكرم ﷺ فأعرضوا عنه وتعمّدوا إغفال أحاديث النبي ومداليلها ومراميها.

إني وإن حُرمت من متابعة ومواكبة سيرته وحياته عليه السلام، لكني أعتبر نفسي محظوظ لأني عشت معه فكراً وروحاً ووجداناً،

(*) اليراع: القصب.

محظوظ بطوافي حول مقامه الإلهي الشامخ وأنا أكتب وأبحث حوله، ويَحضرني في الأثناء مقولة العبد الذي وضع الحسين خدّه على خدّه قبيل استشهاده في كربلاء (مَن مثلي وخدّ الحسين على خدي)، ومَن مثلي وأنا أكتب عن الحسن صنو الحسين، مَن مثلي وأنا أشرّف نفسي بذكر سبط الرسول عليه السلام.

ولا أخفي أن ألماً كبيراً كان يعتصر قلبي ويتضاعف كلما كنا نستعرض وقائع ما حصل مع إمامنا الحسن عليه السلام ومرارة الأحداث التي عاصرها، والرجال الذين تمرّدوا عليه عليه السلام حتى وصل إلى وقت بات يشعر فيه بحقيقة الغربة ومرارتها.

هذا والإمام صابر محتسب، كلما ذهب إلى بلد من البلدان أو مصر من الأمصار، كان إذا سُئل عن الصلح، يضطر دائماً إلى تبريره، وكأنه قد جاء ببدعة وغيّر السنن مع أن وجوده الشريف وسيرته العطرة هي السنَّة بذاتها والتشريع بنفسه، وهو عليه السلام الذي لم ينكر حتى معاوية منزلته وعلمه حينما قال: «ما تكلم عندي أحد أحبّ إليّ إذا تكلم أن لا يسكت من الحسن بن عليّ»[1](*). فقد

---

(١) اليعقوبي، ج٢ ص٢٠٢؛ وابن كثير، ج٨ ص٣٩.

(*) نحيل القارئ الكريم إلى كتاب الاحتجاج والذي فيه الكثير من نقاشات الإمام عليه السلام والتي تُظهر مدى علمه ومقدرته وشموليّة معرفته (الله أعلم حيث يجعل رسالته)، وخصوصاً فيما يتعلّق بأجوبة الإمام الحسن عليه السلام بحضرة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وأجوبته عن مسائل جاءت من الروم ثم من الشام وكانت أيضاً بحضرة الأمير عليه السلام، واحتجاجه عليه السلام على جماعة من المنكرين لفضل أهل البيت عليهم السلام بحضور معاوية وغيرها وهي موجودة ما بين صفحة ٢٦٧ إلى صفحة ٢٨٢ في الجزء الأول، مؤسسة الأعلمي - بيروت. ذكرنا بعضاً منها حين تحدَّثنا عن حوارات الإمام الحسن، وعن علومه عليه السلام.

عانى الإمام مظلومية متعددة الاتجاهات ليس لها نهاية، حتى أنه عليه السلام وبعد استشهاده لم يُترك بعيداً عن تجاوزات كل من أسهم في النيل من مقامه الشامخ، فطاولته الممنوعية ومنعته من أن يدفن قرب رسول الله صلى الله عليه وآله!!.

فسلام عليك أيها المُبعد بجسدك الطاهر عن روضة جدك المقدّسة، يا من وُلدت في زمن الجهل والجاهلية، وجاهدت في زمن الردّة والعصبية، ورحلت في زمن سلطان وجور بني أمية. وليسمح لي قارئي الكريم أن أعبِّر بالكلمات الوجدانية عن الألم، فالموجوع لا يُلام إن تحدّث بالوجدان، والمفجوع معذور إن زادت سطور أدبياته وإنشائياته!

سلام عليك يا ريحانة النبي وقرة عين الوصي، يا واحداً من خمسة هم أصحاب العباءة والكساء. سلام عليك مولوداً مُطهَّراً، يتدخل الوحي في تسميتك، والرسول الأكرم في تربيتك..

سلام عليك حين تحمّلت رؤية معاوية ناطقاً بالدين ومزيفاً للحقائق ومُصوراً لحقيقتك، وكأنك الخارجي عنه بينما هو في داخل الدين وصميمه..

كم قاسيت وكيف تحمّلت أناساً لا يفرّقون بينك وبين أعدائك؟ بل إن أعداءك في أفكارهم الهزيلة كانوا هم المفضّلون والمقدّمون، ولا أدري هل بهؤلاء يُنصر دين الله؟!

كم صبرت وصبرت؟ وكم واجهت أشخاصاً زايدوا عليك ووعظوك وأنت الموعظة كلها؟ كم عانيت من أناس ليس فقط أنهم جهلوك بل عادوك حتى صوروك بأنك تجسد الخطر والخطورة؟

وأنت أنت ابن علي والزهراء، وهم هم أبناء الطلقاء؟ لقد خافوك بعد أن تركت لهم الدنيا ووقّعت الصلح لأنهم رأوا فيك مهدِّداً لزعامتهم وسلطانهم، فلم يتحمّلوا وجودك لأنه يشكّل لهم حجر عثرة أمام طموحاتهم الشيطانية.

كم وعظت الناس لئلا يستسلموا لزيف معاوية، وأنت سيدي لا تُغبط لمقامك بين أناس لا يميزون بين الحجارة والجواهر، حيث كانوا قبل فترة غير بعيدة يعلنون لك البيعة والطاعة في مهرجانات قلّ نظيرها، حيث لم يُجمع أهل الكوفة على أمر مثل ما أجمعوا يومذاك على بيعتك؟

سلام عليك أيها الجاهز للقتال والمستعد له، المشتاق الآنس به، أشد من الطفل بثدي أمه، لتضع حداً للنفاق كله والمكر كله، لكن قومك أخذوك إلى حيث لا تريد.

سلام عليك حين تفرّق عنك القادة والجنود لتصبح يدك كيد أبيك الجذّاء (بين أن أصول بيدٍ جذاء أو أصبر على طخية عمياء)[1]. سلام عليك حين تفرّقت عنك السرايا التي أعدّها أمير المؤمنين عليه السلام والتي كانت تعدّ بأربعين ألف مقاتل، وقد انفرط عقد هذه السرايا وتفكّكت وحدة الجنود وانتظامهم خلف قائدهم.

كم عانيت مولاي من الأحداث والفتن التي تخبّطت الشعواء ولم يتنبه الناس إلى أنك البوصلة وكنت في الإثناء قوي الحضور ولم تسمح لنفسك أن تبقى حياتك للدنيا، فأبقيتها للإسلام ومستقبله

---

(١) نهج البلاغة، شرح الدكتور صبحي الصالح، ص٤٨.

وللثورة الحسينية، ولم تستسلم لحرب يمكن لها أن تسجل للأعداء فرصة قتلك أو أسرك.

سلام عليك أيها الاستشهادي المجهول، فالاستشهاد هو بذل الروح وفناء الجسد في سبيل الله، وأنت الصانع مع أخيك الحسين أعظم مدرسة وأرقى معهد للشهداء.

ومن قال: أن الصبر على القتال والجهاد إن اقتضت المصلحة حتى لو بقي الجسد، ليس جهاداً من نوع آخر؟

إن أصعب شيء على فرسان الوغى الذين يستأنسون بقتال أعداء الله، أن يلقوا السلاح من أيديهم ويتحلّوا بالصبر فلا يقاتلون ولا يُسمح لهم بالقتال، وأنت سيدي ومولاي، كم كان تكليفك شاقاً وصعباً حينما كُلِّفت بالصلح في زمن لا يقدّر الناس فيه شجاعة الصلح؟

كم كانت مهمتك شاقة في زمن يستأهل أهله فيه مثل معاوية، لأنهم لا يقدِّرون شخصاً مثلك في زمنٍ وعصرٍ ومع أناسٍ هم على شاكلة أعدائك؟

لا أدري أي نوع من الشجاعة، وأي مستوى من البطولة هي تلك الشجاعة والبطولة في اتخاذ موقف خيار الصلح، حين تأخذ المصلحة الإلهية رجالها إلى اتخاذ مواقف أخرى وخيارات بديلة؟ فيختارون مصلحة الرسالة بعيداً عن حساباتهم، ويضحّون بما يضحّي أهل الدنيا بأنفسهم للوصول إليه وهو الجاه والعرش والتاج، فما أروع تضحيتك إمامي! وما أجلى من جَلوتك يا سيد الفضيلة!

لا أدري كم يصعب على المرء أن يرى عسكره ورجاله وأنصاره يتركونه في اللحظات الحرجة وفي ساعة العسرة ويلتحقون بالأعداء؟

وكم يصعب على إمامنا الحسن أن يرى كيف تبني دنانير معاوية ثقافة متخاذلة مهزومة تُشكِّل البديل عن القرآن الكريم، ولم تكن صعوبته في غربته عليه السلام لأن من يأنس بالحق لا يستوحش من تفرّق الناس، فصعوبته ووجعه وفجيعته عليه السلام كانت تكمن في الردّة عن الإسلام لا غير؟

كم يصعب على إمامنا الحسن أن يرى خوف الناس من بطش وظلم معاوية أكثر مما يخافون من بطش الله ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[1].

هنا كانت محنة الإمام، لم تكن محنته شخصية، كانت تحكم الإمام الحسن معادلة واحدة والباقي تفاصيل، ألا وهي الطاعة لله والحكم لله والرضا لله عزّ وجلّ وللذات الإلهية المقدّسة وليس لذاته هو عليه السلام.

فهو يُمثل مفردة ونسخة من تلك المعادلة الإلهية، وهو رمز غضب الله ورحمته.

كان هذا هاجسه وحاكمه وهمه وهمومه. كانت تحكمه مصلحة الإسلام بعيداً عن الذات، لأن ذاته عليه السلام كانت تُسجل بين يدي الله المزيد من الذوبان بالله، ولم تكن نفسه تعني له شيئاً إلاّ أن تكون رهن إشارة التكليف، ولا يهمّه أن تكون المهمة الملقاة على عاتقه محبّبة أو مكروهة للنفس، فسلام عليك مولاي من صابر ومحتسب.

---

(١) البروج: ١٢.

إقبل مني يا مولاي بضاعتي المزجاة فلقد سطّرت ريشتي في يدي إطاراً ضيقاً وأفقاً محدوداً لم يصل إلى كنهك ومعرفتك، فكتب بحسب محدوديته، لا بحسب سيرتك وصلحك وعظمتك.

كتب قلمي بحبره لا بدموع عيني، كتب بحروف جامدة قضية حية حيوية لم يفقه قصتها والأحداث، فسمح لنفسه أن يجود بالموجود كمحاولة متواضعة وهي إذ تلتمس من إمامنا عليه السلام أن يقبل هذا الجهد كما قبل مني تلك الجرأة، وأن يشملني بأخلاقه، إنْ زلّت بي قدم وأخذتني شطحة قلم، فلقد طمع في سمو أخلاقه مَن كان يجرّعه الغصص والغيظ، لأنَّ حلمه عليه السلام كان يوازي الجبال، فكيف بحالتي أنا المحب والمشتاق؟ وعلى أي حال لا أدري وأنا أكتب سطوري أيّهما انتصر، علمي أم جهلي.. فعذراً يا ريحانة المصطفى.. عذراً أيها الحبيب!

وأخيراً: وقبل أن أستودعك المولى عزّ وجلّ - قارئي الكريم - أطلب منك إذا ما تفاعلت مع الإمام عليه السلام، وتأثرت بكلّ أنواع مظلوميّته حياً وميتاً، أن لا تبقي السيرة أسيرة التاريخ دون أن تُجري لها عملية إسقاطات على واقعنا المعاصر، حتى لا نبكي الحسن عليه السلام ولا نوالي النهج الموصل به وإلى جدّه صلى الله عليه وآله، وندين معاوية ونحن نوالي أمثاله من ذوي المناصب الرئاسية والحكومية، فإننا إنْ لم نفعل ذلك فسنزيد من مظلومية سيد المظلومين، فهل يا تُرى أن يكون هذا الخلق الرفيع، وصاحب الحسب والنسب الشريف، وهو السيد الذي يشكّل مع أخيه الحسين، سيديْ شباب أهل الجنة، وحفيد سيد المرسلين، وابن سيد الوصيين وسيدة نساء العالمين، وأخ سيد الشهداء، فهل يمكن أن يُحبس مثل هذا الإمام

في حدود عصره دون أن يسمح له المحسوبون عليه أن يلامس حقّه حياتنا.. مع أنه إكسيرها وسرّها ورمزها وعنوانها. فإنْ آلمتنا غربته عليه السلام فعلينا أن لا نُبقي الحق وأهله في غربة، لئلا نسبح في بحر التاريخ الزاخر بمعانيه وعِبَره، دون أن يكون له وقعه وبرنامجه في كل حياتنا، في سِلمنا وحربِنا، في موالاتنا ومعاداتنا، وفي تاريخنا وحاضرنا، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مِنّا الإمام المفروض طاعته، من جحده مات يهودياً أو نصرانياً، والله ما ترك الله الأرض منذ قبض الله عزّ وجلّ آدم إلاّ وفيها إمام يُهتدى به إلى الله، حجّة على العباد، من تركه هلك، ومن لزمه نجا، حقاً على الله»[1]، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية»[2]، فلنحذر من مغادرة الدنيا دون معرفة إمام زماننا عليه السلام وحججه علينا، كما هو حجّة الله. والسلام ختام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، للشيخ الصدوق، ص٢٤٦؛ وفي البحار.

(٢) المحاسن، أحمد بن محمد البرقي، ص١٧٦.



القرآن الكريم

نهج البلاغة

الكتاب	المؤلف
حرف الألف	
الأئمة الإثنا عشر	عادل الأديب
الاحتجاج	أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي
الأخبار الطوال	الدينوري
الأربعون حديثاً	الإمام الخميني
الإرشاد	الشيخ المفيد
الاستيعاب	ابن عبد البر المالكي
أسد الغابة	ابن كثير
الإصابة في تميز الصحابة	ابن حجر العسقلاني
الأصول المهمة في حياة أبي الأئمة	السيد علي أصغر زادة القمي
أعيان الشيعة	السيد محسن العاملي
الإمام الحسن عليه السلام الكوثر المهدور	سليمان كتّاني

الإمامة والسياسة	ابن قتيبة
أنساب الأشراف	أحمد بن يحيى البلاذري
أهل البيت عليهم السلام	توفيق أبو علم
الآمالي	الشيخ الصدوق
إحقاق الحق	العلامة التستري
إعلام الورى بأعلام الهدى	الشيخ الطبرسي
الأغاني	أبو الفرج الأصبهاني
الأعلام	الزركلي الدمشقي

حرف الباء

بحار الأنوار	العلامة المجلسي
البداية والنهاية	ابن كثير الدمشقي

حرف التاء

تاريخ أبي الفداء	إسماعيل بن علي عماد الدين
تاريخ الخلفاء	السيوطي
تاريخ الخلفاء	ابن قتيبة
تاريخ الشعوب الإسلامية	كارل بروكلمان
تاريخ الطبري	أبو جعفر محمد بن جرير الطبري
تاريخ اليعقوبي	أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي
تاريخ دمشق	الحافظ ابن عساكر
تحف العقول	الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني
تذكرة الخواص	السبط بن الجوزي
التفسير الكبير	الفخر الرازي
التفسير الموضوعي للقرآن الكريم	السيد محمد باقر الصدر
تفسير جامع البيان	الطبري

تنزيه الأنبياء — السيد المرتضى
تهذيب التهذيب — ابن حجر العسقلاني

حرف الثاء

ثواب الأعمال وعقاب الأعمال — الشيخ الصدوق
ثورة الحسين عليه السلام — الشيخ محمد مهدي شمس الدين

حرف الجيم

جريدة الساعة — السيد عبد الحسين شرف الدين
جلاء العيون — السيد عبدالله شبّر

حرف الحاء

حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام — الشيخ محمد مهدي شمس الدين
الحكومة الإسلامية — الإمام الخميني (قدّس سرّه)
حياة الإمام الحسن عليه السلام — باقر شريف القرشي
حياة الحيوان — الدميري

حرف الخاء

الخرائج والجرايح — قطب الدين الراوندي

حرف الدال

دائرة المعارف — فؤاد فرام البستاني

حرف الراء

روضة الكافي — الشيخ الكليني

حرف السين

سفينة البحار — الشيخ عباس القمي

سنن ابن ماجه	محمد بن يزيد القزويني
سيرة الأئمة الإثني عشر	السيد هاشم معروف الحسني
سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام	العلامة مرتضى مطهّري
سيرة سيد المرسلين	الشيخ جعفر السبحاني
السيرة النبوية	ابن هشام

حرف الشين

شذرات الذهب	ابن عماد الحنبلي
شرح نهج البلاغة	ابن أبي الحديد

حرف الصاد

صحيح البخاري	محمد بن إسماعيل البخاري
صحيح الترمذي	الترمذي
صحيح مسلم	مسلم
صلح الحسن عليه السلام	الشيخ راضي آل ياسين
صلح الحسن عليه السلام	السيد محمد جواد فضل الله
الصواعق المحرقة	أحمد بن حجر الهيشمي

حرف العين

علل الشرائع	الشيخ الصدوق
عيون الأخبار	ابن قتيبة
عيون المعجزات	السيد المرتضى

حرف الفاء

فرائد السمطين	الجويني
الفصول المهمة	السيد علي أصغر ناظم زادة القمي

حرف الكاف

الكامل في التاريخ — ابن الأثير
كتاب الغدير — السيد عبد الحسين الأميلي
كشف الغمة — علي بن عيسى الأربلي
كفاية الطالب — العلامة علي بن خلف المالكي المصري
الكوثر المهدور — سليمان كتاني
كشف المحجّة لمثرة المحجّة — ابن طاووس

حرف اللام

اللمعة البيضاء — التبريزي الأنصاري

حرف الميم

مائة منقبة — محمد بن أحمد بن شاذان القُمّي
مجلة العالم العربي — علي أدهم
مجمع البحرين — فخر الدين الطريحي
مجمع البيان — الطبرسي
المحاسن — أحمد بن محمد البرقي
الملاحم والفتن — السيد ابن طاووس
مروج الذهب — المسعودي
المستدرك — الحاكم النيسابوري
مسالك الأفهام — الشهيد الثاني زين الدين بن علي العاملي
مسند أحمد — أحمد بن حنبل
مفاتيح الجنان — الشيخ عباس القمي
مقاتل الطالبين — أبو الفرج الأصبهاني
مرآة العقول — العلامة المجلسي

مروج الذهب	علي بن الحسين المسعودي
مناقب ابن شهرآشوب	ابن شهرآشوب
ميزان الحكمة	محمد الري شهري

حرف النون

نزهة اللآلئ على نظم الدراري	الألوسي
نزهة المجالس	عبد الرحمن الصفوري
النصائح الكافية	محمد ابن عقيل
نوادر المعجزات	محمد بن جرير الطبري
نور الأبصار	الشبلنجي المصري

حرف الواو

وسائل الشيعة	الحر العاملي
الوصية الخالدة	الإمام الخميني (قدّس سرّه)
وقعة صفين	نصر بن مزاحم

حرف الياء

ينابيع المودة	سليمان الحنفي



الفهرس